الدكتور ابراهيم السامرائي

التطور اللغوي التاريخي

دار الأندلس

التّطوّر اللّغوي

التّاريخي

الدكتور ابراهيم السامرائي

التطور اللغوي التاريخي

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

دار الأندلس - بيروت ، لبنان

هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ - ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة في التطور اللغوي

التطور اللغوي يعرض للعربية كما يعرض لأية لغة في عالمنا المعاصر. ولعل اللغات التي لم يكتب لأهلها أن تتبوأ مكان الصدارة في هذه الحياة المعاصرة أشد تأثراً بغيرها من اللغات المتطورة. وقد يأخذ مفهوم «الغلبة» على «التطور» فينصرف في استعمالنا في العربية إلى معنى «التقدم»، كأن نحسّ أن العربية مثلاً متخلفة عن ركب اللغات المتقدمة في مادة «المصطلح الفني الحديث» Le Terme technique فنقول إن لغتنا أصابت من التطور في مادة هذا «المصطلح» نصيباً موفوراً.

قلت: إن التطور يعرض لكل اللغات، وأُضيف إن هذه الظاهرة الاجتماعية تعرض للألسن الدارجة فتكون العامية في أي قطر عربي في عصرنا هذا غيرها في عصور سلفت. وليس أدل على هذا من تقارب العامية من اللسان الفصيح فأنت تحس أن العامية في أي بلد من البلدان تقرب من الفصيح وذلك لشيوع التعليم، وشيوع وسائل الإعلام في أي بلد. وإذا عرفنا أن «اللهجات» قد تحددت الفروق بينها في الزمن القديم بسبب من عزلة أهلها في بقعة لا يتاح لهم الاتصال الكثير مع غيرهم، وانعدام الكثير من وسائل الإعلام على النحو الذي نعرفه في عصرنا هذا، فإن الفروق فيما بينها قد ضعفت بسبب من الاتصال الكثير.

وكما تتحد البلدان العربية في أنها تتخذ من العربية الفصيحة أداة حضارية للعلم والعمل، وهي بهذا تؤلف وحدة طبيعية اجتماعية حضارية، تختلف فيما بينها في خصوصيات هذه اللغة الفصيحة في أي بلد من هذه البلدان. أُريد أن أقول: إن العربية الفصيحة تكتسب في أي بلد

من الألوان المحلية الخاصة ما يكون طابعاً لها يميزها عن غيرها. إنه ليس مما نبالغ فيه أن نقرأ مقالة في صحيفة أو كتاب فنحس أن صاحب هذه أو ذاك لبناني أو سوري، وإننا نقرأ شيئاً آخر فنشعر أن صاحبه من الشمال الافريقي.

إن مادة كل هذا تدخل في باب «التطور اللغوي» الذي تمثل في العربية المعاصرة في أقاليمها المختلفة. لقد أشرنا في هذا الكتاب إلى فصول من المادة اللغوية يتجلى فيها مبدأ «التطور» على نحو بارز، وعرضنا فيه للميادين التي كانت فيها العربية لغة متطورة تستجيب للمؤثرات الخارجية والداخلية.

لقد أشرنا إلى أن أول تجربة مرت بها هذه اللغة وهي تجربة العربية وهي تواجه الإسلام فتنتقل إلى لغة حضارة جديدة اتسمت شيئاً فشيئاً بمبدأ «العالمية». ثم أتيح لهذه اللغة أن تواجه الحضارات طوال العصور الإسلامية المتعاقبة.

غير أن من أعظم التجارب التي كان لها الأثر العظيم هي التجربة الحديثة التي تواجهها لغتنا المعاصرة. قد نقول: إن أصالة العربية، وما أفادته من التجارب الكثيرة تجعل منها أداة تملك من أساليب الوقاية ما تستطيع بها أن تواجه هذا المدّ الزاخر من الروافد الحضارية المعاصرة.

وقد يفرض هذا العصر على العرب أن يتعجلوا المسيرة ويجعلوا لغتهم تأخذ الجديد ولو كان أعجمياً، وتصنع فيه ما صنع الأوائل في استبدال أصوات بأخرى لا تعرفها العربية، وبتغيير الصيغ تغييراً يقرّبها من الأبنية العربية.

ثم إننا مضطرون إلى الإيمان بالجديد وأخذه رضي نفر من أهل الحفاظ أم لم يرضوا. إننا لن نصل إلى شيء كبير إن فزعنا إلى التمييز بين ما قالته العرب وما لم تقله. إن لغتنا الحديثة كسائر اللغات الأخرى تزخر بالجديد المستعار من الأساليب من اللغات الأخرى. ولا يضير العربية أن تتجدد فيها أساليب، وإن من هذه الأساليب ما غَبَرَ عليه عشرات من

السنين حتى خيل لكثير من المعربين أنه من العربية.

ألا ترى أنك لو قلت: «إن الأكثرية الساحقة من العرب تدرك أساليب المستعمرين في الاستغلال» مثلاً، لا يمرّ بخاطرك أن «الأكثرية الساحقة» هذه تعبير ليس من العربية؟ وأنه مما استعير في عصرنا مع عشرات بل مئات من التعابير من اللغات الأعجمية الغربية. إن قولنا: «الأكثرية الساحقة» تعبير من صفة وموصوف يؤديان معنى خاصاً هو أغلب الناس أو أغلب الجماعة. وهو ما كان يعبّر عنه في العربية القديمة بـ «السواد الأعظم» أو نحو من هذا.

و«الأكثرية الساحقة» بعض هذه المستعارات الجديدة التي نقلها التراجمة في مطلع هذا القرن فصارت من مواد هذه العربية المعاصرة. إنها من الفرنسية، وهي تقابل «La Majorité écrasante». وهي من غير شك تشير إلى موطن استعمالها، فالأكثرية في المجالس النيابية عند التصويت على قضية من القضايا ترى رأياً يغلب الرأي المقابل الذي تراه «الأقلية»، فكأن «الأكثرية» تسحق الجماعة الأخرى للغلبة الواضحة، وأنت ترى أن التعبير مترجم ترجمة حرفية.

ومثل هذا كثير نستطيع أن نفرد له معجماً خاصاً، وهو يزداد باطراد، فأنت تجد بين حقبة صغيرة وأخرى شيئاً من هذا الجديد الذي يندس في هذه اللغة العربية المعاصرة. وقد نجد شيئاً آخر لا نعرفه في العربية الفصيحة، غير أنه أخذ طريقه إلى العربية الجديدة فصار شيئاً من لوازمها. ومن ذلك استعارة بعض الصفات وإلصاقها بغير موصوفاتها. ألا ترى مثلاً أننا نقول: «مشروع شجاع» «ميزانية متواضعة» و«معاهد فقيرة» و«أفكار جريئة» و«اشتراكية رشيدة» و«مدينة فاضلة»؟

أقول: لم يكن شيء من هذه النعوت قد عرفته العربية الفصيحة فيما خلا هذا العصر من الحقب الخوالي. ولكن هذه التعابير من الجديد الذي عرفته اللغة المعاصرة، فما كان للعربية أن تعرف الشجاع إلا وصفاً لبني الإنسان، وما كان لها أن تطلق الجريء إلا صفة لفلان أو فلان من خلق

الله ممن عرفوا بـ «الجرأة». ومثل هـذا يقال في «المتـواضع» و «الفقـير» و «الرشيد» و «الفاضل» فكلها من صفات العاقل، فانتقالها إلى وصف ما لا يعقل من لوازم حياتنا المعاصرة شيء جديد عرفناه في اللغات الغربية ثم نقلناه شيئاً فشيئاً إلى العربية الجديدة فصار من مادتها وصفاتها التي عرفت بها.

وقد تعجب إذا قلت لك: إن هذا الجديد الوافد قد تجاوز هذا القدر من الشيوع في لغتنا إلى شيء يتصل بما ندعوه «النحو». ألا ترى أن الجملة العربية في بنائها وترتيب موادها قد تأثرت بالأساليب الغـربية. فقدّمنا ما يحسن ألا نقدمه، وأخّرنا ما يحسن أن نقدمه دون أن نراعي أصول العربية. إن من أصول العربية في بلاغتها وحسن نظمها أن نقدم شيئاً حقه أن يتأخر لغرض خاص مفيد في ضبط معنى من المعاني.

قال المتقدمون مثلاً إن في قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين» تقديماً للمفعول وحقه أن يتـأخر، وليس ذلـك إلا لغرض من الحصـر والقصر، أي أن العبادة مقصورة عليه ـ جل وعلا ـ وكذلك «الاستعانة». وإن في قوله تعالى: «فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون» تقديماً من هذا يرمي إلى أن تكون مشاكلة ويكون تناسب بين الآي، لتأتي السورة كلها على نمط من الفواصل حسن مليح، فهو شيء يتصل بالأداء الحسن في نظم كلامه ـ جلت قدرته ـ.

غير أننا لا نرمي إلى شيء من هذه الأغراض حين نقول في العربية المعاصرة:

«والمسـألـة بـالـرغم من أنها ليست بــذات قيمـة، فـإنها تؤثـر في . . . .».

ألا ترى أن الوجه أن يقال: «والمسألة تؤثر في. . . . . . بالرغم من أنها. . . . .».

وفي هذه الحال يتوفر لها حسن الترتيب والبناء. ومثل هـذا كثير يدركه العارفون ببناء هذه اللغة وتطورها.

أقول: لعل شيئاً قليلاً وكثيراً من الجديد قد عرض للعربية في غير هذا العصر ولكنه لم يكن استعارة من لغة أخرى، بل كان اجتهاداً من المعربين. ومن هذا جلُّ أقوالهم القديمة التي زعم النقاد اللغويون أن أصحابها، ولا سيما الشعراء، قد خرجوا فيها على عمود الشعر.

خذ مثلاً قولهم في قول أبي تمام:

يا دهرُ قَوِّمْ من أخدَعَيْك فقد أَضْحَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكَ

لقد أخذوا على الشاعر أن ينسب للدهر «أخدعين» و«الأخدع» من مادة «خلق الإنسان» فكيف يكون للدهر!.

ويحسن بي أن أشير أخيراً إلى أن مادة هذا الكتاب تتناول موضوع التطور اللغوي في العربية التاريخية، ولا بد لنا من أن نفرد للعربية في عالمنا المعاصر كتاباً آخر يكون الجزء الثاني لهذا الكتاب نعرض فيه العربية المعاصرة والرؤية إلى المستقبل كما نعرض لأساليب دراسة هذه العربية في ضوء ما جد من النظرية العلمية في علم اللغة الحديث والله أسأل أن يهديني سواء السبيل.

ابراهيم السامرائي

تمهيد

الطبعة الأولى

هذه جملة فصول فى التطور اللغوى فى ظروفه التاريخية . وهو قائم على الإفادة من القديم والجديد ، هادف إلى بيان أوجه هذا التطور والعوامل التى أثرت فيه .

وأنا إذ أبسط للقارىء هذه المواد أدعوه أن يسير معى فيتفهم أن هـذه اللغة فى حدودها الواقعية فى عصرنا هذا غيرها بالأمس، وأنا أدعوه أيضا إلى درسها درسا جديدا مستقريا نصوصها فى مختلف العصور ليستكمل له البحث العلمى التاريخى ، وبذلك يتهيأ لهـذه العربية أسلوب فى الفهم والعلم على نحو ما هو جار فى اللغات المتقدمة فى عصرنا هذا .

والله أسأل أن يسدد فى خطاى جزاء ما قدمت فى خدمة هذه اللغة الشريفة .

الفصل الأول

في الفكر اللغوي

لابد لنا قبل الخوض في موضوع التطور اللغوى أن نعرض لموضوع الحقيقة اللغوية خلال القرون .

لم يفكر الإنسان فى كلامه ، فقد انطلق فى مزاولة هذه الحاجة كما انطلق فى المشى والحركة والبحث عن الطعام .

غير أن هذا الإنسان قد بدأ فى عصور مبكرة يفكر فى الحقيقة اللغوية حين بدأ يفكر فى سائر مظاهر الحياة الإنسانية . وقد أدى به تفكيره هذا إلى أن يقرر الحقائق ويعللها ، ومن هنا نشأ التفكير اللغوى .

وقد ألفت الأمم كافة لغاتها واستعملتها حتى أدى بها الأمر إلى الإعجاب الذى تجاوز الحد المعقول . وقال كل بقدم لغته وافتخر بمجدها الأثيل وأنها باقية على الدهر ، فزعم الصينيون ذلك ، وادعى الأرمن أن لغتهم صاحبة الشرف ، وأن اللغات الأخرى فروع عليها ، ذلك أن الله — جلت قدرته — قد جبل آدم من تربتهم وأنه درج فى أرضهم ، وهم من أجل ذلك ورثة لغته الأولى . وكل هذا دعاوى لا تتفق والبحث العلمى التاريخى .

وزعم العبرانيون أن اللغة العبرانية هى اللغة الأولى ، وأن الله قد علم آدم هذه اللغة الشريفة وهم يبنون دعواهم هذه على ما جاء فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين[1]: «وجبل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية ، وكل طيور السماء

(١) سفر التكوين؛ الإصحاح الثاني، الآية ١٩، ٢٠.

فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها ، وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية » .

وجاء الآراميون فنادوا بشرف لغتهم وأنها كانت لغة السيد المسيح وأمه العذراء . وأنها لغة الأسفار المقدسة ، فقد كتب بها سفرا دانيال وطوبيا وسفر يهوديت وسفر عزرا وسفر استير . وما زال نصارى الشرق ممن يمت إلى أصول آرامية يعتقدون بفضل هذه اللغة ، وآية ذلك عندهم أن السريانية الآرامية أمدت العربية بثروة ضخمة من الألفاظ ، والنظر الدقيق العلمي لا يثبت هذا الادعاء .

وامتاز الإغريق الأقدمون بنظراتهم في اللغة ، وتناولوا هذه القضية بنظر دقيق فيه كثير من الحذق فتأملوا أصل اللغة وتاريخها ونظامها ، ومن غير شك أن الثقافة اللغوية الحديثة تدين للتراث الإغريقي بشيء غير يسير .

وقد حاول أفلاطون أن يبحث في نشأة اللغة وكيف اهتدى الإنسان في عصوره القديمة إلى هذه الأداة النافعة . وقد كان من القائلين بأن اللغة إلهام ومقدرة فطرية يكتسبها منذ الخلق . وقد نهج بادىء ذي بدء نهجا خاصا عرف به فرأى أن لا سبيل إلى فهم الحقيقة اللغوية إلا بالنظر في الألفاظ الأولى في لغات عدة ، ولذا فقد رأى أن النظر في اللغات الأخرى للشعوب المختلفة أمر ضروري للوصول إلى الغاية المطلوبة .

أما أرسطو من فلاسفة الإغريق فقد رأى أن اللغة لا يمكن أن تكون إلهاما وموهبة إنسانية . وهو القائل بأن المجموعة البشرية في مكان ما قد تواضعت وتم الاتفاق بينها على ألفاظ ينظمها نظام خاص .

وقد كان أرسطو أقرب من أفلاطون في الأخذ بالنظر العلمي ، فقد بدأ بدراسة اللغة فقسم الكلمة إلى : اسم وفعل وحرف ، وتناول موضوعات لغوية ونحوية منها موضوع الجنس Genre والبسيط والمركب ومسألة الإعراب .

وقد كان لآراء أفلاطون وأرسطو مكانتهما التأريخية إذ كان لكل منهما أتباع يذهبون مذهبهما واحتدم الجدل بين هؤلاء فكان من ذلك أن ظهرت مدرستان هما :

١ — مدرسة القياسيين أو النظريين Amalogistes وزعيم هذه المدرسة أرستراخوس Aristrachos من سكنة الإسكندرية فى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد .

وهؤلاء كانوا يرون أن اللغة كائن طبيعى وأنها لذلك قياسية ومنطقية فى أصل تكوينها .

٢ — مدرسة الوضعيين أو الشذوذيين Amomalistes وهى المدرسة التى تتخذ من آراء أفلاطون مادتها ، وزعيم هذا الفريق (كراتيس) Krates الذى عاش حوالى سنة ١٢٠ ق . م .

وقد أنكر هؤلاء أشد النكير آراء الفريق الأول وضربوا الأمثال للشذوذ الكثير فى الاشتقاق والصياغة .

ويرى الشذوذيون أن اللغة فطرة إنسانية لا يمكن أن تنظمها قواعد أو قوانين ثابتة وقد ذهب إلى هذا الرأى «كراتيس» زعيم هذا الفريق فى دراساته التى حاول أن يثبت فيها عدم خضوع اللغة إلى القواعد المطردة الثابتة . وهو من غير شك يرد أهل القياس والنظر .

أما هؤلاء القائلون بالقياس والنظر Amalogistes بزعامة أرستراخوس فقد ذهبوا مذهب أرسطو القائل بأن اللغة نظام وضعته الجماعة البشرية فى مكان ما ، وهى بهذا لابد أن تتبع قواعد مطردة .

وقد ظل الجدل قائما بين أتباع كل من أفلاطون وأرسطو مدة قرون حتى انتهى أن تمثل آراء أفلاطون طائفة الرواقيين . كما مثلت آراء أرسطو طائفة

الأبيقوريين . وقد ازدهرت الفلسفة الرواقية فى الإسكندرية . غير أن هذا العلم الإغريقى لم يخلص إلى اللغة وحدها بل خالط الفلسفة حتى أصبحت اللغة وكأنها من أبواب الفلسفة والمنطق .

ولم يكن الإغريق يحسنون إلا لغتهم ، وظنوا أن فى الإغريقية صورا صوتية تعلو على التفكير الإنسانى العام ، وأسرف بعضهم فى وصفها والثناء عليها . وقد انبعثت عن هذه النظرة الفلسفية قواعد نحوية وفلسفية عامة لكنها لا تتعدى فى جذورها لغة بعينها هى اللغة الإغريقية ، وهكذا فطنوا إلى أقسام الكلمة وإلى بناء التركيب القياسى وردوه إلى موضوع ومحمول (مسند ومسند إليه) وعرضوا لأنواع الإعراب واختلاف الحال من تكلم وخطاب وغيبة واختلاف الأزمنة فى الأفعال ، واختلاف الدلالة من تأكيد وأمر ونهى وتمن وغير هذا . على أن هذه المادة النحوية لم تخل من لون فلسفى يدفع أصحابها فى هذا السبيل .

وقد تأثر العرب بهذا العلم الإغريقى وقرأوه مترجما على يد الآراميين السريان . ومن العجيب أنهم لم يتأثروا بالتفكير الهندوكى اللغوى بالرغم من اتصالهم بهم . وقد تهيأ للاغريق بضع لهجات متنوعة سنحت لهم دراستها دراسة مقارنة ، واقتضتهم هذه الدراسات لتلك الأعلاق النفيسة من تراث الماضى أن يتناولوا الكثير من التفاصيل اللغوية والنحوية والصرفية .

وامتاز بعض المتأخرين من هؤلاء الباحثين أمثال هوروديان Horodian بجمع معلومات ذات أهمية تتصل بالإعراب وبالنبر Accent فى اللغة الإغريقية القديمة .

ولم تزد الأجيال المتعاقبة فى الغرب على الأصول والقواعد النحوية التى جاء بها الإغريق القدماء .

وقد ظل تأثير الإغريق قائما فى عصور المسيحية الأولى ، فقد اقتفى الرومان خطوات الإغريق فى إقامة قواعد اللاتينية ، وظهرت أولى الدراسات فى هذا الموضوع فى القرن الرابع بعد المسيح ، ثم فى القرن السادس . ثم تطورت اللاتينية

القديمة فى القرون الوسطى إلى الفرنسية والإيطالية والإسبانية وغيرها ، ولكن اللاتينية القديمة استأثرت بلغة الكتابة والتدوين . وقد أعجب بهذه اللاتينية الأولى العلماء والباحثون فتوهموها النموذج الطبيعى والمنطق للغة الإنسانية . وقد ذهب بعض الفلاسفة من نحاتها إلى جملة من خصائصها ، ولكن هؤلاء لم يأتوا بشىء ذى بال ، ثم تطورت هذه النظرة إلى اللاتينية فى العصور المتأخرة فأفضت إلى تحرير نحو عالمى عام ذهابا منهم إلى أن تكون اللاتينية بجملته وتفصيله ينبنى على قوانين ثابتة لابد أن يلتزم بها المنطق الإنسانى فى كل مكان .

ولقد كان من تأثير الإغريق فى الأوربيين أن انقسم الباحثون من هؤلاء إلى طائفتين : الكنسيين والمدرسيين .

وقد ذهب الكنسيون مذهب أفلاطون واعتقدوا أن اللغة هبة من الله — جلت قدرته — للانسان ، وأن لغة الإنسان القديم كانت واحدة ينتظم فيها أمم شتى حتى سقوط برج بابل ، وتفرق أبناء نوح عن بعضهم فى البلاد وكان عدد هؤلاء اثنين وسبعين ، فكان بسبب ذلك أن انقسمت اللغات إلى اثنتين وسبعين لغة .

وقد ذهب المدرسيون مذهب أرسطو فقالوا إن اللغة ما تواضع عليه المجتمع الإنسانى فى مكان ما .

ثم اتسع أفق أهل العلم فى عهد النهضة وما لبثت اليونانية أن عادت إلى حلقات المدرسين ثم أضيف إليها العبرانية والعربية . ثم كانت سياحات ورحلات مكنت السائحين من نقل كثير من عناصر اللغات التى سمعوها ، فجمعوا ألفاظا من تلك اللغات التى عرفوها فى تنقلهم . وقد فعل هذا أحد البحارة الذين اشتركوا فى رحلة ماجلان الشهير ويدعى بيكافيتا Pigafitta .

وربما فطن بعضهم إلى المشابهة بين اللغات كما حصل لـ (ساسيتى Saseetti) الذى أدرك ناحية الشبه بين اللغة السنسكريتية واللغة الإيطالية ولعلهم من هنا توصلوا أن لابد إلى تقسيم اللغات إلى مجموعات ،

وهذا الاتجاه فى الفهم اللغوى كان ملحوظا ، فقد بحثوا فى التقارب والتشابه من ناحية الألفاظ واشتقاقها بين اللغات السامية بصورة عامة والإغريقية واللاتينية والفرنسية . على أن هذا النحو من التفكير كان مدعاة أن يدخل فيه الحدس والتصور والافتعال ، ومن ثم ابتعاد عن العلم الصحيح .

ثم اتسع نطاق التجارة وتيسرت وسائل النقل فأفضى ذلك إلى تدوين نحو ومعاجم للغات التى اشتدت إليها الحاجة .

ثم اتجه الباحثون إلى درس لغاتهم الخاصة ، فكان من ذلك أن قام جماعة من اللغويين الفرنسيين فى تأليف كتاب « نحو بورت رويال Grammaire de Port Royal » وقد أراد هؤلاء فى عملهم أن يكون دراسة واضحة المعالم للنحو العام.

وكان القرن الثامن عشر حافلا بالدراسات اللغوية ولكن الاتجاه العلمى فيه ظل كما كان عليه فى الحقبة السابقة .

ففى سنة ١٧١٠ نشر (ليبنز) فى مجلة أكاديمية برلين فقرر أن اللغات لم تؤخذ من اللغة العبرانية ، وأن لابد من تقسيم هذه المجموعة اللغوية الكبيرة إلى مجموعات لكل مجموعة منها صفاتها الخاصة التى تتميز بها . وقد أشار إلى مجموعتين كبيرتين هما :

(١) ما يعرف لدى الباحثين بالمجموعة الهندية الأوربية Indo-Européan

(٢) المجموعة الأورالية الألتية Ural-Altique ، ويدخل فى هذه المجموعة طائفة اللغات الفنلندية والأستونية ولغة اللاب واللغات التركية والمغولية .

وعلى هذا فإن هذا الباحث كان من أوائل القائلين بتقسيم اللغات إلى مجموعات .

ومن مظاهر نشاطه العلمى الصحيح إدراكه قيمة الأطلس اللغوى كما أشار إلى ضرورة مقارنة المراحل المتأخرة للغة بالمراحل المتقدمة واهتدى إلى مسائل لغوية كان

فيها السابق لكثير من اللغويين . وقد كتب آراءه هذه فى كتابه الذى نشره فى باريس سنة ١٨٨٦ تحت عنوان :

«Nouveaux essais sur l'intendement Humain»

ثم جاء المسلمون فبحثوا فى العربية وأعجبوا بها ، وسحرتهم لغة التنزيل فكان ما كان من دراسات فى مسألة الإعجاز ، وجرتهم هذه الدراسات إلى القول بالتوقيف ، وإلى هذا ذهب أحمد بن فارس من أئمة اللغة فى القرن الرابع معتمداً على قوله تعالى :

﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (١) ، وهو يشير إلى قول ابن عباس : « إن الله علمه الأسماء كلها وهى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها »(٢) .

ولم يقتصر ابن فارس على القول بالتوقيف فى اللغة ، فهو يرى أيضا أن الخط العربى توقيف لظاهر قوله عز وجل : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ (٣) . وقال جل ثناؤه : ﴿ والقلم ومايسطرون ﴾ (٤) . وإن أول من وضع الكتاب العربى إسماعيل (ع) ، وضعه على لفظه ومنطقه (٥) .

ويأتى أبو الفتح عثمان بن جنى من علماء القرن الرابع الهجرى فيعرض للمسألة نفسها فى « باب القول على أصل اللغة إلهام هى أم اصطلاح » وابن جنى يعرض للمسألة فيذكر عدة آراء فى الموضوع ، وهو يقول فى أول هذا الباب : إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحى ولا توقيف .

---

(١) البقرة ٣١.
(٢) ابن فارس، الصاحبي ٥.
(٣) العلق ١، ٢، ٣، ٤، ٥.
(٤) القلم ١.
(٥) ابن فارس، الصاحبي ٧.

إلا أن أبا علي — رحمه الله — قال لي يوما : هي من عند الله ، واحتج بقوله سبحانه : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ (١) .

وابن جني يعرض رأي القائلين بالتوقيف ويشرحه ، وكيف أن الله علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات ، ثم يعود للقائلين بأن أصل اللغة لابد فيه من المواضعة . ثم ينقل ابن جني رأي من يقول : إن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيج الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك ، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهو يقول : وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل . وابن جني لا يقطع في ذهابه إلى رأي من هذه الآراء ، وهو في عرضه لهذه الآراء متردد في الأخذ بأحد منها وهو يقول : « واعلم أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع فأجد الدواعي والخوالج قوية التجاذب لي ، مختلفة جهات على فكري . وذلك أني كلما تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقة ، والإرهاف والرقة ، ما يملك علي جانب الفكر ، حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر فمن ذلك ما نبه عليه أصحابنا — رحمهم الله — ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت تتابعه وانقياده ، وبعد مراميه وآماده ، صحة ما وفقوا لتقديمه منه . ولطف ما أسعدوا به ، وفرق لهم عنه . وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله — عز وجل — فقوى في نفسي اعتقاد كونها توقيفا من الله — سبحانه وأنها وحي .

ثم أقول في ضد هذا ، كما وقع لأصحابنا ولنا ، وتنبهوا وتنبهنا ، على تأمل الحكمة الرائعة الباهرة ، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا — وإن بعد مداه عنا — من كان ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجرأ جنانا ، فأقف بين الخلتين حسيرا ، وأكاثرها فأنكفئ مكثوراً وإن خطر لي فيما بعد ،

---

(١) ابن جني ، الخصائص ١ / ٤ .

ما يعلق الكف بإحدى الجهتين وبكفها عن صاحبتها قلنا به »[١] .

وقد أشرت إلى أنهم أحبوا العربية وتعلقوا بها ، ومن أجل ذلك توهموا أن آدم كان يعرف العربية ونسبوا إليه قول الشعر ، كما نسبوا للجن أشعاراً عربية أخرى . وهم يرون : « أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها ، إنما استهواه واستخف حلمه وضعفه فى هذه اللغة الكريمة الشريفة التى خوطب الكافة بها ، وعرضت عليها الجنة والنار فى حواشيها وأحنائها »[٢] . وأنت تحس حين تقرأ فى الأخبار أن لسان أهل الجنة عربى مبين ، وأنت تقرأ قوله تعالى : ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ﴾[٣] ، فتعلم قيمة العربية وشرفها عندهم . وقد أخرج ابن عساكر فى تاريخه عن ابن عباس ، أن آدم عليه السلام كان لغته فى الجنة العربية ، فلما عصى سلبه الله العربية وتكلم بالسريانية فلما تاب رد الله عليه العربية[٤] .

ومن أجل ذلك فالعربية عندهم أفضل اللغات وأوسعها ، ذلك أنها لغة التنزيل ، قال الله عز وجل : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ﴾[٥] . ولهذا فقد كان اللحن فى العربية بمنزلة الضلال كما جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — قال لرجل لحن : أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل ، وقال أيضا : رحم الله امرءاً أصلح من لسانه[٦] .

وقد أحب هؤلاء العربية فدرسوها واهتدوا لمسائل دقيقة فيها . قال الفراء : « وجدنا للغة العرب فضلا على لغات جميع الأمم اختصاصا من الله تعالى وكرامة

---

(١) ابن جنى، الخصائص ١ / ٤٧ .
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٤٥
(٣) سورة النحل ١٠٣ .
(٤) السيوطي، المزهر ١/ ٣٠ .
(٥) ابن فارس، الصاحبي ١٢ .
(٦) ابن جنى، الخصائص ٣/ ٢٤٥ .

أكرمهم بها ، ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز مالا يوجد فى غيرها من اللغات »[١] .

ومن إعجابهم بالعربية أنها عندهم فاقت سائر اللغات فى رشاقة ألفاظها وحتى بنائها بحيث لايوجد فيها من الثقل والاعوجاج مايوجد فى غيرها من اللغات التى تمت إلى العربية بقرابة النسب وهى اللغات السامية . ولعل من الطريف أن نورد خبراً ذكره ابن الأثير فى المثل السائر :

« وحضر عندى فى بعض الأيام رجل من اليهود ، وكنت فى الديار المصرية ، وكان لليهود فى هذا الرجل اعتقاد لمكان علمه فى دينهم وغيره ، وكان كذلك ، فجرى ذكر اللغات ، وأن العربية هى سيدة اللغات ، وأنها أشرفهن مكانا ، وأحسنهن وضعاً ؛ فقال ذلك الرجل : كيف لا تكون كذلك وقد جاءت آخراً فنفت القبيح من اللغات قبلها وأخذت الحسن . ثم إن واضعها تصرف فى جميع اللغات السالفة فاختصر ما اختصر ، وخفف ما خفف ، فمن ذلك اسم الجمل ، فإنه عندنا فى اللسان العبرانى (كوميل) ممالا على وزن (فوعيل) فجاء واضع العربية وحذف منها الثقيل المستبشع ، وقال : « جمل » فصار خفيفا حسنا ، وكذلك فعل فى كذا وكذا وذكر أشياء كثيرة »[٢] .

على أن هذا الإعجاب لا ينصب إلا على الفصيح منها فلم يأبهوا باللسان الدارج السائر الذى يبتعد عن الفصيح ، وتمسكهم بالفصيح أدى إلى نظرة ضيقة شاعت فى نقدهم للنصوص ، فقد حشروا الفصيح من لسان العرب فى لغة الجاهليين والصدر الأول للاسلام ، وهذه النظرة الضيقة لم تفد العربية ، فضاع شىء من العربية ولم يصل إلينا ، لأنهم لم يهتموا به لبعده عما توهموه فى حدود الفصيح .

وقد دهش الأوربيون فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ١/ ١٤٩

(٢) ابن الأثير المثل السائر (بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد) ١/ ١٩١.

للدقة المستوعبة التى اقترنت بها دراسات الهنود للغتهم ، وهذا الخط المحكم المبنى على المراقبة والملاحظة وذلك أن هؤلاء الأوربيين اتجهوا لدراسة السنسكريتية وأخذوا يلمحون الشبه بين هذه اللغة وجملة لغات أخرى منها الإغريقية واللاتينية.

وكان من بين هؤلاء الباحثين فون شليكل Von Shlegel الذى ذهب إلى اعتماد أسلوب المقارنة والموازنة بين مجموعة من اللغات وذلك لمعرفة هذه اللغات معرفة صحيحة مبنية على العلم اللغوى التاريخى.

وفى سنة ١٨١٨م نشر العالم الدانمركى كتابه فى « أصل اللغة الآيسلندية القديمة ». وفى هذا الكتاب عرض المؤلف لمجموعة اللغات الهندية الأوربية وحصرها ودرسها باتباع أسلوب المقارنة الذى اعتمده الباحثون اللغويون فى هذه الفترة . ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن العلماء بدءوا فى هذا الوقت بدراسة القوانين الصوتية .

ومن هذه الأمثلة على هـذا الأسلوب فى الدرس والاهتمام بالقوانين الصوتية كتاب (قواعد اللغة الألمانية) الذى ألفه العالم الألمانى (كريم) Grimm ونشره للمرة الثانية فى سنة ١٨٤٨م.

وقد نشر هـذا العالم الجليل كتابه الآخر وهو « تاريخ اللغة الألمانية » الذى قرر فيـه أن تطور الحركات فى الألمانية نتيجة لتطور الدلالة ، وقد سمى القواعد التى سار عليها التطور فى الأصوات باسم القوانين الصوتية وعرفت فيما بعد باسم قوانين (كريم).

على أن العلم اللغوى يحصل على ثمرة من هذه الجهود التى تمت فى خلال القرن التاسع عشر ، وهذه الثمرة تشتمل على ما يأتى :

(١) دراسة الأصوات وتطورها وذلك بما تم فى دراسة « كريم » وقوانينه الصوتية ، وظهور علم الأصوات التشريحى على يد (مولر) Mûler ، وقد تهيأ لهؤلاء العلماء أن ينتهوا إلى طريقة فى الأصوات تغير الحروف اللاتينية .

(٢) وكان من هذه الجهود اللغوية الدراسة اللغوية المقارنة ، وذلك بعد أن تم الكشف عن المجموعات اللغوية التى أسموها العائلات اللغوية .

(٣) ظهور علم اللغة العام . وقد كتب فيه ماكس مولر Max Mûler محاضرات فى علم اللغة وقد نشر سنة ١٨٦١ . وقد كتب Whitney الأمريكى كتابين فى الموضوع نفسه وهما (اللغة ودراستها) و « حياة اللغة وتطورها ». وقد جنح هذا الأخير باتباع مذهب دارون فى التطور فكأن اللغة عنده من الكائنات الطبيعية التى يعرض لها التطور ، فبدأ بدراسة لغة الحيوانات على أنها تؤلف مرحلة مبكرة من مراحل تطور اللغة الإنسانية .

ثم يطلع القرن العشرون وفيه دخل العلم اللغوى مرحلة جديدة . وفى هذه الفترة ظهر عالم لغوى سويسرى تخرج بـ « دوركايم » من أشهر علماء الاجتماع فى مطلع هذا القرن ويدعى هذا فرديناند دى سوسير F. de Saussur .

وكان قد تأثر بأستاذه فى نهجه ولذلك كانت هذه المدرسة السويسرية تنتحى منحى اجتماعيا ، فاللغة من مظاهر النشاط الاجتماعى وهى لا تخلو من التأثر بالمنطق. وقد وجدت هذه المدرسة أتباعها فى الباحثين الفرنسيين أمثال Meiller و Charl Bailly .

ويبدو أن اللغة فى هذه الفترة كانت موضوعا يدخل ضمن الدراسات الاجتماعية فالعالم الاجتماعى وعالم الأجناس Anthropologie يهتمان بدراسة المشكلة اللغوية على أنها مظهر من مظاهر السلوك الإنسانى .

كما دخلت اللغة موضوعا من موضوعات الدراسات السيكولوجية ، فالعالم النفسى لا بد أن يعنى بهذه المادة على أنها جزء من كيان النفس الإنسانية .

ولذلك اعتبر (علم الدلالة) أو المعنى Sémantique من الموضوعات النفسية إلى عهد غير بعيد ، ثم بدا للغويين أنه مادة لغوية فانقطعوا إليه على أنه باب من أبواب علم اللغة الحديث .

وهذا المظهر النفسى فى دراسة اللغة تبين فى مباحث هرمان باول Herman Paul ووندت Wundt .

ولقد انتهى علم اللغة إلى هذا العصر فتخلص مما علق به من شوائب القرون وخلص إلى العلم الصحيح المبنى على الملاحظة والتجربة .

وكان من نتائج ذلك أن قام علم الأصوات على أنه من علوم اللغة ، ولكن هذا العلم لم يبق محصوراً فى قالبه القديم بل استعان بما ابتكره العلم من وسائل وأجهزة فى ضبط الصوت وبيانه كما استعان بعلم التشريح .

ومن النتائج التى انتهيت إليها من اتباع الأساليب العلمية فى هذا الحقل التجريبى الاهتمام بالجغرافية اللغوية والمسح العام للغات ، وكان من ذلك الأطلس اللغوى الفرنسى وهو نموذج علمى دقيق فى هذا الباب ، فهو يشتمل على أكثر من ألفى خارطة لغوية تمثل النشاط اللغوى للباحثين الفرنسيين ، وقد أشرف على هذا كل من ا أدمونت E. Edmont وج جلبرون J. Gilperon .

وعلى الرغم من التقدم الذى حصل عليه علم اللغة فى عصرنا هذا ، فما زال العلماء يدلون بآرائهم عن « نشأة اللغة » . ولم نخلص من مجموع هذه الآراء إلى رأى عملى يبتعد عن التصور والوهم .

وفى هذه المقدمة التاريخية نريد أن نخلص إلى رسم شىء من تاريخ العربية ضمن بحثنا فى علم « اللغة التاريخى » . وللوصول إلى هذا الغرض ينبغى أن نعرض لموضوعين مهمين هما :

(١) التطور اللغوى

(٢) علم الدلالة أو المعنى Sémantique

الفصل الثاني

في التطور اللغوي

أريد فى هذا الفصل أن أعرض لعامل التطور فى اللغة ، وأبين كيف أن اللغة وهى مادة حية ، وظاهرة اجتماعية ، تخضع كما يخضع غيرها من الوان النشاط الإنسانى إلى عوامل الزمان فتتأثر سلباً وإيجابا.

وسأعنى قبل كل شيء بما يسمى (بالتطور الخارجى) Evolution externe وهذا النوع من التطور بطيء غير أنه لا يعرف التوقف ، وهو يتناول اللون الخارجي للغة من حيث الأسلوب ، ومن حيث الدلالة المعنوية .

ولعل الأجيال المتعاقبة كانت تحدث هذا التطور وتحصل فى لغاتها ، ولكنها لا تفطن إلى هذا التبدل والتغير ، وإن الناس لا يشعرون وهم يتكلمون لغة معينة أنها تختلف عن اللغة نفسها فى جيل عفى عليه الزمان .

ويعرض هذا التطور للغات جميعها أيا كان مستواها اللغوى ، وأيا كان المستوى الحضارى الذى يسود مجموعة بشرية بعينها . وقد يكون هذ التطور طبيعياً إيجابيا إذا كان نتيجة تأثر بحضارة أمة من الأمم . وللنظم والعقائد والتقاليد والعادات أثر فى ذلك كما أن للمستوى الثقافى والبيئة أثرا لا يقل عن ذلك أبدا .

وتسرى سنة التطور فى اللغة عبر القرون والأجيال حتى تحيل اللغة إلى لهجات محلية أو لغات محلية تتميز الواحدة عن الأخرى بمميزات ظاهرة واضحة ، وهذه المميزات تظهر فى الجزئيات كما تظهر فى الكليات . وقد تؤدى عوامل معينة إلى موت اللغة وصيرورتها إلى لغات كما أشرنا ، وأحسن ما يقدم فى هذا الباب هو اللغة اللاتينية التى آل بها الزمن من الناحية التاريخية الى أشكال أخرى أحدث منها برزت فى اللغة البرتغالية ، واللغة القشتالية ، ولغة قطلونيا ، ولغة بروفانس ، واللغة الفرنسية ، واللغة الإيطالية ، واللغة الأسبانية ، ولغة

جمهورية رومانيا الشعبية . وقد بلغ التطور بكل من هذه اللغات حداً بعيدا بحيث تبدو أشكالا مختلفة أو قل بعيدة بعضها عن بعض .

وربما حصل شيء آخر في هذا الباب فقد تزول اللغة وينعدم استعمالها والتداول بها تأثراً بعوامل خارجية سنعرض لها في هـذا الفصل . وفي تاريخ اللغات القديمة التي نشأت في العراق ما يؤيد هذا ، فقد انتشرت اللغـة السومرية وصارت لغة الحضارة ولـكن السومرية أخذت تزول شيئا فشيئا وحلت محلها اللغة الأكدية القديمة . وقد حصل هذا في اللغة الغالية التي أخذت تزول شيئا فشيئا إلى أن حلت محلها اللاتينية ، ومنها اللغة الكلتية التي كان يتكلمها أهل الجزر البريطانية إلى أن حلت محلها اللغة الإنكليزية ، ومثـل ذلك ما حصل للغة المصرية القديمة ثم القبطية اللتين زالتا وحلت محلهما اللغة العربية ، كما حصل للبربرية في الشمال الإفريقي التي فسحت المجال للعربية لغة المسلمين الفاتحين فـكان أن قبعت هي في مواطن محدودة جبلية هنا وهناك .

وقد تفرع عن اللغة الهندية الأوربية عدد كبير من اللغات نتيجة عوامل تطورية مهمة(١). وقد تمر فترة تاريخية فتهدد لغة من اللغات بالزوال فيحصل شيء من ذلك ، حتى إذا انتهت تلك الفترة استعادت تلك اللغة شيئا فشيئا مادتها وحيويتها ، كما حدث للغة العبرانية في القرن الرابع قبل الميلاد والقرون التي تلته ، وساعد على ذلك انتشار عادة الزواج من غـير اليهوديات اللواتي يجهلن اللسان العبري ، وفي ذلك يقول نحميا : .

« في تلك الأيام رأت اليهود الذين ساكنوا نساء من « أشـدود » أو من « عمون » أو من « مؤاب » ونصف كلام نبيهم باللسان الأشدودي ، ولم يكونوا يحسنون التكلم باللسان اليهودي بل بلسان شعب وشعب ، فخاصمتهم ولعنتهم وضربت منهم أناسا ونتفت شـعورهم واستحلفتهم بالله قائلا : لا تعطوا بناتـكم لبنيهم ،

---

(١) A Meillet, Linguistique Historique et Linguistique Générale pp. 53 - 69.

ولا تأخذوا من بناتهم لبنيكم ولا لأنفسكم . . .(١)

وكان من أثر هذا أن أخذت العبرية تصعب على أهلها فى فلسطين وبذلك أفسحت المجال للآرامية تأخذ طريقها حتى جاء عهد كان فيه اليهود يجدون كل السهولة فى استعمال الآرامية فى شئونهم العامة . ومن أجل ذلك اضطر رجال الدين فى الطقوس والعبادات أن يترجموا النصوص العبرية إلى الآرامية التى يفهمها اليهود وكان الأطفال يتعلمون العهد القديم فى الترجمة الآرامية . وقد ظلت هذه الترجمة شفوية خلال زمن طويل ، تلقى عقب النص العبرانى ثم دونت وسميت التركوم (Tarkum) ولم تدون هذه الترجمة إلا فى القرن الأول الميلادى مع شيء من التغيير والتحوير(٢) .

وهكذا يكون سير التطور سلبيا كما يكون إيجابيا ، فربما لا تتطور اللغة نحو مستوى متقدم رفيع ، بل تنزل إلى درك من التغير والتبدل تبعا للمستوى الحضارى والثقافى الذى عليه الأمة . ومن أجل هذا نستطيع أن نقرر أن ما يسمى فى كتب اللغة والنحو « لغة » من الاستعمالات غير المألوفة ، أو قل غير الصحيحة ، تلك الاستعمالات التى نسبت إلى هذيل أو عقيل أو أسد أو طيء أو غير هؤلاء ، لم يكن إلا من قبيل هذا التطور فى اللغة . ثم نسب اعتباطاً لفئة معينة من الناس . وما من اللغات العامية الحديثة أو ما نسميه باللهجات العربية الحديثة إلا نتيجة لهذا التطور فى العربية الفصيحة(٣) .

---

(١) سفر نحميا ١٣ / ٢٣ ـ ٢٥ .

(٢) كانت هناك عدة تراجم (تركوميم)، وهذه المادة السامية هي التي أعطت العربية مادة (ترجم). والتركوم آرمية خاصة عرفت بآرمية التركوم.

(٣) أقول العربية الفصيحة تجوز لأن هذه الفصيحة الموروثة قد ضمت ألواناً في اللهجات المحلية منذ الجاهلية الأولى حتى العهود الإسلامية، وللقرآن أثره في ذلك، ولم يكن هذا في مواد اللغة، بل تعدى ذلك إلى الأصوات والقواعد والنحوية ودلالات الألفاظ Sémantique.

والسبب فى ذلك يرجع إلى عوامل كثيرة جدا منها :

(١) انتشار العربية فى بقاع واسعة ذات لغات سامية ، فنى اليمن حيث كانت فيها لغات جنوبيــة سامية ، وفى بقاع الهلال الخصيب حيث كانت الآرامية عامرة فيها ، وفى الشمال الإفريقى حيث تم لها الاستقرار فى مهد البربرية وحيث طردت اللهجات البربرية جميعها . وطبيعى أن ينال هذه اللغات القوية الغازية شىء من التغير والتحريف على ألسنة هؤلاء المحدثين الجدد الذين لم تتعود ألسنتهم على أصواتها ، وعلى طرائق النطق والتعبير فيها . وقد تعدى هذا الانحراف هؤلاء الجدد والمحدثين إلى العرب أنفسهم ، فالغزاة من هؤلاء العرب بعد أن استقروا فى هــذه الربوع تأثروا بلغاتها و بطرائق النطق فيها فإذا عربيتهم يشوبها الانحراف، وإذا الانحراف يتسع شيئا ما حتى يستحيل مع الزمن إلى لون لغوى خاص متميز فى نطاق العربية الواسع ، ولم تــكن العربية بدعا فى هذا الباب فلنا أمثلة كثيرة فى اللغات التى قيض لها أن تفارق مهدها الأول وتضرب فى مواطن بعيدة فالفينيقية التى استقرت فى الشواطئ الإفريقية قد تغيرت عن أصلها وعما كانت عليه فى مهدها الأول .

(٢) وللعامل السياسى أثره أيضاً ، وذلك بعد أن استقلت البــلاد العربية وانفصلت عن وحدتها السياسية . والانفصال السياسى يقتضى انفصالا اجتماعياً ثقافيا . ويتبين صدق هذا فى عصرنا الحديث فى شىء من اللغات الأوربية الحديثة فاللغة الفرنسية مثلاً فى فرنسا مهدها الأصلى غيرها فى كندا ، وغيرها فى سويسرا أو بلجيكا على الرغم من قرب المســافة مثلاً بين فرنسا وسويسرا وبينها وبين بلجيكا .

وقد تمــكن الفرنسيون من إحلال لغتهم المحل الأول المرموق فى كثير من البلاد الإفريقية بسبب خضوع هذه البلدان للاستعمار الفرنسى ، وكان من ذلك أن صارت الفرنسية لغة التفاهم ، ولغة الشئون العامة ، ولغة الإدارة ، ولغــة الحضارة بوجه عام فى هذه البلدان ، وكان على الإفريقى الآخذ بسبب من هذه الحضارة أن يلوك هذه اللغة فتعلمها وربما طبع عليها ، ولعله صار يتعصب لها ، فليس له محيص

عنها، والدراسات اللغوية التي قام بها العلماء اللغويون الفرنسيون عن الفرنسية في هذه الأقاليم تشير إلى ألوان التطور السريع الذي طرأ على الفرنسية على ألسنة هؤلاء الأفارقة. ومثل هذا حصل للانكليزية التي شرقت وغربت في مختلف أنحاء العالم، وقيض لها أن تكون لغة مئات الملايين مشرقاً ومغرباً.

(٣) وللعامل النفسي الاجتماعي أثره، فللبلاد المختلفة التي غزتها العربية نظم خاصة، وعادات متميزة، وتقاليد ومستويات مختلفة من الثقافة، وطرائق خاصة في التفكير، وجميع هذا لا بد أن يظهر في وسائل التعبير، فيطبعها بطابع متميز واضح وربما نتبين هذا في البلد الواحد دون أن نكلف أنفسنا عناء الخروج والابتعاد، فأنت ترى أن المواطنة القروية الريفية في بلد ما لها تفكيرها اللغوي، ولها عادات درجت عليها في سلوكها اللغوي تتسم بعلامات يظهر فيها شكل المجتمع الصغير الذي نعيش فيه، فهو يختلف عن مجتمع آخر ربما كان غير بعيد عن هذين اللونين الحضاريين، ذلك هو المجتمع الذي يغرس أصوله في بيئة بدوية لها تقاليدها وعاداتها وأماراتها وشخوصها. فأنت لا تتوقع أن تجد لغة الفلاحة وما يتصل بها من طبيعة تقوم على الخضرة والماء في مجتمع هو ألصق بالبداوة، كما أنك لا تجد عند هذا القروي الريفي شيئاً كثيراً مما يتصل بالحياة البدوية.

(٤) وللعامل الجغرافي حظه في هذا الموضوع كما يؤيد ذلك علماء الاجتماع. فلطبيعة البلاد وللبيئة الجغرافية في سهولها وجبالها ولون مناخها أثر في الثقافة، وهذا الأثر لا بد أن يترك نتائجه في المسألة اللغوية.

ولعلك قد فهمت أن التطور يؤول باللغة إلى انقسامات تؤدي في آخر الأمر إلى لهجات عدة أو قل لغات. وأنا أريد أن أقول لك: إن في اللغة طريقين مختلفين أو قل: متضادين، ذلك أن هناك ميلاً نحو الانقسام إلى لغات ولهجات، كما أن هناك ميلاً نحو التوحد اللغوي.

والانقسام والتوحد يرجعان إلى عوامل من شأنها أن تؤثر في الجماعات هذا الأثر أو ذاك. ويرى بعض اللغويين أن الاتجاه نحو الانقسام أقوى من الميل إلى التوحد، وأن الانقسام هو عملية التطور الطبيعية للغة وأن طبيعة اللغات تجنح أبداً إلى الإنقسام والتوزع، وربما قال بعضهم: إن الانقسام هو الذي أدى بالمجتمع البشري العام أن يتوزع توزيعاً لغوياً واسعاً، ومن هؤلاء العالم H. C. Wyld الذي قال بالتوزع المطلق الذي لا يحده حد، ونظرية هؤلاء أن ظهور لغة ما يحمل معه عوامل الانقسام إلى لغات عدة.

غير أن العالم اللغوي «يسبرسن» يميل إلى القول بالتوحد، ويرى أن عوامل التوحد خلال العصور كانت أقوى في الحقيقة من عوامل الانقسام، وأنها كذلك في المستقبل . ويستدل هذا العالم على نظريته بعدد اللغات في الوقت الحاضر، فهو وإن كان أكثر منه في الأزمنة الماضية، إلا أن عدد المتكلمين في عصرنا الحاضر بلغة من اللغات المتفرعة عن لغة عامة أصيلة قديمة، يبلغ الآن أضعاف مجموع الذين يتكلمون بتلك اللغة العامة العتيقة. وهو يضرب أمثلة على ذلك منها أن المتكلمين باللغة الجرمانية الغربية في العصور الماضية لا يساوون شيئاً بالنسبة إلى المائة والخمسين مليوناً الذين يتكلمون الإنكليزية والخمسة والسبعين مليوناً الذين يتكلمون الآن الالمانية، وعشرة الملايين الذين يتكلمون الآن الهولندية. ولكن «يسبرسون» لا ينكر الاتجاه نحو الانقسام.

ولقد نوهنا بعوامل الانقسام اللغوي، ولا بد أن نشير إلى العوامل التي تدعو للتوحد اللغوي وهي:

(١) إن التوحد يرجع إلى عامل الاختلاط والاتصال والمشاركة في الحياة العامة ولعل صدق هذا يتبين في استقراء تاريخ العربية وكيف أدت بها المواسم الدينية والاجتماعية إلى شيء من الانسجام اللغوي، ولا بد من الإشارة إلى ما كان من غلبة لغة قريش على سائر اللغات وصيرورة هذا

المزيج اللغوي إلى لون أقرب إلى التوحيد والانسجام منه إلى الاختلاف والابتعاد. ذلك أن لقريش المكانة الاجتماعية والدينية والتزامها بالتجارة التي كانت سبباً من أسباب الاتصال والاجتماع. وقد تدعو حرب تنشب بين مجموعتين بشريتين إلى نوع من الانسجام اللغوي، كما أن للدين ولنواميسه في العبادات وما يقتضى ذلك من اجتماع واتصال في الأعياد والمناسبات أثره في التوحد اللغوي.

(٢) ومن عوامل التوحد اللغوي تلك النصوص الأدبية والشعبية التي تشتمل على ما يتناقله الرواة والقصاص من حكايات وأساطير وما يردده المغنون، وأكثر هذا النوع من الأدب يقوم على الرواية الشفوية. والقصاص والرواة والمغنون كانوا يتنقلون بأدبهم من قبيلة إلى أخرى، ولا بد لهم أن يستعملوا طريقة في الإعراب عما يريدون أن يذيعوا، وهكذا يؤول الأمر إلى شيء يشبه اللغة المشتركة. ومن أمثلة ذلك ما حدث في الأدب اليوناني القديم، فقد نشأت فنون الأدب اليوناني في المستعمرات اليونانية فيما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد ـ ما خلا المأساة ـ وقد كان بين هذه الأقاليم اتصال وتبادل، ومن أجل ذلك كانت لغة هذه الفنون الأدبية تختلف عن لغة أي بلد من هذه البلاد، فهي لم تكن موجهة إلى أي منها على انفراد إلى مجموع ذلك كله.

(٣) ومن العوامل التي تدعو للتوحيد اللغوي هو العامل السياسي، فالتوحيد السياسي بين إقليمين أو قل بين مجموعتين بشريتين لا بد أن يؤول إلى نوع من التوحيد والانسجام لا سيما إذا كان هناك تفاوت في المستوى اللغوي والحضاري بين هاتين المجموعتين. وفي التاريخ أمثلة عدة على هذا النوع من التوحيد والانسجام.

(٤) وللعامل الثقافي حظه في هذا الموضوع كما يؤيد ذلك علماء الاجتماع. فالمعاهد العلمية والجامعات والسينما والإذاعة والتلفزة والاجتماعات العامة تعمل عملها في هذه المشكلة اللغوية فتميل اللهجات إلى نوع من التوحيد كما يحصل الآن للعربية الحديثة الفصيحة أو التي تقرب

من الفصيحة، ذلك أنها تجنح شيئاً فشيئاً إلى نوع من اللغة المشتركة. وظهور المدن الكبرى بنشاطها المتنوع في مختلف الميادين كان عاملاً في التوحيد اللغوي.

ولابد من العودة إلى اختلاف اللغات وأريد باللغات ما نصطلح عليه اليوم بـ «اللهجات»، وعندى أن اللهجة علم لغوى أو سلوك لغوى، لا يختلف عن اللغة العامة. فاللهجة على هذا طائفة من المميزات اللغوية ذات نظام صوتى خاص تخص بيئة معينة، يشترك فى هذه المميزات جميع أفراد تلك البيئة. وهذه البيئة قسم من بيئة أعم وأشمل تنتظم لهجات عدة . وهى متميزة الواحدة عن الأخرى بظواهرها اللغوية، ولكنها تأتلف فيما بينها بظواهر لغوية أخرى، وتكون بذلك ما نسميه باللغة (Langue). ولم تكن كلمة (لهجة) (Dialecte) على ألسنة علماء اللغة العرب الأقدمين، بل كانوا يستعملون كلمة (لغة) وكلمة (لحن).

وإننا نجد فى كتب اللغة والمعاجم اللغوية القديمة أن استعمالا من الاستعمالات كان على لغة تميم، أو لغة هذيل، أو عقيل، أو أسد. ولم تكن هذه الإشارات واضحة المعالم، فهم يلصقون أحيانا كل استعمال لا يرضونه بقبائل معينة لايتعدونها إلى غيرها، كأن يقولوا : جاء هذا على لغة بلحارث بن كعب، أو لغة أزد شنوءة أو لغة هذيل أو لغة عقيل.

وهم فى أكثر الأحيان لا يحددون اللهجة تحديدا دقيقا، لأن ما يقابل تميما عندهم هو الحجاز، ومعلوم أن تميما قبيلة كبيرة ذات مواطن شاسعة الأطراف، فليس معقولا أن تخضع هذه المجموعة الكبيرة إلى مميزات لغوية واحدة. كما أنه ليس من المعقول أن يكون للحجاز لهجة واحدة ذات مميزات واحدة . والحجاز إقليم كبير اتسع لقبائل عدة تميزت الواحدة عن الأخرى فى الصفات اللغوية. وتنحصر الصفات التى تتميز بها اللهجة فى النظام الصوتى، وهذه الناحية تخضع أيضا لنوع من التطور نسميه بالتطور الداخلى Evolution interne ذلك أن أعضاء النطق تختلف باختلاف الشعوب، تختلف فى تكوينها واستعدادها ومنهج

تطورها . ونتيجة لهذا فأصوات اللهجات تختلف باختلاف الشعوب التي انتشرت فيها ، ونتيجة لهذا أيضا تسير كل لهجة في نظامها الصوتي في طور متميز عن غيره وهذا الاتجاه خاضع للتطور . ومن أجل ذلك فإن أعضاء النطق عندنا مثلا تختلف عنها عند أسلافنا ، ومن أجل ذلك أيضا أننا ننطق بأصوات ونخرجها مخرجا يختلف عما ذكره علماء الصوت من القدامى كالخليل وسيبويه . ونستطيع أن نقول : أن صوت الضاد كما هو مذكور في المظان المعروفة غير موجود الآن ، ولسنا بقادرين أن نخرج صوت الضاد على النحو الذي رسمه الخليل .

إن دراسة اللهجات في العصر الحديث علم من علوم اللغة Gialectologie والعناية بهذا اللون من البحث ذات فائدة ، ذلك أنا إذا نظرنا في العربية ، وأردنا أن نسجل تأريخها ؛ ومراحل تطورها لم نستطع أن نظفر من ذلك بطائل ؛ ومرد ذلك قلة الوسائل التي بين أيدينا ؛ ونقص في أدواتنا وآلاتنا ؛ وأعني بذلك أن مادة اللغة وكتبها على كثرتها لا تشير إلى لغات القبائل ولهجات الأقاليم إشارات علمية واضحة ؛ وقد أشرنا إلى هذه الناحية ؛ ذلك أنهم اعتمدوا الأساليب القديمة الجاهلية وأسلوب القرآن ؛ وما خلا هذين فليس مما يصح الاستشهاد به .

إن أقوال اللغويين مفيدة في هذا الباب فكأنهم لم يقروا بأن اللغة (١) كأي من الظواهر الإنسانية ، خاضعة للتطور ، وأنها أبداً متصلة بالحياة الاجتماعية والنظام اللغوي بطبيعته متميز بهذه القابلية الاجتماعية التي تبرز للحياة متمثلة في كل جزء من أجزاء اللغة . ومن نقص الأدوات عندنا لمعرفة اللغة معرفة علمية ، أن كتب اللغة لا تشير إلى اللفظة المفردة وطرائق استعمالها عبر العصور ، وذلك أن أصحابها مقلدون في بحثهم اللغوي للفكرة الأولى التي قيدت الفصاحة والبلاغة بفترة معينة لا تتعداها إلى غيرها كما أسلفنا ، وأصحابنا من المعنيين باللغة وبأساليب القول فيها بدع بين أقرانهم من علماء اللغات الأخرى ، فاللغوي الحديث يؤمن بالنظرة التاريخية وبالتطور الذي تستدعيه عوامل التطور المختلفة .

---

(١) Charles Bally. Le Langage et la Vie p. p. 20 - 27.

وللكلمة فى الأساليب العلمية الحديثة قيمة كبيرة ، فهى تحيا حياة متطورة متجددة وهى أبداً فى تغير فى دلالاتها (١) ، وفى طرائق استعمالها . وربما قام المجاز والاستعارة بدور كبير فى مسألة الدلالة : والمجاز حاصل فى كل زمان . ولم تشذ العربية عن سائر اللغات فى هذا التبدل والتطور . فهى حية ناشطة تقذف بالجديد فى كل حين حين تحصل الضرورة لاستخدام هذا الجديد فى اللفظ . وماذا يجدى تشدد المتشددين والاستعمال غالب على ما يقولون .

وقد تكون فى الفصيحة مجازات غير معروفة فى الألسنة الدارجـة .. ذلك أن المجاز يتأثر بالبيئة التى تدرج فيها المجموعة البشرية . فأصحاب الحرف والأصناف يقذفون بمجازاتهم المألوفة المعروفة متأثرين ببيئتهم الضيقة ، وهكذا تتعدد ألوان القول فى المجتمع الواحد .

وربما تتغير مدلولات كثيرة لأن الشىء الذى تدل عليه قد تغيرت طبيعته أو عناصره أو وظائفه أو الشئون الاجتماعية المتصلة به وما إلى ذلك ، فكلمة « الريشة » مثلا تطلق على آلة الكتابة أيام كانت تتخذ من ريش الطيور ، ولكن مدلولها الأصلى قد تغير الآن تبعا لتغير المادة المتخذة منها آلة الكتابة ، فأصبحت تطلق على قطعة المعدن (٢) وكذلك قل فى مدلول القطار الذى كان يراد به مجموعة الإبل المنتظمة فى سيرها ثم استعير إلى القاطرة الحديدية الحديثة لأنها تجمع فى سيرها طائفة من «العربات» . وهذا يحدث فى اللغة عامة ، فإن كلمة (Bureau) الفرنسية كانت تدل على قطعة القماش الخشنة التى توضع على المكتب فى الدوائر الرسمية ثم تحولت عن ذلك فصارت تطلق على المكتب نفسه ثم تحولت فصارت تطلق على المكتب نفسه أى المكان الذى نسميه فى اصطلاحنا المحلى « دائرة » .

وقد تجد أصوات فى لهجة من اللهجات نتيجة لتأثرها بلغة من اللغات كما هى الحال فى العامية البغدادية والعامية الجنوبية كالجيم الفارسية والتركية ، وربما تعدت

---

(١) A. Darm steter, La Vie des mots p. p. 6 - 7

(٢) من مقالة للدكتور علي عبد الواحد وافي في مجلة الرسالة المصرية العدد ٣٨٢.

هذه الجيم الدخيلة إلى أصوات عربية فغلبت عليها كالكاف الفصيحة فى مثل « كان » والجيم الفصيحة فى مثل «جول» ، والشين الفصيحة فى مثل « فرشة » .

غير أن اللهجات وإن اختلفت فيما بينها فهى تتفق فى مسائل معينة ، وظواهر لغوية واضحة تربط بينها لتكون منها مجموعة لغوية ترجع إلى لغة عامة شاملة .

وهذه الظواهر تنحصر فيما يأتى :

(١) الضمائر .

(٢) العدد .

(٣) أسماء الإشارة وأسماء الموصول .

(٤) الاشتراك فى معانى طائفة كبيرة من الألفاظ .

(٥) النظام الجملى .

وكما تنشأ اللهجات تبعاً للأقاليم والمجاميع البشرية ، كذلك تنشأ لهجات معينة تبعاً للأصناف والحرف . والرابطة الاجتماعية هى السبب فى هذا[١] وإن نوع العمل مدعاة إلى أن يؤلف بين هؤلاء الناس فيتخذوا لهم بحكم أعمالهم أسلوباً فى التعبير له ألفاظه وله طرائقه .

الجغرافيـة اللغوية :

اهتم الباحثون فى مسائل اللهجات منذ أوائل القرن الماضى ، فقد نشر عدد من المعاجم كما نشرت الكتب فى نحو هذه اللهجات . ولكن أمراً جوهرياً فات أولئك الباحثين، وهو أن لهجة أى جهتين أو إقليمين يبعد الواحد عن الآخر نحواً من مائة ميل أو أكثر من ذلك لا بد أن تكون الواحدة مختلفة عن الأخرى

---

(١) انظر Henri Bauche, Le Langage populaire.

فى كثير من الخواص والميزات ولا سيا إذا كان أهل تلك الجهة ، أو ذلك الإقليم قد غبرت عليهم الأعصار فى إقامتهم فى ذلك الإقليم أو تلك الجهة ، وقد أثبتت البحوث أنه ليس هناك حدود ثابتة لكل لهجة من اللهجات ، أو قل كل ميزة أو ناحية خاصة للهجة بعينها ، وهى ما يدعى Iso Glosse ، أى ظاهرة لغوية خاصة لها حدودها المعينة على وجه التقريب . فظاهرة إبدال الياء بالجيم لها مناطقها وحدودها بين سكان البادية والمناطق القروية فى جنوبى العراق مثلا .

إذن لابد للغوى من ضبط التوزيع الجغرافى لكل ظاهرة من الظواهر اللغوية المحلية للهجات المتباينة .

وقد تعقدت مشكلة التطور اللغوى فبرزت فى مختلف الموضوعات ولا سيا فى عصرنا الحاضر ، فهناك مصطلحات العلوم على اختلافها كعلم النفس والطب والكيمياء والطبيعة والفلسفة والرياضة ، وهناك مصطلحات ما ندعوه بالعلوم الإنسانية مثل اللغة والأدب والاجتماع والاقتصاد والسياسة والقانون ونحو ذلك .

وقد عرض الأقدمون لهذا الموضوع فتواضعوا على مصطلحات فى علومهم القديمة ولدينا مصطلح على فى كل علم من العلوم التقليدية . وإن كثيراً من تلك المصطلحات ما زال مستعملاً فى حياتنا الحاضرة .

وسنعرض لموضوع المصطلح العلمى « Terme Technique » على أنه نوع من التطور التأريخى قد حدث فى العربية .

إن دراسة اللغة فى ضوء سنة التطور أمر ذو بال ، وهو يقتضى أن يتوفر أسلوب البحث على منهج جديد يتصف بنوعين من العلاقات هما :

(١) العلاقات المتعاقبة والوصفية Syreronique .

(٢) العلاقات المتعاصرة أو التاريخية Diacronique .

وهذه المصطلحات من وضع العالم اللغوى السويسرى (دى ســوسير) الذى مر ذكره .

وأصحاب هذا المنهج يشبهون الدراسة الوصــفية بالخط الأفقى ، والدراسة التاريخية بالخط الرأسى . وذلك لأن الأولى تدرس ظاهرة لغوية إلى جانب الظواهر المرتبطة بها فى العصر نفسه وبهذا تشبه الخط الأفقى .

أما الثانية فإنها تبدأ بدراسة ظاهرة من الظواهر فى عصر مبكر ، ثم ترقى بها إلى عصور أحدث ، وهى بذلك تشبه الخط الرأسى .

والدراسة الوصفية نوعان : نوع يعنى بدراسة جميع الحقائق اللغوية للغــة واحدة فى مكان معين ، ونوع يعنى بدراسة حقيقة لغوية واحدة فى مختلف أنحاء الوطن اللغوى وهذا ما ندعوه بالجغرافيا اللغوية .

وتتناول هــذه الدراسات الإحاطة باللغة فى جميـع جهاتها الزمانيــة والمكانية (١) .

---

(١) انظر:

1 - F. De Saussure, Cours de Linguistique Generale

2 - A. Mellet Linguistique Historique et Linguistique Generale.

الفصل الثالث

الدلالة والمعنى

يرى المحدثون من اللغويين العرب ممن درس اللغة دراسة أوربية حديثة أن الدلالة أو علم الدلالة « Sémantique » من المبتدعات الأوربية الحديثة التى بحث بها الغربيون فى أواخر القرن التاسع عشر . والمهم أننا نفيد من موضوعات علم اللغة الحديث فى فهم لغتنا العربية ودراستها دراسة جديدة .

فإذا عرضنا لمسألة اللفظ والمعنى ينبغى أن ننظر فى عربيتنا وكيف أدرك علماء العربية من لغويين ونحويين وبلاغيين هذا الموضوع ثم نعرض للآراء الحديثة التى عرفناها فى الدراسات الغربية .

نعم اهتم الأقدمون فى مسألة اللفظ والمعنى وتضافر على هذا الموضوع جهات كثيرة من المعنيين بعلوم شتي وبهذا اختلف نظرهم فى هـذه المسألة ، ومرد ذلك أن كل طائفة من هؤلاء تنظر هـذه المسألة نظراً خاصاً يمليه عليها الاختصاص العـلمى .

تناول اللفظ والمعنى النقاد من الأدباء الذين اقتصر بحثهم على النقد وكتب النقـد القديم موفورة تشهد على هذا المنحى ، ثم تناوله مؤرخو الأدب وسبيل هؤلاء سبيل النقاد فهم يتطلبون الإجادة فى اللفظ والمعنى ليتم لهم وضع الشعراء الذين يؤرخون أدبهم ويترجمون لهم فى مواضعهم .

وتناوله المفسرون ممن عنوا بتفسير كلام الله تعالى وبيان وجوهه وحمل اللفظ على معان كثيرة تبعاً لاختلاف الرأى .

كما تناوله أهل الحديث وذلك لشرح حديث رسول الله (ص) وبيان ما يمكن أن ينصرف إليه الرأى .

وتناوله البلاغيون وهؤلاء الذين انتهى إليهم علم النقد خالصاً مبوباً مصنفاً بعيداً عن الأقوال الأدبية العامة التى لحها الأدباء النقاد .

وتناوله أهل المنطق فنظروا إلى اللفظ وعلاقة اللفظ بالمعنى نظراً خاصاً . والحوار بين متى بن يونس القنائى المنطق وأبى سعيد السيرافى مشهور .

يقول متى بن يونس لأبى سعيد : « لا حاجة بالمنطق إلى النحو ، وبالنحوى حاجة إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى ، والنحو يبحث عن اللفظ ، فإن مر المنطق باللفظ فبالعرض ، وإن مر النحوى بالمعنى فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضع من المعنى »(١) .

وتناوله اللغويون فكتبوا فيه الرسائل اللغوية ثم اتسع الأمر بهم واشتدت الحاجة إلى المجاميع اللغوية فآل الأمر إلى المعاجم . والمعاجم على أنها مجموعات ضخمة لألفاظ العربية تعكس لوناً من ألوان التطور فى استخدام الألفاظ .

غير أننا نجهل فى كثير من الأحيان الظروف التى تسببت فى اطلاق أقوال كتب لها الشيوع ودعت إلى استعمالها استعمالا واسعاً . وربما اجتهدنا الاجتهاد الدقيق فى استعادة شىء من معرفة تلك الظروف .

ومن هنا كان على الباحث فى موضوع « علم الدلالة أو المعنى » أن ينهج نهجاً تاريخيا .

قلت لا بد من استعادة إدراك الظروف التى هيئت للاستعمالات التى كتب لها الشيوع . لنأخذ على سبيل المثال عبارة : « وأنفه راغم » أو « على الرغم من..» ،

---

(١) أبو حيان التوحيدي: المقابسات (المطبعة الرحمانية) ص ٧٤.

واستعمالها معروف شائع . وربما لم يدر بخلد من يستعمل هذه العبارة أن مادة (رغم) فى هذه العبارة استعملت استعمالا مجازيا ، وأن حقيقة مادة (رغم) متصلة بالاسم وهو « الرغام » أى « التراب » .

فإذا قيل : « وأنفه راغم » فكأن أنفه يمس الرغام أى التراب إشارة إلى إذلاله ثم فارقت هذا الظرف وهذه الحال فصارت تطلق فى كل أحوال الاضطرار فنقول مثلا : « جئتك على الرغم من شدة البرد » .

ولكن النظر فى المعجم العربى القديم لا يبصر بهذه العلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى الذى انتهت إليه المادة وخلصت له . وعلى هذا فإن المعنى الحقيقى صار من قبيل المواد المهجورة لعدم الحاجة إلى استعماله .

ولنأخذ مثالا آخر فنقول : إننا نستعمل عبارة «أخذ بجريرته» أى بذنبه وجنايته والجريرة بطبيعة الحال من مادة (جرر) وهذه المادة من المواد الشائعة الاستعمال ، ومعناها معروف ، وليس من صلة من قريب أو بعيد بين المعنى الحقيقى وهو «الجر» والجريرة بمعنى الذنب أو الجناية . وكتب اللغة ومعاجمها القديمة لا تشير إلى التوصل الى هذا المعنى المجازى ، ولا إلى الظرف أو الحال الذى يسر هذا الانتقال من الحقيقة إلى المجاز .

ولنذكر شيئا مما ورد فى « لسان العرب »[٢] فى هذه المادة :

والجريرة : الذنب والجناية يجنيها الرجل . وقد جر على نفسه وغيره جريرة يجرها جراً أى جنى عليهم جناية ، قال :

إذا جر مولانا علينا جريرة   صبرنا لها إنا كرام دعائم

وفى الحديث : قال يا محمد بم أخذتنى ؟ قال : بجريرة حلفائك ، الجريرة : الجناية والذنب ، وذلك أنه كان بين رسول الله (ص) وبين ثقيف موادعة ، فلما نقضوها

---

(١) اللسان (جرر)

ولم ينكر عليهم بنو عقيل وكانوا معهم فى العهد صاروا مثلهم فى نقض العهد فأخذه بجريرتهم .

هذا جملة ما نعرف من هذا المعنى ومن الشواهد التاريخية التى ورد فيها هـذا الاستعمال ، ولـكننا لم نعرف طريقة الانتقال من الأصل الحقيقى إلى المجاز ، ولا الظرف الذى تسبب فى هذا الانتقال .

غير أن النظر الدقيق فى هذا الاستعمال يهدينا إلى أن « الجريرة » بمعنى الجناية والذنب آتية من أنهم يزورون النساء للفجور بهن فإذا خرجوا منهن جروا ذيولهم على آثارهم حتي تنطمس فلا يعرفون . قال امرؤ القيس :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرحل

وربما كان الفعل (جنى) « فى جنيت الثمرة » أجنيها جنى وأجتنيها بمعنى. والأصل فى اجتناء الثمرة تناولها من الشجرة من غير إذن من مالـكها وهو ذنب قبيح فـكان الاستعمال الحقيقى قولهم : « جنى جناية » بتناول الثمرة من غير رخصة فى أخذها ثم لشيوع مثل تلك الجناية صار مجرد التناول وأن كان جائزاً اجتناء أو اقتناء .

ومثل هذا الفعل (جرم) وهو مأخوذ من المضعف (جرّ) و « جرم » معناه « قطع » وهو من اجتناء الثمرة من غير إذن مالـكها . فـكأن القاطع الذى ليس له رخصة يجنى ويجرم ثم اتسع فيه واستعمل فى القطع الخالى من الجناية .

هذا شيء فى اللفظ مما اجتهدنا فى معرفة الظرف الذى تهيأله فجرى على تلك الصور فى الاستعمالات . غـير أننا لانستطيع أن ندرك جميع الظروف والأحوال لألفاظ اللغة جميعها وذلك لانقطاع العهد بيننا وبين لغتنا هذه التى ندعوهـا بالفصيحة، ولولا أن القرآن قد وصلنا بها لأضعنا فى أمرها شيئا كثيراً .

ومما يزيد فى صعوبة الأمر فى هذه الدراسة التاريخية أن اللغويين الأقدمين

تنكروا للاستعمالات العربية فى العصور التى تلت الصدر الأول للدولة الإسلامية وقصروا اهتمامهم بلغة الشعر الجاهلى كثيراً ولغة القرآن وطائفة من شعراء الصدر الأول الإسلامى فلم يستشهدوا مثلا بشعر ذى الرمة مع أنه عاصر قوماً يصح الاستشهاد بلغتهم على مازعموا كالفرزدق والأخطل وجرير .

واهتمامهم بالاستشهاد بلغة الشعر جعلهم قليلى الأخذ بلغة التنزيل .

وأما لغة الحديث فقد هجروها هجراناً يكاد يكون تاماً .

والأخذ بهذا النظر يعنى إنكاراً للحقيقة اللغوية وهى المذهب الاجتماعى الذى يفصح عن أن اللغة من صنع الهيئة الاجتماعية وإذا اعتقدنا بهذه النظرة العلمية الحديثة أعتقدنا أيضاً أن هذه اللغة لابد أن تتطور فتساير الزمان والمكان .

وعلى هذا فاعتبار اللغويين الأقدمين اللغة الفصيحة مقصورة على المستعمل منها فى لغة الشعر الجاهلى ولغة الصدر الأول للدولة الإسلامية إنكار للغة ذاتها وجعلها أشبه ماتكون بالتحفة الأثرية التي يحرص عليها ويحتفظ بها لأنها علق نفيس شأنها شأن سائر الأعلاق النفيسة والعاديات العتيقة .

والأخذ بهذا الحد فى تمييز الفصيح من غيره جعلهم يتنكرون للاستعمالات الجديدة التى شاعت فى أدب جماعة من المبدعين من الشعراء ، ولايضير هؤلاء أنهم أطلقوا عليهم اسم « المولدين » : أنكروا على أبى تمام استعماله « ماء الملام» فى قوله :

لاتسقنى ماء الملام فإننى　　　صب قد استعذبت ماء بكائى

فقد قيل إن أحدا لظرفاء جاء إلى أبى تمام وسأله أن يعطيه قارورة من « ماء الملام » ، فقال له أبو تمام : لاأعطيك ماسألت حتى تأتينى بريشة من « جناح الذل » .

وأبو تمام يشير فى جوابه اللطيف إلى الآية الكريمة « واخفض لها جناح

الذل من الرحمة ، وهو يريد إن يقول إن لاستعمال المجاز فى العربية ضروباً من الابداع والابتكار فكما أن لغة التنزيل ابتكرت المجازات الدقيقة اللطيفة فصارت من أعلاق العربية ، كذلك كان حق الشاعر المبدع أن يبتكر فى استعمالات المجازات ، واللغة كما هو معروف ضرب من المجاز .

حكى عن إسحق بن إبراهيم الموصلى أنه قال : أنشدت الأصمعى :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيبل الصدى ويشفى الغليل

إن ماقل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال : والله هذا الديباج الخسروانى . لمن تنشدنى ؟ فقلت : إنهما لليلتهما ، فقال : لاجرم والله إن أثر التكلف فيهما ظاهر .

هذا هو موقف اللغويين الأقدمين فى الحقيقة اللغوية ، وفى الاستعمالات التى لم تشع ولم تعرف فى الحقبة التى قصروا على أهلها الفصاحة .

وهذا نظر بعيد عن العلم الصحيح كما أشرنا .

ومن الغريب أن المعنيين بالعلم اللغوى وجل هؤلاء من أعضاء المجامع اللغوية فى البلدان العربية مازالوا ملتزمين بموقف اللغويين الأقدمين فى الفصيح والحدود التى وضعوها له .

أما المحدثون من علماء اللغة فإنهم نظروا إلى هذه المسألة نظراً خاصاً مبنيا على الدلالة فى المعنى « Sémantique » وجد هؤلاء أن المشكلة اللغوية تتعقد فى هذه الحياة الحاضرة وأن الحضارة الجديدة لابد لها من أدوات لغوية تترجم عنها ترجمة صادقة ثم إنهم لاحظوا أن الألفاظ تتطور فتكتسب من المعانى أشباه جديدة لم تكن لها .

وليست اللغة العربية بنجوة من التطور فالألفاظ العربية كما يدل البحث التاريخي كانت عرضة للتبدل الذى اقتضاه الزمان وتقلب الأحوال والنظم الاجتماعية وما الألفاظ الإسلامية إلا لون من ألوان هذا التطور الذى عرض للفظة العربية البدوية القديمة فاستحالت شيئاً آخر يقتضيه الدين الجديد والبيئة الجديدة، وسنعرض لهذا الموضوع على أنه مادة مهمة فى التاريخ اللغوى للعربية .

قلت إن هذا الموضوع من الدراسات الحديثة، والدراسات اللغوية الحديثة بدأت منذ مطلع القرن التاسع عشر، ولكنها لم تكتسب صفتها العلمية الأصيلة إلا فى أواخر هذا القرن .

ولقد كان الفرنسى (بريال) Bréal أول من فطن إلى المصطلح (Sémantique) وذلك فى سنة ١٨٨٣ قاصداً به « علم المعنى » أو علم الدلالة كما بدا لنفر من علمائنا اللغويين العرب أن يترجموا بـ (الدلالة) اللفظ الأعجمى، وقد كتب هذا العالم الفرنسي رسالة درس فيها « الدلالة » فى جملة من اللغات الهندية الأوربية كاللاتينية والسنسكريتية وغيرهما، وقد نشرت هذا الرسالة فى سنة ١٨٩٧ وشاعت واستقبلها الباحثون استقبالاً حسناً فترجمت إلى الإنكليزية . غير أن اللغويين الفرنسيين قد ظلوا بمعزل عن هذا اللون الجديد من ألوان البحث اللغوى، فكانوا يعتبرون مسألة الدلالة أو المعنى من متعلقات البحث فى الأساليب والأنواع الأدبية « Styliotique » وظلوا على رأيهم هذا إلى عهد غير بعيد، ثم بدا لهم أن هذه المادة من موضوعات علم اللغة فتبعوا فى ذلك جمهرة العلماء اللغويين فى خارج فرنسا .

وفى القرن العشرين اتسع البحث فى المعنى والدلالة واتضحت المناهج فيه فإذا كان (M. Brérl) أول من لفت الأنظار إلى الموضوع فى رسالته المسماة Essai de Sémantique، فإنه قد توصل إلى قواعد عامة فى تطور الدلالة لا تخرج عن الناحية التاريخية .

غير أن الباحثين الذين جاءوا بعده قد فطنوا إلى الناحية الاجتماعية فى تطور المعنى كما فطنوا إلى العوامل الإنسانية فى هذا التطور والعوامل الخارجية .

وفى هذا النهج جرى أوكدن C.K. Ogden و I.A. Richards فقد كتبا فى سنة ١٩٢٣ كتابهما المشهور The Meaning of Meaning وبحثا فيه مسألة الدلالة وتطور المعنى من الناحيتين الاجتماعية والنفسية فبينا علاقة الشعور والعاطفة والإرادة والسلوك فى تطور الدلالة .

كما اهتم الأمريكيون فى الفترة الأخيرة بدراسة موضوع الدلالة حتى أدى بهم هذا الاهتمام إلى كثرة الباحثين فكثرت الدراسات . ويبدو أن الأمريكيين قد عرضوا لهذا الموضوع من أجل غرض غير لغوى ، فقد اعتقدوا أن دراسة معانى الألفاظ كفيلة بحل كثير من المشكلات الإنسانية التى تعرض للأمريكى فى بيئته الواسعة المعقدة التى تضم العدد الهائل من البشر وهم غير متجانسين . فى تفكيرهم ، وذلك لانتمائهم إلى أصول عدة . إذاً فالحاجة هى التى دفعت هؤلاء إلى أن يتناولوا هذا الموضوع فى هذا المستوى الشعبى .

ومن أشهر هؤلاء الباحثين شخص بولونى الأصل يدعى (الفرد كورزيبسكى) Alfred Korzipski فقد ذهب هذا إلى أن البحث فى مدلولات الألفاظ طريقة فى الوصول إلى حلول لكثير من مشكلات الانسان التى تحمل إليه المآسى والمتاعب ومن ثمة الحروب وما تجر وراءها .

هذا عرض سريع لاهتمام اللغويين فى مختلف العصور بموضوع اللفظ ودلالته ولما كنت أرى أن أدرس العربية من الناحية التاريخية ، يحسن بى أن أعرض للالفاظ الإسلامية على أنها لون من ألوان التطور التاريخى الذى عرض للمفردات العربية فتغيرت من دلالاتها إلى شىء يدخل فى باب المصطلح العلمى (Terme Technique) . وهذا المصطلح العلمى مهم من الناحية التاريخية وذلك أنه قد توفر للعربية فى حقبة مبكرة من تاريخ تطورها هذا الانتقال العلمى الحضارى .

الفصل الرابع

الألفاظ الإسلامية

يعتبر القرآن فى تاريخ العربية حدثاً مهماً وذلك لأنه نموذج جديد لهذه اللغة الكريمة. تطورت العربية فى هذا النموذج فكانت خليقة بأن تكون معربة عن دين جديد هو فى حقيقته حضارة جديدة .

ومن الطبيعى أن تتطلب هذه الحضارة الإسلامية الجديدة مادة لغوية جديدة ، ولذلك أدرك العلماء فى فترة سابقة من العصر الإسلامى أنه لا بد من فهم لغة التنزيل فهماً جديداً لما فيها من أسرار لغوية جديدة .

وهكذا فكر العلماء الأقدمون فى شرح هذه اللغة بعد أن وقفوا وقفة طويلة مترددين فى الإقدام على هذا العمل الشاق وذلك لتمكن العقيدة من قلوبهم إن لغة القرآن تعرب عن معان جديدة فهل يؤخذ اللفظ على ظاهره أم أن دقائق المعنى تقتضى أن يوجه اللفظ توجيهاً آخر .

ومن هنا كانت دراسة العربية غاية ووسيلة ، فهى غاية ممثلة فى هذه اللغة الجديدة فى كلام الله سبحانه وتعالى وكلام نبيه الأمين ، وهى وسيلة لفهم ما وراء هذه الألفاظ واستعمالها كما وردت فى آى القرآن الحكيم .

وكان أبو عمر بن العلاء من علماء العربية المتقدمين وأحد القراء السبعة المشهورين قد ذهب إلى أن فهم لغة القرءان وتدبر معانيه غاية كل مسلم ، وإلى أن الشعر واللغة ينبغى أن يكونا أدوات لفهم لغة القرآن .

غير أن الأصمعى من علماء اللغة فى القرن الثانى للهجرة أبى أن يعرض لشعر وافق شرحه لشىء من القرآن وأنه لم يذهب مذهب أبى عبيدة معمر بن المثنى الذى ذهب

فى كتابه «مجاز القرآن» مذهباً آخر فكان يفسر القرآن ويشرح غريبه مستدلاً بما ورد من ذلك اللفظ فى الشعر القديم . وقد سبق أبا عبيدة فى هذا المضمار عبد الله بن عباس وجماعة آخرون من الصحابة والتابعين .

وتشتمل لغة التنزيل على ثروة لفظية يحق لنا أن نطلق عليها الألفاظ الإسلامية، وذلك لأن هذه المواد العربية قد اكتسبت فى هذه الفترة الإسلامية الأولى معانى جديدة كما وردت فى القرآن والحديث . وإن اكتسابها لهذه المعانى جعل طائفة منها تدخل فيما أسميناه « المصطلح العلمى » .

فإن ألفاظ « الصلاة » و « الزكاة » و « الصوم » و « الجهاد » و «الصدقة» و « الفرض » و « السنة » و « الحديث » و « النافلة » وغير هذا مما يدخل فى باب « الألفاظ الإسلامية » ، ومعنى ذلك أنها دلت دلالات جديدة فى هذه الفترة التاريخية .

ونستطيع أن نحصى ألفاظاً كثيرة أخرى اكتسبت معانى جديدة فى هذه الفترة التاريخية من تاريخ العربية فإن التقوى ، والإيمان ، والتوحيد ، والمسلم ، والمؤمن ، والكافر ، والملحد ، والفاسق، والمصدق ،من الألفاظ التى تطورت فى لغة القرآن فصارت تطلق على معان غير المعانى التى كانت معروفة بها .

ومن أجل ذلك وجد الباحثون أن الحاجة تدعو إلى وضع التصانيف التى تشرح هذه اللغة الكريمة فكانت الكتب التى تحمل عنوان « مجاز القرآن » والكتب التى توسم بـ « غريب القرآن» أو « مشكل القرآن» .

ومثل ما حدث فى لغة القرآن حدث فى لغة الحديث ، فقد وجد فيها العلماء مادة غريبة ينبغى أن تخص بالتأليف فصنفت فى ذلك الكتب والرسائل .

ويتألف من مجموع هذا مادة تطلق عليها « الألفاظ الإسلامية » . وإذا كنا مؤرخين لهذه اللغة ينبغى أن نقف عند هذه الفترة وقفة طويلة وذلك لتسجيل هذا الجديد الذى جد فى حياة هذه اللغة الكريمة .

الفصل الخامس

في المشكلة اللغوية

الاهتمام باللغة أمر تستدعية ضرورة قائمة ، وذلك أن المشكلة اللغوية من المشكلات الخطيرة . ومن أجل ذلك نشطت المجامع العلمية فى الأقطار العربية فى العمل على حل هذه المشكله القائمة وتبرز المشكلة فى أن العرب فى يومنا هذا لايتكلمون بالفصيح من العربية ،فالعامى الدارج هو المستعمل وأمر العامى مشكلة المشكلات أيضاً ، فهناك لهجات مختلفة باختلاف البلاد ، ثم إن البلد الواحد مشتمل على لهجات وطرق فى التعبير مختلفة أيضاً ، وربما صعب على العربى فى شمالى العراق أن يفهم من قروى من سكنة الأهواز فى الجنوب من العراق.

ومسأله تقريب العامية من الفصيحة أمر يتعلق بالزمن الطويل ، فليس من الممكن القيام بمشروع أو بحث للوصول إلى هذا الهدف الخطير ، وأنا أقول متعلق بالزمن ، لعلمى أن خيرالوسائل الكفيلة بتحقيق هذا هونشر العلم والثقافة بين أبناء البلد الواحد ، بحيث يتيسر لجميع أبناء البلدقسط من العلم والمعرفة ، ومن شأن هذا أن يعمل على رفع مستوى اللغة المستعملة التى هى قريبة من الفصيحة . ونستطيع أن ندلل على قربها من الفصيحة إذا نظرنا إلى اللغة التى يستعملها المثقفون اليوم فى محادثاتهم وفى استعمالاتهم اليومية فهى لغة فى مجموعها تكاد تخلو من اللفظ العامى الدخيل فمجموعة ألفاظها على العموم فصيحة ويبدو قربها من الفصيح إذا وازنا بين اللغة التى يستعملها المثقف وهو من أسرة جاهلة — واللغة التى يستعملها سائر أفراد أسرته والتى هى موغلة فى العامية الدارجة .

ولا بد أن نعرض لهذه اللغة القريبة من الفصيحة بالبحث التى نحن سائرون إليها فى مستقبلنا القريب أو البعيد لنحدد صفاتها وميزاتها التى تتميز بها ثم نخلص

من ذلك إلى البحث التاريخى لنقرر مرحلة من مراحل تاريخ العربية الطويل ، فالتاريخ اللغوى من الأمور الغامضة ، ذلك أن الباحث لا يهتدى إلى المراحل التطورية فى هذا التاريخ الطويل وربما انقطعت عنه حلقات طويلة وضاع أثرها وبهذا فليس من الممكن رسم تاريخ محكم الحلقات لهذه اللغة فلقد ضاع من أصولها شىء كثير ومن أجل هذا فهى بدع من اللغات الحية المتطورة على قوتها وأصالتها وحيوتها وقابليتها فى مسايرة الزمن وتطوره . ولقد أثر عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لانتهى إليكم علم وشعر كثير » .

وأنا أفترض أن تكون هذه اللغة القريبة من الفصيحة والتى تكاد تخلو من أى لفظ دخيل عامى ، متخففة من قيود الإعراب فالكلمات فيها ساكنة الأواخر ولعل هذه المرحلة مهمة فى العود إلى الفصيح المعرب كما هو الحال فى اللغة المكتوبة، التى ورثناها من التراث العربى كما فى لغة القرآن .

ولا بد أن نعرض للاعراب عرضا تاريخياً فنقول : لقد احتفظت اللغة العربية الفصيحة بظاهرة الإعراب وهى من صفات العربية الموغلة فى القدم ، فى حين أن سائر اللغات السامية عدا الأكدية ـ قد فقدت الإعراب منذ أقدم العصور ،وقد دل على هذا الإعراب بقايا نجدها فى العبرية والحبشيه وأما فى اللغة الأكدية فقد عرفت الحركات الثلاث فى البابليه فى النصوص القديمة ثم تطورت هذه الحركات الثلاث وأنتهت إلى حركتين هى الضمة للرفع والفتحة للنصب والجر ولم تلبث هذه المرحلة طويلا حتى تطورت إلى مرحلة الحركة الواحدة وهى الكسرة الممالة .

ولعل علاقة اللغة النبطية بالعربية وقربها منها أوجد الإعراب فى النبطية كما تؤيد ذلك النقوش التى عثر عليها . وقد ذهب Eknon المستشرق الألمانى إلى أن النبط كانوا يستعملون الضمة فى حالة الرفع والفتحة فى حالة النصب والكسرة فى حالة الجر ، ولا يعقبون هذه الحركات بالنون . وعدم وضع النون بعد الحركات

يشبه ماهو شائع فى قسم من لهجات العربية الدارجة ومن ذلك ما هو مستعمل فى لهجة أهل الموصل فى العراق ، وفى غير الموصل كما فى الأقطار العربية الأخرى .

ويرى المستشرق E. Littmann أن أواخر الكلمات فى اللهجة النبطية قد يحدث فيها تغييرا بحسب مواضعها من الإعراب . وللاعراب أثر فى اللغة العبرانية يتبينه الباحثون فى حالتى المفعول به وفى ضمير التبعية على أن هذا الأثر ضئيل جدا فقد أوشكت تخلو لغة العهد القديم من الإعراب . غير أن علامة النصب فى العبرية القديمة هى الفتحة الطويلة التى نشأ عنها حرف الهاء ، والهاء المتطرفة فى هذه اللغة تشبه الالف اللينة ، ومن أجل ذلك تعامل معاملة أحرف المد وتظهر هذه فى آخر الاسم المنصوب بنزع الخافض كما فى آخر الظرف المنصوب (ليلا) وتعنى (ليل) و (عشا) وتعنى (حين) . وكما تلحق هذه العلامة الظروف فإنها تلحق المصدر فينصب كما هو فى المفعول المطلق فى العربية ولكنها فى هذه الحالة تكون متلوة بميم زائدة (للتمييم) الذى يقابل التنوين فى العربية ، مثال ذلك (يومام) وتعنى (يوما) و (حنام) وتعنى (مجانا) والمتتبع لشوارد النصوص فى اللغة العبرية ربما وجد آثارا تشير إلى شىء يشبه الضمة والكسرة ولعلهما بقايا لضمة وكسرة كانتا مستعملتين فى العبرية القديمة .

ويعلل المحدثون — وجلهم من المستشرقين ظاهرة الإعراب فى العربية وفى سائر اللغات السامية تخلو هذه اللغات من ادغام للكلمات أى وصل كلمة لتكون من الكلمتين كلمة واحدة لها معنى مركب منها كما فى اللغات الآرية . وليس من حجة علمية تاريخية تثبت صحة هذه الدعوى والذى ثبت فى التحقيق العلمى أن فى العربية تراكيب كثيرة ، وأنها استفادت من التركيب لتكثير المعانى والمبانى ،وقد اعتمد البناء فى العربية على التركيب بصوره المختلفة ، وكان مذهب الخليل بن أحمد أن الكلمتين إذا ركبتا ولكل منهما معنى وحكم أصبح لها بالتركيب حكم جديد . وتبع الخليل فى مقالته جمهور الكوفيين ومنهم الكسائى والفراء . ومن أجل ذلك فليس عدم التركيب علة فى الإعراب ، وذلك لوجود التركيب والإعراب فى العربية فى الوقت نفسه.

ويختلف الرأى فى دلالة الحركات على المعانى الإعرابية بين القدماء والمحدثين فى اللغة العربية • وأول من أشار إلى هذه المشكلة من القدامى هو الخليل بن أحمد ذكر سيبويه أن الخليل قال : « إن الفتحة والكسرة والضمة زوائد وهن يلحقن الحروف ليوصل إلى التكلم به والبناء هو الساكن لازيادة فيه » . ولعل الجدل فى دلالة هذه الحركات على المعانى الإعرابية وعدم دلالتها على ذلك ، دار بين تلاميذ سيبويه والكسائى فذهب جمهورهم مذهب الأول ، وذهب آخرون مذهب الثانى •

ويمثل رأى الذاهبين إلى أن الحركات دوال على معان إعرابية ، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجى ، فقد نقل السيوطى فى الأشباه والنظائر قوله « إن الأسماء لما كانت تعتورها المعانى جعلت فاعلة ومفعولة ومضافة ولم يكن فى صورها وأبنتيها أدلة على هذه المعانى جعلت حركات الإعراب تبين عن هذه المعانى وتدل عليها ليتسع لهم فى اللغة ما يريدون من تقديم وتأخير عند الحاجة » •

ويمثل رأى الطائفة الأخرى قطرب أبو على محمد بن المستنير وهو تلميذ سيبويه قال قطرب إنما أعربت كلامها ، لأن الاسم فى حال يلزمه السكون للوقف فلو جعلوا وصله بالسكون وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقباً للاسكان ليتبدل الكلام • ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن ولم يجعلوا بين ساكنين فى حشو الكلمة ولا فى حشو بيت ولا بين أحرف متحركة لأنهم فى اجتماع الساكنين يبطئون فى كثرة الحروف المتحركة ويستعجلون ، وتذهب الصلة من كلامهم فجعلوا الحركه عقب الإسكان •

وفى هذا الرأى توضيح وأبانه لرأى الخليل الذى أسلفنا ذكره وممن ذهب مذهب قطرب من المحدثين الدكتور إبراهيم أنيس • ولكنه حلاله أن يلتزم بالرأى أن هذه الزوائد الإعرابية يلجأ إليها لأمور فنيه (Technique) وهو أن

الموسيقى والانسجام يستدعيان هذه الزوائد الإعرابية ، ومعنى هذا أنه ليس للحركات الإعرابية من مدلول وأن الحركات لم تكن تحدد المعانى فى أذهان العرب الأقدمين ، وهى لا تعدو أن تكون حركات يحتاج إليها فى كثير من الأحيان لوصل الكلمات ببعضها . ويرى الدكتور أنيس أن « النحاة قد ابتكروا بعض ظواهر الإعراب وقاسوا بعض الأصول ، رغبة منهم فى الوصول إلى قواعد مطردة منسجمة » . ثم إنه يفترض افتراضاً لا يقوم على أساس علمى تاريخى فيقول : « ولعلهم تأثروا بما رأوه حولهم من لغات كاليونانية ففيها يفرق بين حالات الأسماء التى تسمى (Cases) ويرمز لها فى نهاية الأسماء برموز معينة » . ولقد فاته أن اليونانية تختلف نحوا وطبيعة عن العربية ولم يكن واضع النحو عارفا أو متأثراً باليونانية بأى وجه فى الوجوه ، والقول بالتأثر باليونانية فى الثقافة العربية الإسلامية شائع عند الكتاب المصريين فإلى مثل هذا ذهب كل من الدكتور طه حسين والأستاذ أحمد أمين والدكتور إبراهيم مدكور والدكتور إبراهيم سلامة . وقد بنى إبراهيم مدكور رأيه فى تأثر النحو العربى بمنطق أرسطو على أمور .

(١) اعتبار القياس أصلا من أصول النحو وتحديده ووضعه على نحو ما حدد القياس المنطقى ثم التشابه بين ماجاء فى تقسيم الكلمة عند سيبويه إلى اسم وفعل وحرف وما جاء فى تقسيمها عند أرسطو إلى اسم وفعل وأداة .

(٢) ظهور النحو السريانى فى مدرسة نصيبين فى القرن السادس الميلادى على مقربة من النحاة العرب الأولين ، ثم ترجمة عبد الله بن المقنع لمنطق أرسطو التى تعد كما يقول ثروة جديدة نقلت إلى العالم الإسلامى ثم تلمذه بعض السريان على الخليل بن أحمد كحنين بن إسحاق الطبيب السريانى المعروف الذى كان له أثر فى نقل علوم اليونان ، وقرر الدكتور أن حنينا قد عاصر الخليل وسيبويه ، وليس مدكور أول من ذهب إلى هذا فقد قال بهذه المقالة قدماء ومحدثون .

من القدامى ممن ذهب إلى هذا ابن أبى أصيبعة فى (عيون الأنباء) ونقل

هذه الرواية القفطى وقد ذهب الأستاذ أحمد أمين هذاالذهب من المحدثين ورد هذه الأقوال يقوم على أن الخليل لم يعاصر حنينا فوفاة الخليل كانت فى سنة ١٨٠ هـ أو قبل ذلك أو بعده بقليل وأن ولادة حنين لم تكن قبل سنة ١٩٤ ، فلم يدرك إذا حنين الخليل ولا رآه ، والزعم باطل من أساسه . والقول بهذا التأثر نتيجة تقليد هؤلاء المحدثين للمستشرقين فى أقوالهم ، فإلى مثل هــذا ذهب (دى بور) فى تاريخ الفلسفة فى الإسلام .

ويستدل الدكتور إبراهيم أنيس بخلو اللهجات الإقليمية الحديثة من الإعراب على عدم شيوعه فى اللغة العربية فى مراحلها الأولى ، على أننا لا يمكننا أن نجعل من خلو اللهجات الدارجة من الإعراب دليلا على أن الإعراب ظاهرة لم تكن موجودة فى العربية الأولى ، وقد رأينا أن اللغات السامية جميعها كانت معربة ثم زال إعرابها فى العهود التى تعاقبت على مراحلها الأولى . وقد أطال الدكتور على عبد الواحد وافى فى الرد على زميله الدكتور أنيس فى كتابه « فقه اللغة » .

وقد عرض الأستاذ إبراهيم مصطفى للموضوع نفسه ، فقرر أن الحركات دوال على معان ، بل إن فى أصول العربية الدلالة بالحركات على المعانى ، ثم هو يقول « وما كان للعرب أن يلزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها كل الحرص ، وهى لا تعمل فى تصوير المعنى شيئا . ونحن نعلم أن العربية لغة « الإيجاز » وأن العرب كانوا يتخففون ما وجد السبيل إلى ذلك ويحذفون الكلمة إذا فهمت والجملة إذا ظهر الدليل عليها والأداة إذا لم تكن الحاجة ملجئة إليها . وعنده أن الفتحة ليست علامة إعراب ولا دالة على شيء ، وإنما هى الحركة الخفيفة المستحبة عند العرب، فهى بمثابة السكون عند العامة وأما الضمة فهى علامة الإسناد وأما الكسرة فإنها علامة الإضافة . ورأى الأستاذ إبراهيم مصطفى فى دلالة الفتحة غريب ، فقد دلت المقارنات على أن الفتحة وجدت فى حالة النصب فى كثير من اللغات السامية ولم يكن هناك سبب للفتحة « المستحبة » كما سماها. ويرى الأستاذ Marcel Cohen

أن هذه القواعد المتشعبة الدقيقة وخاصة قواعد الإعراب لم تكن مراعاة إلا فى اللغة الفصيحة . أما لغة التخاطب ، فلم تكن معربة . وهو يستدل على ذلك بأن قواعد هـذا شأنها فى التشعب والدقة وصعوبة التطبيق وما تتطلبه من الانتباه وملاحظة عناصر الجملة وعلاقة بعضها ببعض ، كل هذا غير ممكن فى لغة التخاطب وإنما هو من اختصاص اللغة الفصيحة ، لغة الصفوة المهذبة . أما الأستاذ (فك) المستشرق الألمانى فيرى أن الحركات صفة من صفات العربية وسمة فى أقدم سماتها اللغوية ، والتى فقدت فى أخواتها الساميات باستثناء البابلية القديمة . وعنده أن العربية حافظت فى مختلف عصورها على هـذه الظاهرة بالرغم من ظهور اللحن واللهجات الإقليمية فى الحواضر .

وأريد الآن أن أبسط رأيا وهو أن العربية التى ورثناها ، والتى نعرف من أمرها الشىء الثابت الصحيح لا تتعدى الإسلام فى التاريخ الزمنى كثيرا . ومعنى هذا أن العربية الممثلة فى لغة التنزيل هى العربية التى نقيم عليها البحث والدرس وما العربية الجاهلية إلا شىء من هذه العربية الإسلامية ، ولا أريد أن أقول بنظرية الانتحال ففى الجاهلية أدب كثير فيه الصحيح وفيه الموضوع ولكنى لا أستطيع أن أجعل مادة للدرس والبحث ، هذه النصوص الجاهلية التى لا نعرف عن بدايتها ونهايتها كثيرا وأترك هذه النصوص الإسلامية وفى مقدمتها كتاب الله والعربية — ممثلة فى القرآن — لغة عالية سلخت من تاريخها مراحل طويلة حتى انتهت إلى هذا الشكل من الكمال . والبحث فى تاريخ القرآن يدلنا على أن لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الإقليميـة . وأريد أن أخلص إلى أن هذه اللغة العالية قد ثبت من أصول اللغة وقواعدها أنها التزمت الإعراب الذى لم يكن شائعاً ومستعملا على نحو ما التزمت به نصوص القرآن وسنأتى على إثبات هذا الرأى ومعنى هذا أن العربية فى لهجاتها المتعددة لم تكن متقيدة بهذه الضوابط الثقيلة ولكن هذه اللغة هى التى جعلت الإعراب السمة الملازمة للعربية التى أريد لها أن تكون كذلك .

والبحث فى تاريخ القرآن يدلنا على الجهود التى بذلت كى تسود لغة التنزيل فى وضوحها والتزامها الإعراب وقد أشرنا إلى خبر قراءة ابن مسعود حين سمعها عمر بن الخطاب.

وما استطاعت لغة القرآن والحديث أن تأتى على اللهجات الدارجة المحلية أوقل على العربية المستعملة السهلة التى تتخفف من قيد الضوابط الثقيل. ومن هنافالعربية شفعيةالتعبير منذ أن كانت. ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب فى كتابته ملتزمة بضوابط الإعراب ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بعناء هـذه الضوابط وربما تعدى الأمر مسألة الإعراب إلى الألفاظ نفسها. فقد يكون فى ألفاظ الثانية ما هو بعيد عن العربية وأنه قددخل فيها نتيجة اتصال العرب أنفسهم بغيرهم من الأقوام والاتصال حاصل فى كل عصر فالعرب فى أطراف الجزيرة قد تهيأ لهم أن يتاخموا أقواماغيرهم فلم تسلم بذلك سليقتهم ومن أجل ذلك حرص عمر على الأخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش وإلى مثل هذا كان يرمى عثمان من جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فينبذوا ما كان عندهم مماهو مغاير لما اتفق عليه. ولا يعدم الباحث أن يجد فى كتب التفسير والقراءات وكتب الغريب وكتب النحو من هذا الباب شيئاً كبيراً فى القراءات. ومرد ذلك أن الناس قد فطروا على أساليب فى التعبير خاصة بهم، وبذلك قرأوا. وان طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة اعتبرت فى شواذ القراءات. والشواذ من القراءات هى ما خلا تلك التى انتشرت بواسطة القارىء المشهور ابن مجاهد المتوفى سنه ٣٢٢ هـ كقراءة ابن مسعود وقراءة ابن كعب واختيار الحسن البصرى وأمثالهم وهى تعد من باب الشواذ وقد ألف غير واحد من الأقدمين فى موضوع الشواذ كالعكبرى فى كتابه اعراب القراءات الشاذه والأهوازى وابن عطيه والمهدى ولم نعرف مؤلفات هؤلاء ولم يصل إلينا منها شىء كما اندثر كتاب اللوامع فى القراءات وكتاب المحتوى للدانى.

ومن أمثال هذه الشواذ التى لاتدل إلا على اللهجات الدارجة أو اللجهات الإقليمية مما جاء من شواذ سورة الفاتحة.

قرأ أبو السوار الغنوى « هياك » بالهاء المكسورة فى الآية الخامسه « إياك نعبد »

وقد قرأ عمرو بن فايد « إياكِ » بالتخفيف ، وقرأ جناح بن حيش « نستعين » بكسر النون .

وجاء فى شواذ البقرة : قرأ يحى بن وثاب « ولا تقربا هذه الشجرة » بكسر الشين وبالياء حكاه أبو زيد . وقراءة الشجرة بإبدال الياء فى الجيم إثبات للهجة من اللهجات التى تلتزم هذه الإبدال الذى ما زال حاصلا فى لهجات القرويين فى جنوب العراق وقد قرأ « بين المرّ وزوجه » بدون همزة مع تشديد الراء .

وقراءة مسلمة بن محارب « بعولهن » فى قوله تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن » بجزم التاء ومعلوم أن « البعولة » جمع « بعل » كما أن « السهولة » جمع « سهل » وعندى أن اختلاف القوم فى صيغ الجموع راجع إلى اللهجات الإقليمية ومعنى ذلك أن كل قبيلة ألفت صيغة من صيغ الجمع لاسم معين فى حين أن القبيلة الأخرى ألفت صيغة أخرى .

وجاء فى سورة المائدة قراءة بعضهم « لعبا » بكسر اللام وإسكان العين فى قوله تعالى « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا » .

وجاء فى شواذ سورة الأعراف « الجمل » فى قوله تعالى : « حتى يلج الجمل فى سم الخياط » بضم الجيم وتشديد الميم وفتحها وهى قراءة ابن عباس ، ومعلوم أن صيغة (فعل) من صيغ جموع التكسير بضم الفاء وفتح العين وتشديدها ، لا يكون مفردها إلا فاعلا مثل « راكع » فى حين أن مفرد (جمل) هو «الجمل» بضم فإسكان ومعناه الحبل ، وقد قرأ أبو السمال (الجمل) بفتح الجيم وإسكان الميم .

ومن شواذ سورة طه قراءة عكرمه « أهس » بالسين في قوله تعالى : « أهس بها على غنمى » .

ومن شواذ سورة الأنبياء قراءة ابن عباس « حضب » بالضاد فى قوله تعالى : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» وقرىء « حصب » بإسكان الصاد، وقرىء « حطب » بالطاء .

ومن شواذ سورة الحج جاء فى كلمة «صلوات » إحدى عشرة قراءة فى قوله تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » .

والقراءات هى « صلوات » بفتحتين وهى « صلوات» بضمتين على قراءة أبى العالية والكلبى والضحاك و « صلوات » بضم فإسكان على قراءة جعفر بن محمد وهى (صلون) بضم الصاد فلام فواو ونون و (صلوب) بالباء و (صلوت) بفتح فإسكان ، و (صلواث) بضم الصاد وأسكان اللام وثاء مثلثة فى الآخر مع ألف الإطلاق . والكلمة جمع صلاة وهى تعنى الكنيسة والكلمة سريانية بخلاف ماذهب إليه الزمخشرى فى أنها عبرانية وتذييل الكلمة بالألف بقصد التعريف ولعل صيغ جموع التكسير يمكن أن ترد إلى صيغ محدودة ، وذلك أن بعضا منها يحصل فى صيغة أخرى باستخدام المدمثلا . فكلمة (تارة) تجمع على (تير) ولكنها تصبح (تيار) بإطلاق الفتحة . وهذا يدل على أن صيغ جموع التكسير وصيرورتها على هذه الكثرة ناتج عن اللهجات الإقليمية إذ من المعلوم أن إقليما من الأقاليم يطيل فى الحركات حتى تصبح مدا ، ومن هذه أيضاً «أسد» بضم الهمزة وإسكان السين أو ضمها فإذا أشبع الضم على السين صار مدا وصارت الكلمة (أسود) مثل هذا (أحبة) و (أحباء) وكثير غيره .

ويدلنا على إشارة هذه الصيغ إلى موضوع اللهجات مايوجد فى اللغة الحبشية من صيغ جموع التكسير ولادلتها على الموضوع نفسه .

ونستطيع أن نوجز أن القراءات فى القرآن تقوم على تغيير فى الحركات وتغيير فى الأبنيه والصيغ وتغيير فى الأصوات وتغيير فى الألفاظ ومجموع هذا يدل على أن طرق التعبير الخاصة وجدت طريقها إلى لغة التنزيل ، ولم تجد فى ذلك جهود التوحيد . والقراء يختلفون حتى فى موضوع الإعراب الذى التزمه جميعهم ، فهذا يرفع ماينصبه ذاك وذاك يخفض ما يرفعه هذا . وقد حمل هذا على أنه خطأ من كتاب الوحى فقد روى أبو معاوية محمد بن حازم التميمى السعدى المتوفى سنة ١٩٣ هـ . عن هشام بن عروة بن الزبير المتوفى سنة ١٤٦ هـ . عن أبيه عن عائشه أنها قالت : ثلاثة أحرف فى كتاب الله هن من خطإ الكاتب وهى قوله تعالى : « إن هذان لساحران » وفى قوله تعالى : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاه والمؤتون الزكاة » وفى قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبون » وقد حقق النحويون فى حديث عائشة حول غلط الكاتب وحديث عثمان فى قوله : « أرى فيه لحنا » فاعتلوا لكل حرف منها ، واستشهدوا الشعر فقالوا فى « إن هذان لساحران » هى لغة بلحادث بن كعب ، فهم يقولون :« مررت برجلان » و « قبضت منه درهمان » و (جلست بين يداه) و (ركبت علاه) وأنشدوا لهوبر الحارثى :

تزود منا بين أذناه ضربة ... دعته إلى هابى التراب عقيم

كما اعتلوا لسائر المواضع السابقة علة مناسبة .

وشيوع اللحن فى مختلف الطبقات دليل على أن هذا الإعراب ثقيل لا تحمله سليقه العرب اللغوية ، وكان ذلك فى صدر الإسلام وقبل أن يتم اختلاط العرب بغيرهم ذلك الاختلاط العظيم الذى كان فى العصور المتأخرة ثم إن شيوع اللحن لم تسلم منه طبقة المثقفين ولا العلية من القوم ولا العلماء ، فلم تسلم لهشيم بن بشير محدث أهل العراق سليقته اللغوية ، فكان يلحن فى كلامه ويشير الجاحظ إلى مخالفته المحدثين ما التزام من قواعد الإعراب .

وكان عبد الملك بن مروان يحذر أبناءه من اللحن ، وكان يقول لهم : « إن اللحن فى منطق الشريف أقبح من آثار الجدرى فى الوجه وأقبح من الشق فى ثوب نفيس » .

وشيوع اللحن فى زمان عمر بن الخطاب معروف، فقد روى أن عمر سمع أعرابياً يقرأ قوله تعالى : « إن الله برىء من المشركين ورسوله » بجر رسوله فنبهه على الخطإ ، وكان ذلك سبباً فى وضع النحو إن صحت الأخبار .

والأخبار فى وضع النحو كثيرة لا مجال لذكرها هنا ، ولكنها فى مجموعها تشير إلى أن اللحن فى هذه الفترة المتقدمة كان شائعا . وشيوعه فى قراءة القرآن مما عجل فى وضع هذه الضوابط النحوية للحفاظ على لغة التنزيل من العبث . وشيوع اللحن دليل أيضاً على أن للقوم لغة يتخففون فيها من الضوابط الثقيلة وهى اللغة المستعملة وهى لغة الكثير من الناس ولغة التخاطب فى الحياة اليومية .

على أن هذه اللغة العامة التى استعملها الناس لم تكن بعيدة عن لغة الكتابة فى مادتها اللغوية ، وكأن من شرط هذه اللغة مجانبة الإعراب . وإلى هذا يشير الجاحظ فى قوله : « وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا أننا تركنا ذلك ، لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن هذه إلا أن احكى كلاما من كلام متعاقلى البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه » .

والمشكلة اللغوية قائمة فى عصرنا كما أسلفنا ، وذلك لأن العربية الفصيحة المكتوبة هى غير العربية المستعملة فى التخاطب وغير اللهجات الدارجة التى لم ترق إلى لغة المثقفين فى مادتها وهى من نماذج متأخرة متدهورة ، وليس قيام المشكلة على هذا الوجه بمستحيل الحل . فشيوع الثقافة وتيسير المعرفة لأبناء العربية على شكل عام كفيل برفع مستوى اللغة إلى الحد الذى كانت عليه العربية فى مختلف عصورها ، فلم يسلم عصر من عصور التاريخ اللغوى من ازدواج فى اللغة ، وقد شاهد علماء اللغة العربية

الأقدمون مثل الخليل بن أحمد وسيبويه والكسائى وعيسى بن عمر وغيرهم لغة عامية يستعملها جمهور الناس ، ولقد أثر عن الكسائى أنه وضع رسالة فى لحن العامة . ولغة العامة غير لغة العلية فقد ذكر إبو هلال العسكرى : إن العامى إذا كلمته بكلام العلية سخر منك وزرى عليك ، كما روى عن بعضهم أنه قال لبعض العامة : بم كنتم تنتقلون البارحة ؟ فقال : « بالحمالين » ولو قال له : « ايش كان نقلكم لسلم من سخريته . فينبغى أن يخاطب كل فريق بما يعرفون » .

وربما كانت العامية الدارجة قريبة من الفصيحة لغة الكتابة ، وذلك بسلامة أبنيتها وبتخير ألفاظها الصحاح فى العربية ، ولكنها متحللة من ضوابط الإعراب ، فالمتكلمون بها يلتزمون الإسكان فى جميع صورها ، وهذا ما نصبو إليه فى تقريب العامية من الفصيح وسبيل هذا كما أسلفنا نشر المعرفة بين الناس والزمان كفيل بتحقيق هذا .

الفصل السادس

في تاريخ المشكلة اللغوية

للغة تاريخ نتبين فيه أصل اللغة ونشوءها وتطورها والمراحل التى قطعتها فى عمرها الطويل حتى نصل فى هذا البحث إلى ما آلت إليه فى عصرنا الحاضر ، كما أن لسائر العلوم تاريخاً نهتدى فيه للأصول التي قامت عليها تلك العلوم ، لسائر المراحل التى مرت عليها . والبحث فى العربية يؤدى بنا إلى التزام الناحيةالتاريخية وإذا قلت : إن اللغة العربية بدع بين اللغات فلأرانى أعدو الصواب كثيراً ، ذلك أننا لا نعرف تاريخ هذه اللغة فى مراحلها الأولى إذ ليس من المعقول أن هذه اللغة بدأت بهذه النصوص الشعرية الجاهلية . فهذه النصوص الجاهلية تقدم للباحث نماذج عاليةمن العربية ، وهذه النماذج لا يمكن أن تكون بأى حال من الأحوال من البدايات فى اللغة ، فلابد أن تكون العربيةقدقطعت قبلهذه النصوصمراحل أخرى فى تاريخها لم تكن فيها على هذا المستوى العالى من حيثقدرة اللغة على أداء المعانى ومن توفر المادة العربية للتعبير عن النواحى المادية وانصرافها إلى المعنويات من الأمور توسعاً ومجازاً . ولا أريد أن أخوض فى موضوع الصحيح والمنحولمن هذه النصوص ، فليس ذلك بضائرقيمةالنصوصاللغوية ، وأنها صورة للحياة الجاهلية ذلكأن وجود المنحول منهذه النصوصلايمنع من وجودالصحيح ونسبته إلى قائليه .

ولا بد أن نبين أن الآثار الأدبية فىالعصرالجاهلى شعرية فى الغالب ، والنثرية منها قليلة جداً وهى إنوجدت .فلايصحالاطمئنان إليها .وإلىهذاذهب الكثيرون من الذين عنوا بتاريخ الأدب الجاهلى .

ولا أريد أن أخضع الأمثال القديمة الجاهلية للمادة التي لا يطمأن إليها .

فالأمثال — على أنها نثرية — لا نستطيع أن نعدها من النثر العالى الذى يقصد إليه الباحثون فى تاريخ الأدب . ذلك أنها مادة شعبية تعكس التجارب التى مرت بها المجتمعات القديمة . فالأمثال تعرض لأية أمة من الأمم ولا سيما البدائية منها .

على أن الباحث فى النصوص الشعرية الجاهلية واجد فيها من عيوب النظم شيئاً لا يجده فى النصوص الشعرية فى العهود الإسلامية ، وهذه العيوب تتعلق بالحفاظ على الوزن فى الشعر .

وهذه الظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا بالمناسية التاريخية ، وأعنى بذلك أن هذه النصوص لم تكتمل موسيقاها وأنها مرحلة من مراحل التطور الفنى من حيث المبنى فى القصيدة العربية ، وأنت واجد هذا الخروج عن ضوابط الوزن عند سائر الشعراء الجاهليين . فدونك معلقة امرىء القيس لتجد فيها قوله :

إذا قامتا تضوع المسك منهما　　　نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها　　　لدى الستر إلا لبسة المتفضل

وقوله :

أصاح ترى برقاً أريك وميضه　　　كلمع اليدين فى حبى مكلل

وقوله :

فعدت له وصحبتي بين ضارج　　　وبين العذيب بعد ما متأملى

وأنت واجد شيئاً من هذه المخالفات فى شعر طرفة بن العبد كقوله :

كأن البرين والدماليج علقت　　　على عشر أو خروع لم يخضر

وقوله :

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه　　　فإن القرين بالمقارن مقتد

ومنه ما جاء فى قصيدة زهير ، كقوله :

رعوا مارعوا ظمئهم ثم أوردوا　　　غماراً تفرى بالسلاح وبالدم

وهذه هى السمات البارزة فى القصيدة الجاهلية، وربما كان منه فى شعر المخضرمين من الشعراء ، وهو من غير شك دليل على أن القصيدة العربية الجاهلية فى طور التكوين من الناحية الفنية Tehrique وأنها منتقلة من مرحلة إلى أخرى وفى كل مرحلة من هذه المراحل تستفيد شيئاً لاستكمال عناصرها الفنية .

ولم يؤثر عن الجاهليين نصوص نثرية كثيرة كما هى الحال فى الشعر ، وسبب ذلك معروف عند الباحثين فى تاريخ الأدب الجاهلى ، وليس من غرضنا فى هذه المقالة أن نعرض لهذا الموضوع . على أنه لا بد أن نقرر أن أمة تتسع لغتها لهذه النصوص النثرية التي نفترض وجودها لم تصل إلينا . فالباحث فى النثر العربى مضطرأن أن يبتدىء بالقرآن الكريم ويعد نصوص القرآن بداية هذا اللون الأدبى من الناحية الواقعية ، وهو مضطر أيضاً أن يفترض أن النثر العربى لا بد أن يكون قد مر بمراحل تاريخية .

ولغة القرآن وأسلوبه يطلعان الباحث على مستوى رفيع من حيث المبنى وغزارة المادة اللغوية ، ومن حيث قدرة هذه القوالب اللفظية على الإعراب عن دقائق المعنى ، وخواطر الفكر ، ولعل هذا كان السر الذى حدا بالباحثين إلى القول بالإعجاز فى القرآن .

والبحث فى تاريخ القرآن يدلنا على أن لغة القرآن قد طبعت العربية بطابع واضح مبين وقضت بذلك على آثار اللهجات الإقليمية . وأطلعت المجتمع العربى الإسلامى الأول على نموذج عال لهذه اللغة . فأخذوا بها . وفى القرآن ينكشف الستار عن عالم فكرى تحت شعار التوحيد لأول مرة فى تاريخ اللغة العربية . بحيث لا تعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة إلا نموذجاً ضعيفاً له .

من حيث ظاهر وسائل الأسلوب ، ومسالك المجاز والدلالة . إلى مثل هذا ذهب المستشرق الفرنسى الكبير (ريجيس بلاشير) فى محاضرة له ، فهو يقول : ومنذ ظهر الإسلام لم تعد اللغة العربية آلة عادية للكلام والتخاطب ، ولا لغة إنسانية محضة بل شيئاً آخر نعم لن نفهم جوهر العربية وكيانها . بل لن نستطيع لها فهماً إن نحن أهملنا أهمية هذا « الحدث القرآنى » هذا الحدث الذى بفضله تجاوزت اللغة حدود الإنسانية المحضة .

والبحث فى تاريخ العربية يدلنا على الجهود التى بذلت كى تسود لغة التنزيل فى وضوحها والتزامها الإعراب . ولتكون لغة عامة لا أثر فيها للغات الخاصة التى اعتاد كل طائفة منهم استعمالها والقراءة بها فقد ورد أن عمر بن الخطاب قد سمع رجلا يقرأ (عتى حين) فى قوله تعالى : (ليسجننه حتى حين) ؛ فقال من اقرأك ؟ قال ؛ ابن مسعود فكتب إليه : إن الله أنزل هذا القرآن عربياً ، وأنزله بلغة قريش ، فأقرىء الناس بلغة قريش : ولا تقرئهم بلغة هذيل .

وما استطاعت لغة القرآن والحديث أن تأتى على اللهجات الدارجة المحلية أو قل على العربية المستعملة السهلة والتى تخففت من قيود الضوابط الإعرابية الثقيلة ، ومن هنا فالعربية شفعية التعبير منذ أن كانت ذلك بأن فيها لغة فصيحة يتوخاها الكاتب فى كتابته ، وهى ملتزمة بضوابط الإعراب ولغة أخرى يقولها الناس ويستعملونها دون أن يلزموا أنفسهم بعناء هذه الضوابط وربما تعدى الأمر مسألة الإعراب إلى مسألة الألفاظ نفسها فقد يكون فى ألفاظ الثانية ماهو بعيد عن العربية وأنه قد دخل فيها نتيجة اتصال العرب أنفسهم بغيرهم من الأقوام . والاتصال حاصل فى كل عصر فقد تهيأ للعرب فى أطراف شبه الجزيرة العربية أن يتاخموا أقواماً غيرهم فلم تسلم بذلك سليقتهم ومن أجل ذلك حرص عمر على الأخذ بقراءة تعتمد على لغة قريش ، وإلى مثل هذا كان يرمى عثمان فى جمعه القرآن ليكون المسلمون مجتمعين على قراءة واحدة فنبذوا ما كان عندهم مما هو مغاير لما اتفق عليه .

ولا يعدم الباحث أن يجد فى كتب التفاسير والقراءات وكتب الغريب وكتب

النحو فى هذا الباب شيئاً كثيراً من القراءات ومرد ذلك أن الناس قد اعتادوا على أساليب فى التعبير خاصة بهم، وبذلك قرأوا، وإن طائفة كبيرة من هذه القراءات الخاصة قد اعتبرت من شواذ القراءات . ونتبين من البحث فى لغة القرآن أن هذا الحدث القرآنى العظيم قد عمل على توحيد العربية وطبعها بطابع خاص فيه الشمول وفيه العموم بحيث تيسر لهذه اللغة أن تكون لغة العرب عامة وأنها تغلبت على الكثير من معالم اللهجات السائرة .

ووجود اللهجات السائرة وتنصلها عن التمسك بقيود الإعراب دليل على ظهور مرحلة جديدة فى تاريخ العربية أوشكت أن تعم لولا ما كان من أمر لغة التنزيل . وفى هذه المرحلة الجديدة تخففت العربية من ضوابط الإعراب .

على أن المعلومات التى بين أيدينا عن اللهجات الخاصة لا تتعدى الإشارات الموجزة والعلامات التى لا تعدو أن تكون ملاحظات لا تكون فى مجموعها مادة كافية لرسم صورة للهجة من اللهجات فى بداية القرن الأول الهجرى ذلك أن النحويين واللغويين قد جمعوا هذه الملاحظات منذ أن بدأوا فى تثبيت قواعد العربية وظلت هذه ملاحظات تتناقل من جيل إلى جيل دون تصنيف وضبط بحيث لا نستطيع أن ننسب على وجه التحديد أية إشارة من هذه الإشارات اللغوية إلى أصحابها، والأمثال كثيرة للبرهنة على ترددهم وعدم تحريهم وجه الصواب من هذه الإشارات بحيث يبدو فيها للباحث أثر الاصطناع والكذب والتقليد فقد جاء فى كتب الأدب قول هوبر الحارثى:

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هابى التراب عقيم

وفى البيت التزام المثنى الألف فى جميع الأحوال، وهى لغة بنى الحارث بن كعب وهى عند هؤلاء قلب الياء الساكنة إذا انفتح ما قبلها ألفا فيقولون : أخذت الدرهمان، واشتريت ثوبان، وفى هذه اللغة أن ألف حرفى الجر (إلى) و(على) تبقى على حالها إذا كان مدخولها ضمير غائب أو مخاطب، كما جاء فى النوادر لأبى زيد الأنصارى، أن المفضل الضبى ذكر لبعض أهل اليمن قوله :

أى قلوص راكب تراها طارو علاهن فطر علاها

ولم ينسب السيوطى هذه اللغة لبنى الحارث بن كعب وحدهم فقد عزاها لبنى العنبر وبنى الجهم وبطون من ربيعة وبكر بن وائل وزبيد وخثعم وهمدان ومزدادة وغدرة .

وهذه الإشارات لاتتجاوز مسائل الإبدال والقلب وسائر الحركات ومايتعلق بشىء قليل من الأمور الصوتية ولم يعدها بعضهم من المستساغ المقبول ، فالسيوطى يحشرها فى باب (الردىء المذموم من اللغات) كالكشكشة والكسكسة والتلتلة والعنعنة والفحفحة والعجعجة وغيرها . كما أنها غير منسوبة نسبة صحيحة كما أشرنا . فالعنعنة لغة قيس وتميم عند السيوطى ، وهى تعرض فى لغة قضاعة عند الثعالبى وفى لسان العرب غير هذا .

وإذا كانت هذه اللهجات لا تعطى إلا صورة شوهاء غير كاملة لمرحلة لغوية من تاريخ العربية، فهل لنا أن نجد ذلك فى تاريخ اللهجات العربية الجنوبية كالمعينية والحميرية والسبئية أو فى اللحيانية والثمودية والصفوية والنبطية ؟ والجواب عن هذا السؤال إن بين هذه اللهجات جميعها وبين العربية الفصيحة كما عرفناها فى لغة القرآن أو فى لغة ما صح من النصوص الجاهلية فروقا بعيدة ، ومن ذلك أنه ليس المعقول اتخاذ أية لهجة من هذه اللهجات صورة للعربية الاولى ، أو صورة للمرحلة التى سبقت الفصيحة المعروفة فى لغة القرن الأول الهجرى . ونحن نطرق هذا السبيل لعدم توفر النصوص الصحيحة المدونة فى هــذه المرحلة اللغوية التى تنشدها . ثم إننا نجرب هذه التجربة لأن بين أيدينا فى هذه اللهجات نصوصا مكتوبة وهى النقوش مكتوبة بالآرامية وهى اللغة الثقافية كما هى الحال فى النقوش النبطية فقد كتب النبط نقوشهم بالإرامية وإن كانت لغتهم عربية .

ويتبين من هذا العرض أن المواد الضرورية لم تتوفر لنا لمعرفة المرحلة اللغوية التى سبقت عصر القرآن ، فلا بد إذن أن نسلك سبيلا آخر للوصول إلى شىء

مما نصبو إليه ، وذلك بالرجوع إلى نصوص العربية المثبتة فى كتب اللغة والأدب والنحو ونستقرئها استقراءاً دقيقاً لنخلص إلى موضوعات نؤلف منها مادة لغوية اتصفت بها المرحلة السابقة لعصر القرآن .

وهذه المادة اللغوية تشتمل على معلومات تتعلق بالأبنية والصيغ والأوزان كما تتعلق بمسائل خاصة ببناء الكلمة العربية وكيف توفر لبنية هذه الكلمة الانسجام والتكافؤ الموسيقى ، ولنعرض الآن لهذه المسائل .

١ — الابتداء :

والذى نلاحظه أن العربية لا تستسيغ الابتداء بالساكن من الحروف ولذلك قرر الخليل بن أحمد أن « حرف اللسان لا ينطلق بالساكن من الحروف » والعربية لا تجيز هذا كما أجازت ذلك اللغات الأجنبية الكثيرة ، ولهذا يستعان بالهمزة المفتوحة للتوصل إلى النطق بالساكن متخذة وسيلة أو قل معبراً إلى هذا الساكن من الحروف ليظهر فى سكونه .

وكان يقول — بعد تمثيله للخماسى من الأفعال : — « و الألف التى فى اسحنكك واقشعر واسحنفر واسبكر ليست فى أصل البناء ، وإنما أدخلت هذه الألفات فى الأفعال وأمثالها فى الكلام لتكون عمادا وسلما للسان إلى الحرف الساكن » .

وسأل الخليل جماعة فقال : كيف تلفظون بالحرف الساكن ، نحو ياء غلامى وباءا ضرب ودال قد ؟ فقالوا له . نقول ياء وباء ودال . فلم تعجبه إجابتهم ، لأنهم إنما لفظوا بالاسم ولم يلفظوا بالحرف ولم يتلوه . كما هو فى غلامى واضرب وقد . فقال لهم . : أقول ، إب واى واد ، فألحق ألفاً موصولة . قال : كذلك أراهم صنعوا بالساكن ألا تراهم قالوا : ابن واسم حيث أسكنوا الباء والسين ، وأنت لا تستطيع

أن تتكلم بساكن فى أول الاسم كما لاتصل إلى اللفظ بهذه السواكن فألحقت ألفاً حتى وصلت إلى اللفظ بها فكذلك هذه الألفاظ حتى تصل إلى اللفظ بها كما ألحقت المسكن الأول فى الاسم .

والكلمة العربية اتصفت بالتكافؤ والانسجام بين أجزائها فى الحركات والأصوات ، ومن أجل ذلك يؤتى بالهمزة التى يستعان بها على النطق بالساكن مكسورة أو مفتوحة أو مضمومة إذا كان الحرف الذى يلى الساكن مضموما مثل استنصر واعترف فتنضم الهمزة . ليتماثل الصوت ويكون العمل فيهما على وجه واحد .

والذى أريد ملاحظته فى هذا الباب هو القول بأن المرحلة السابقة لهذه العربية الفصيحة كانت تجيز الابتداء بالساكن والذى يقوى هذا الافتراض عندى قولهم إن أمر الثلاثى فى العربية همزته همزة وصل والناطق المجيد لهذه البنية لايحس بهذه الهمزة ، فلسانه ينطلق بالضاد فى كلمة اضرب (الأمر) قبل أن ينطلق بشىء اسمه الوصل ، وإجادة النطق تستدعى محو هذه الألف إطلاقاً . وعلى هذا جاء نطق المغاربة فى أيامنا هذه فهم ينطلقون بالساكن فى أفعال الأمر الثلاثية ، ومن أجل ذلك فإن ماندعوه بالنبر « Accent Tonique » يكون عندهم واقعا فى نهاية الكلمة .

ومثل هذا ننطق بالساكن إذا بدأنا بالأسماء التى نصوا على أن ألفاتها للوصل كما فى (ابن) و (اسم) فأنت تنطق بالساكن أو بشىء فيه سكون أو بنصف الساكن إن أسعفتنا لغة الاصطلاح . حتى يتم النطق بالكلمة على الوجه اللازم .

ووجود هذه الناحية ربما كان دليلا على الابتداء بالساكن فى العربية التى سبقت هذه المرحلة الفصيحة كما يقوى هذا القول استساغة الانطلاق بالساكن فى سائر

اللغات السامية الأخرى بل ربما كانت الآرامية السريانية أشد قبولا للبدء بالساكن من التحرك ، ومن أجل ذلك صارت هذه الناحية من ميزاتها الظاهرة .

٢ — التقاء الساكنين :

اختصت العربية من بين سائر اللغات السامية بهذه الناحية مراعاة منها للتكافؤ والانسجام فى بنية الكلمة الواحدة وفى اتصال الكلمة بغيرها حتى يجىء الكلام العربى على هيئة مخصوصة موسيقية منسجمة .

على أن الباحث فى غرائب العربية وفرائدها واجد فى هذا الباب شيئاً وهو قليل جداً وقلته ذات دلالة خاصة فهو يشير إلى وجود التقاء الساكنين فى تلك المرحلة اللغوية السابقة للمرحلة المعروفة ، وإلا فكيف نعلل وجود الساكنين فى كلمتى (حمارة) و (صبارة) فى قولهم . حمارة القيظ وصبارة القر ، ومثل هذا ماحدث فى التقاء الساكنين فى أسماء الفاعلين فى الأفعال الثلاثية المضعفة مثل(حال) و (ماد) ؛ ذلك أن العربية توجب الإدغام فى هذه الألفاظ ووجوب الإدغام يستدعى التقاء الساكنين ، والذى أراه أن فى العرب من كان يجيز فك الإدغام مخالفة للقياس المعروف ومطاوعة منه لسنن العربية التى لاتحتمل التقاء الساكنين فكان يفك الإدغام فى هذه الألفاظ وعلى هذا جاء قول المتبنى : —

فلا يبرم الأمر الذى هو حالل   إلى آخر البيت . .

وليس معقولا أن يحمل هذا على تخطئة المتبنى ، فقد كان عالما بشوارد اللغة والنحو فلا يجوز أن يكون جاهلا بهذا ثم إنه لم يلجأ إلى ضرورة شعرية فقد كان فى طوقه أن يتحاشىء هذه الضرورة — إن صحت — باستعمال مرادفة لكلمة حال (حال) وذلك كثير ميسور أما الذى سوغ له استعمال الكلمة — احتمال فك هذا الادغام فى لغة من لغات الناس فى ذلك الزمان هروبا من التقاء الساكنين كما هى الحال فى أيامنا هذه فى لغتنا العامية الدارجة فهناك من يلتزم إدغام هذه الألفاظ محتملا

التقاء الساكنين كما أن هناك من يلجأ إلى فك الإدغام هروباً وتخلصاً فيقول مثلا (دازز) و (شادد) بدلا من (داز) و (شاد) .

وقد هربت العربية من احتمال التقاء والساكنين في بنية الكلمة الواحدة الثلاثية الساكنة العين . إذ يلتقي فيها ساكنان العين واللام لأن أواخر الكلمة سواكن إذا لم تدخل هذه الكلمات فى جمل أو إذا وقف عليها كما تقول (نخذ) بإسكان الخاء فى (نخذ) وفى (الاقتضاب) جواز تخفيف عين (فعـــل) مضموم العين ومكسورها.

وفى المحتسب لابن جنى: وماسمع فيه (فعل) بضم الفاء وإسكان العين إلاوسمع فيه (فعل) بضم الفاء والعين . ومنه إسكانهم نحو (رسل)و (عجز)و (عضد) و (كتف) و (كبد) .

والحكمة فى هذا التحريك هو الهروب من التقاء الساكنين كما بيناه . على أننا نجد مثل هذا فى لهجتنا العامية البغدادية فى الأسماء الثلاثية التى نضطر إلى تحريك عينها بحركة مناسبة هروباً من التقاء الساكنين فنقول (فعل) بكسر العين مجاراة لكسرة الفاء ولالتقاء الساكنين كما فى (اسم) و (عجل) ونقول (تمر) الميم و(قبر) بضم الباء ولن تجد من يقول (سعر)و(شعر) بإسكان العين فيها . والسبب فى ذلك ما بيناه لأننا لو رجعنا إلى نطق هذه الكلمات فى لهجة عامية أخرى ولتكن اللجهة المصرية لوجدنا المصريين ينطقون هذه جميعاً بإسكان العين احتمالا منهم لالتقاء الساكنين

واذا أردنا استقراء النصوص الفصيحة وجدنا هذه الناحية فى الأفعال المضعفة المزيدة بثلاثة أحرف كما فى أوزان (افعال) مثل (احمار) وهذه الأفعال قليلة وقلتها تشير إلى أنها من بقايا المرحلة السابقة اللغوية التى أشرنا إليها . فهذه الصفة قديمة وهى دالة على المبالغة ،وهى ثقيلة لوجود الساكنين ، ثم تخففت فى الاستعمال لخضعت لسنة العربية الفصيحة فى المرحلة اللاحقة فاستحالت إلى (أحمر) وهى فى المعنى نفسه

والمبالغة حاصلة فيها . وليس كما علل الصرفيون بأن المبالغة فى الأولى أكثر . ومن هذا قولهم : غار الطائر فرخة ، بتشديد الراء فى (غار) ففى هذا الفعل قد التقى الساكنان ومنه أيضاً (غارت الناقة فى الحلب) وما قلناه فى (احمار) و (احمر) يصدق على قولهم (غار) فقد تخفف هذا الفعل حتى لجأ الاستعمال إلى (غر) الثلاثى المضعف وفى ذلك كفاية وغناء .

٣ — إبدال أحد التضعيفين بالياء :

وما زلنا نحمل على الخطإ أو على طريقة العوام فى لهجتهم الدارجة قولهم (استمريت) بإسناد الفعل المضعف إلى تاء الفاعل وفى العربية الفصيحة شىء من هذا وهو قليل . ولعل قلته راجعة إلى أنه من البقايا اللغوية القديمة التى تشير إلى مرحلة لغوية قديمة قد سبقت الفصيح المعروف والممثل فى لغة التنزيل والحديث . وإلى هذا ذهب المبرد فى شرح كلمة (التقضى) فى قول العجاج :

تقضى البازى إذا البازى كسر

والتقضى هو الانقضاض والعرب تبدل الياء فى أحد التضعيفين فيقولون (تظنيت) والأصل (تظننت) لأنه من الظن . ومنه (قصصت) و (قصيت) . والمستقرىء للنصوص اللغوية واجد من هذا الموضوع شيئا يصلح أن يكون مادة مفيدة للبحث

٤ — اسم المفعول : —

فى اسم المفعول من الفعل الثلاثى الأجوف فذلكة لغوية فنقول : (مبيع) من (باع) ومصون من (صان) وهذه الفذلكة داخلة فى باب الإعلال وليس بنا حاجة لشرحه فى هذا المقام . وإنما نريد أن نقول : إن لهجاتنا الحديثة الدارجة لا تلجأ إلى هذا الإعلال . بل تصوغه على وزن مفعول فنقول (مبيوع) وهذه الصفة واردة فى الفصيح من العربية ولكنها مسموعة وسماعها يخالف القياس المشهور وهو دليل على أنه من البقايا اللغوية القديمة التى تتسم بها المرحلة السابقة التى أشرنا إليها .

وقد جاءمن هذا الباب (مصوون) و (مقوود) و (معوود) . وفى القاموس أسعده فهو مسعود . وأكمدة فهو مكمود . وألقح الفحل الناقة فهى (ملقوحة) . وهذه الأمثلة تشير إلى أن وزن (مفعول) هو أصل فى صيغة اسم المفعول ولا يختص بهذه الصيغة الفعل الثلاثى . ولعل فى هذه الأمثلة دليلا على قدم هذه الصيغة فى مراحل اللغة الأولى .

٥ — مطل الحـركات :

أفرد ابن جنى فى كتاب الخصائص فصلا لموضوع مطل الحركات والمراد بمطل الحركات مد الحركات ، وقد استفادت العربية من هذا المد كثيرا فى تنويع الصيغ وتـكثير المعانى . فقد مدت ضمة العين فى المضارع كما فى (ينبع) فصار (ينبوع) ومثل هذا (يحمور) و (يخضور) و (يعفور) وقد انتقلت هذه الصيغ فى العربية إلى الاسمية وهو كثير فى اللغة . على أنه لا تخفى الصلة فى هذه الألفاظ بين الفعلية والاسمية ، فعلاقة اللون واضحة وربما هى التى سوغت هذا الانتقال اللغوى. ونستطيع أن نفترض أن يكون أصل الفعل المضارع فى مرحلة لغوية قديمة على هذا الشكل . ومعلوم أن بين الاسم والفعل الضارع شبه ولهذا سمى بالمضارع لأنه مضارع للاسم المعرب . والتسمية بالأفعال المضارعة قديمة جداً فقد عرف و(يعوق) من آلهة اليمن

ومما يتعلق بباب مطل الحركات كلمة (اليمقيد) وهو العسل يعقد بالنار حتى يختر . وقيل طعام يعقد بالعسل . ومنه اليعضيد وهى بقلة زهرها أشد صفرة من الورس وقيل غير هذا .

ونستطيع أن نرد فاعول إلى مطل الحركات فالعمود لا بد أن كان (عامود) ثم خفف إلى (عمود) وليس لنا أن نحمل العامود على الـكلام العامى فمثله الشاقول والناعور وكثير من أسماء الأدوات .

وفى كتب اللغة نصوص تشهد على هذا الباب فقد أنشد أبو على الفارسى لابن

هرمة يرثى ابنه : من قـــوله :

فأنت من الغوائل حين ترمى ومن ذم الرجال بمنتزاع

وأراد بمنتزع .

وهذه المواد تعطينا بعض الشيء عن خصائص العربية القديمة قبل أن تتوحد وتنسجم فى قالبها المعروف الفصيح .

٦ — صيغ الفعل المجرد :

المعروف عند المصرفيين أنهم صنفوا الأفعال الثلاثية فى ستة أوزان ورتبوها حسب ورودها فى الكثرة غير أن الناظر فى النصوص وفى كتب اللغة يجد فيها شيئا يؤدى به إلى الاعتقاد أن هذه الأفعال لم تكن مستقرة ولاسيما فى القرن الأول الهجرى وأن فعلا من الأفعال مثلا قد يكون على الوزن الأول (باب نصر) عند قوم من الناس . ولكن من (باب ضرب) عند آخرين . وبقى هذا التردد فى اعتبار وزن الفعل طوال القرن الأول والقرن الثانى . حتى إذا تم تثبيت قواعد اللغة . استقرت هذه الأفعال على حال ثابتة ولا سيما الأفعال التى يكثر تداولها فى التخاطب والكتابه على الأقل .

ولقد ورد شيء من هذا الذى نذهب إليه على ألسنة علماء اللغة . فقد قال أبو زيد الأنصارى : إذا جاوزت المشاهير من الأفعال فأنت بالخيار بين الضم والكسر وقال القراء : الأصل فى المضارع الكسر.

وهذا التردد فى معرفه الأوزان وضبطها وتثبيتها قدتم فى لغة القرآن بالرغم من أن كتب اللغة ظلت تذكر اللغات المختلفة فى وزن الأفعال التى اختلفوا فيها . فقد قالوا فى (فسد) هو من باب نصر عند قوم ، وهو من باب (كرم) على رأى آخرين . وهذه الحال تدل على أن الأفعال الثلاثية فى المرحلة السابقة لعصر القرآن لم تكن مستقرة على حال وكان الحكم فيها للقائلين يؤلفون بين حركاتها كما يشاءون

٧ — الجموع :

الجموع من الموارد اللغوية القديمة ، وقد احتفظت بها اللغة العربية . وربما دلت كثرة الجموع فى العربية على اختلاف اللهجات ولاسيما جموع التكسير . ويعنى هذا أننا نجمع كلمة واحدة على عدة صيغ من صيغ الجمع (Cheme) فالشيخ يجمع على (شيخة) ويجمع على (شيوخ) بضم الشين وعلى (شيوخ) بكسر الشين وعلى (أشياخ) ومثل هذا كلمة (الحب) بكسر الحاء فتجمع على (أحباب) و (حبان) بكسر الحاء وتشديد الباء و(حبوب) و (حببة) بكسر الحاء و(حب) بضم الحاء . ومثل هذا كثير فى اللغة العربية وهو دليل على أن الجمع لم يستقر على حال وأنه يشير إلى المرحلة التى كانت فيها اللغة غير مستقرة على صيغ ثابتة من أجل هذا حدثت هذه الكثرة فى الصيغ وسبب هذه الكثرة راجع إلى اختلاف الأقوام واختلاف الجهات .

وفى جمع المذكر السالم ألفاظ سماها النحاة الأقدمون بالملحقات وذلك لعدم انطباق الشروط التي اتفقوا عليها فى جمع الاسم هذا الجمع المعروف وبقاء هذه الألفاظ التى ألحقت بجمع المذكر السالم يشير إلى مرحلة لغوية قديمة ، تلك المرحلة التى لم تتقيد فيها اللغة بضوابط واضحة وهذه الألفاظ هى ألفاظ العقود مثل (عشرون) وأخواتها وأرضون ووابلون وأهلون وعالمون ومن هذا الباب أصول (ثنائية) (Biliteure) مثل (بنون) و (مئون) و (قلون) و (سنون) و (عضون) كما فى قوله تعالى: « الذين جعلوا القرآن عضين » أى فرقوه أعضاء ومثله (عزين) جمع عزة أى فرقة ومنه ثبة قد جمعت على (ثبون) كما فى قول عمرو بن كلثوم .

فأما يوم خشيتنا عليهم — فتصبح خيلنا عصباً ثبينا

ويتبين من هذا أن هذه الموارد اللغوية المتخلفة عن مرحلة قديمة بقيت فى العربية الممثلة فى لغة القرآن ولغة النصوص الجاهلية التى يطمأن إلى صحتها .

٨ — الأبنية الغريبة :

وأقصد بالأبنية الغريبة تلك الصيغ التي وجدت في النصوص اللغوية القديمة والتي لم يكتب لها الشيوع لثقلها ولطول بنائها والتي عدت من باب الغريب مرة ومن الوحشي المهجورة مرة أخرى . ولابد من ضرب الأمثال على هذه الأبنية لنخلص إلى نتيجة من النتائج ، جاء في النوادر لأبي زيد المبرنتي هو الغضبان الذي لاينظر إلى أحد ، وكان على أبي زيد أن يأتي بالشاهد لنكون على بينة .

وهذه الناحية من العيوب في المعجم العربي القديم لأنهم لا يهتمون باستقراء الاستعمال لتأييد المعنى الذي ينصون عليه . وربما كان هذا حجة لمن يقولون بالاصطناع والاختراع في المعاني ، وإن اللغوي يلجأ إلى هـذا الباب ليظهر أنه عارف باللغة وفرائدها . ومثل هذا كثير في كتب اللغة المطوله . ولا بد من دليل آخر على اصطناع هذه الألفاظ وهو أنهم يذكرون للفظ الواحد معاني عدة لاعلاقة بينها فقولهم ، محبنطيء وهو العظيم البطن ، والممتليء غيظاً والحرنجم هو الذي يريد الأمر ثم يكذب فيرجع ، في حين أن (احرنجم) عندهم بمعنى اجتمع ووجه العلاقة بين الاسم والفعل غير موجود إطلاقاً .

وقد أفرد ابن دريد في الجمهرة في الجزء الثالث باباً للأوزان الغريبة كالفعلل مثل الهمرجل للخفيف السريع ، والشمردل للطويل والدلمس للجريء الماضي على الليل ، والجلنفع للصلب الشديد والعلنكد للصلب الشديد والعدبس للشديد الخلق.

وفي وزن الفعلول الشغموم للناقة القوية والطحلول والصعلوك للفقير. والقرضوب للص واللعموظ للشره والنهم . والصحمور للعظيم البطـــن . وفي الفيعلي ، الهيذبي والخيزلي .

ومن الفيعلول . الناقة العيسجور النشيطة ،والخيبقور للذى لايدوم على العهد .

ومن الفعوال ، القرواح للنخلة الملساء.

ومن الفيعول ، العيثوم الناقة الغليظة . وسيهوج وسيهوك اسمان توصف بهما الريح .

ومن الفيعال ، الهيذام وهو الصارم .

وهذه الأبنية الغريبة كثيرة اجتزأنا بهذا القدر منها ونريد أن نقول فيها شيئاً هو أن الغالب فيها ذو دلالة مادية فلا ينصرف إلى الناحية المجازية وأن المعانى التى ترد فى هذه الأبنية متعلقة بالأوصاف الحسية كالطول والقصر والضخامة والعظم والدقة وشدة الخلق والسرعة والخفة وغير هذا مما هو داخل فى هذا الخصوص . والخلق والاصطناع واضح فى هذه الأبنية فالألفاظ التى تعنى شدة الخلق فيها كثيرة ومختلفة وهى تنصرف للانسان تارة وللحيوان تارة أخرى .

ولكن هذه الأبنية على العموم قديمة وإن الألفاظ التى وضعت لهذه المعانى فى هذه الصيغ تقليداً وحكاية لما كانت عليه الأبنية فى اللغة القديمة فى مراحلها الأولى .

وأنا إذ أنهى هذه المقالة أود أن أقول إن عملى كان استقراء النواحى اللغوية التى يمكن أن تكون مادة مهمة فى مراحل اللغة القديمة . أما إعطاء صورة واضحة المعالم لهذه اللغة فى تلك المراحل فليس سهلا ، وذلك أننا مفتقرون للنصوص الثابتة المدونة كما فى سائر اللغات الحية .

الفصل السابع

من أوهام النحويين الأقدمين

كثر الكلام فى عصرنا هذا على النحو القديم للعربية ومنهج النحاة وما يمكن أن يوجه إليه من مآخذ . ومهما قيل فى هذا فإن جهود الأقدمين من النحاة شيء عظيم فقد استطاعوا أن ينتقلوا بهذا العلم من ضوابط يسيرة يقيم بها المعربون ألسنتهم بعد أن ضاعت السليقة العربية إلى علم دقيق معقد متطور يدرس لذاته فلم يقتصر على كونه أداة تصون العربية من اللحن والزلل . بل تجاوزت ذلك إلى أشياء أخرى .صار النحو علماً من العلوم الإسلامية الجديدة يقبل عليها الدارسون و فى أنفسهم هوى إلى هذه المادة فقد ذكر الذين ترجموا لأبى أسحاق إبراهيم بن السرى بن سهل الزجاج من أكابر أهل العربية أنه كان فى شبيبته يخرط الزجاج فاشتهى النحو فلزم المبرد يأخذه عنه (١) .

من الثابت أن علوم العربية نشأت بسبب العناية بلغة القرآن والدراسات القرآنية وإذا كان النحاة المتقدمون قد فكروا فى وضع شيء يقيم العربية ويعصمها من اللحن ولاسيما بعد أن عرض النحو للغة القرآن ، فهم سرعان ماعزفوا عن لغة القرآن ولم يفيدوا منها الفائدة اللازمة . ولم ينظر النحاة إلى لغة القرآن نظرة تاريخية فيقيموا على هذه اللغة ضوابطهم وحدودهم .

قلت لم يفد النحاة من لغة القرآن الفائدة التاريخية اللازمة ، وذلك أن لغة القرآن صورة للعربية فى ألوانها القبائلية والإقليمية . وهذا يؤدى بنا إلى أن لغة القرآن

---

(١) القفطي، أنباه الرواة ١ / ١٥٩ .

قد تعرضت لقراءات عدة ، ومنشأ القراءات يرجع إلى أنه قد سمع هذه النصوص القرآنية من النبي (ص) جماعة عدة وحدث أن كان هناك اختـــلاف في سماعهم لهذه النصوص .

ولا أريد أن أعرض للقراءات وأصلها ونشأتها ودلالتها وإن كنت على ثقة أن هذا الموضوع مازال مفتقراً للدرس .

لقد شغل الباحثون في القراءات أنفسهم بالحديث الشريف : « أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه » ، وقد روى هذا الحديث بصور مختلفة في «الصحاح» المشهورة من كتب الحديث قد انطلق أهل القراءات من هذا الحديث وقالوا فيه أقوالا كثيرة في سبب وروده وفي معنى الأحرف . قال ابن الجزرى :

ولا زلت استشكل هذا الحديث وأفكر ، وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة ، حتى فتح الله على بما يمكن أن يكون صوابا إن شاء الله ، وذلك أنى تتبعت القراءات صحيحها وشاذها ، وضعيفها ومنكرها ، فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لايخرج عنها ، وذلك :

(١) إما باختلاف في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو (قرح) بضم القاف وفتحها (١٤٠ آل عمران) .

(٢) أو في الحركات بتغير في المعنى فقط ، نحو واذكر بعد أمة (٤٥ يوسف)

(٣) أو في الحروف بتغير في المعنى ، لا الصورة نحو « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » (٣٠ يونس) .

(٤) أو عكس ذلك ؛ أي في الصورة لا المعنى ، نحو « وزادكم في الخلق بسطة »(٦٩ الأعراف) .

(٥) وإما بتغيرهما ، أي الصـــورة والمعنى ، نحو « فاسعوا إلى ذكر الله » (٩ الجمعة) .

(٦) الاختلاف بالتقديم والتأخير : نحو « وجاءت سكرة الموت بالحق » قرأ أبو بكر وابن مسعود رضى الله عنهما « وجاءت سكرة الحق بالموت » (١٩ق).

(٧) الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو « ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب وقرىء (وأوصى بها) ، (١٣١ البقرة) (٢) .

ولم يقف اختلاف القراءات عند هذه الحدود والضوابط التى حصرها علماء القراءات بل اختلفت القراءات حتى صارت مادة تظهر ملامح وألوانا من اختلاف للجهات . من المعلوم أن أصحاب الأمر كانوا فى بداية عصر القرآن حريصين على ألا تبلغ وجوه الاختلاف مبلغا كبيراً حرصاً على كتاب الله وخشية من أن يبلغ الاختلاف فى وجوه القراءات مبلغاً يضيع فيه شيء من لغة التنزيل ، ولذلك منعوا ألا يقرأ كتاب الله فى غير ما اتفق عليه جماعة الثقات من القراء ، فقد أثر عن عمر بن الخطاب أنه سمع من يقرأ (عتى حين . بدلا من «حتى حين») حين فنهاه وزجره وهى قراءة عبد الله بن مسعود ولذلك طلب من ابن مسعود ألا يقرىء الناس بلغة هذيل (٣)

غير أن هذا الحرص الشديد لم يمنع المسلمين فى مختلف جهاتهم وأقاليمهم من القراءة بلغاتهم المحلية التى درجوا عليها . ومن هنا نشأ فى علم القراءات ما عرف بالقراءات الشاذة .

والشواذ فى القراءات هى ما خلا تلك التى انتشرت بواسطة القارىء المشهور ابن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٣ هـ ، كقراءة ابن مسعود وقراءة أبى بن كعب واختيار

---

(١) ابن الجزري، النشر ١ / ٢٦ عن كتاب (القراءات واللهجات لعبد الوهاب حمودة ١٤، ١٥، ١٦).

(٢) الزمخشري، الكشاف (طبعة الاستقامة ١٩٤٦) ٣/ ٤٦٠ .

الحسن البصرى وأمثالهم . وقد ألف غير واحد من الأقدمين فى موضوع الشواذ كالعكبرى فى كتابه إعراب القراءات الشاذة ، والأهوازى وابن عطية والمهدى ولم نعرف مؤلفات هؤلاء ولم يصل إلينا منها شيء ، كما اندثر كتاب « اللوامع » وكتاب « المحتوى » للدانى .

ومن أمثال هذه الشواذ التي لاتدل إلا على اللهجات الدارجة أو اللغات المحلية الإقليمية ماجاء من شواذ سورة الفاتحة :

قرأ أبو السوار الغنوى « هياك » بالهاء المكسورة فى الآية الخامسة « إياك نعبد » ، وقد قرأ عمرو بن فايد « إياك » بالتخفيف ، وقرأ جناح بن حبيش « نستعين » بكسر النون .

وجاء فى شواذ البقرة : قراءة يحيى بن وثاب :« ولا تقربا هذه الشيرة » بكسر الشين وبالياء حكاه أبوزيد . وقراءة « الشيرة » بابدال الياء من الجيم إثبات للهجة من اللهجات التي تلتزم بالياء فى كل كلمة كان فى بنائها الجيم ، وهذا النوع من الإبدال مازال موجوداً فى لهجات القرويين فى جنوبى العراق .

وقرأ مسلمة بن محارب « بعولهن » من قوله تعالى : « وبعولتهن أحق بردهن » بجزم التاء ، ومعلوم أن البعولة جمع « بعل » كما أن السهولة جمع « سهل » واختلاف القوم فى أبنية الجموع يرجع إلى اللهجات الخاصة من غير شك .

ونجتزئ بهذا القدر من وجوه الخلاف التى تعكس لوناً من ألوان اللهجات الخاصة ، وهذا يعنى من الناحية التاريخية أن العربية فى عصر القرآن ما زالت مفتقرة إلى التوحيد . ثم إن ما كان من جمع القرآن وقصره على المصحف العثمانى سير إلى هذا التوحيد الذى أخذ يتقرر شيئاً فشيئاً وبذلك بدأت تزول أشياء كثيرة مما يدخل فى موضوع « اللهجات » ولم يكن النحاة الأقدمون مدركين هذه الحقائق التاريخية الإدراك الكافى بالرغم من كونهم فزعوا إلى النحو حفاظا على لغة التنزيل

العزيز . غير أنهم سرعان ما ابتعدوا عن غايتهم هذه وعقدوا نحوهم معللين مفلسفين مبتعدين كل البعد عن الهدف التعليمي وإدراك الظروف التاريخية لهذه العربية . صار النحو علما قائما بذاته ، أقبل عليه الدارسون استجابة لهوى فى نفوسهم كما يحدث للكثير من أصحاب الاختصاصات الأخرى .

ومن أجل ذلك قل اهتمام النحويين بالقرآن والاعتماد عليه فى التماس الشواهد التى كان ينبغى أن تؤخذ قواعد العربية . ولم يهتم النحاة بوجوه القراءات واعتمادها اعتماداً كافياً ، بل ربما ذهبوا إلى القول بخطإ بعض وجوه القراءات . وقد بلغ بهم الأمر إلى أنهم حملوا على الخطإ شيئاً ورد فى قراءة الثقات من القراء مثل نافع قارىء أهل المدينة وابن عامر قارىء أهل الشام وكان على النحاة أن يفيدوا من هذه الوجوه فى القراءات ليشاركوا فى وضع شىء من تاريخ العربية فى هذه الفترة التى ندعوها بعصر القرآن .

ابتعد النحويون عن هذا النهج وتنكبوا السبيل وامتلأت مصنفاتهم بالضعيف المصنوع من الشواهد النثرية والشعرية ، وربما وجدت فى كل باب من الأبواب شيئاً مما لم يجر على لسان فصيح من الناس وأن لون الاصطناع ظاهر فيه فأنت تجد مثلا قولهم « زيد هند ضار بها هو » و « زيداً أنا ضارب غلام أبيه » و « جاء القوم إلا حماراً » . وأنت واقع على مثل هذه الألاعيب فى كل صفحة من صفحات تلك المطولات .

ولعل النحويين كانوا يستريحون إلى الأبيات الضعيفة فى بنائها التى لم يغب عنهم فى كثير من الأحيان ما تحمله من مظاهر الضعف والاصطناع والكذب فقد ذكروا فى باب « المثنى » من شواهدهم البيت الآتى :

أعرف منها الجيد والعينانا ومنخرين ...

فقالوا فى فتح نون المثنى إنه لغة وربما حملوه على الشذوذ ، كما أن فى البيت

شاهداً آخر هو الزام المثنى بالألف والنون فى الرفع والنصب والجر ، ثم عقبوا على هذا الشاهد بقولهم : وقيل : إنه مصنوع . وأنا لا أشك فى أن هذا الشاهد من جملة الشواهد الكثيرة المصنوعة ، إذ لو كان القائل من الجارين على فتح نون المثنى والزام الألف فيه لم يكن له أن يأتى ببناء المثنى مكسور النون وبالياء حين جاء به معطوفا على ما قبله كما فى قوله « ومنخرين » ، وعلى هذا يتبين أن هـذا الشاهد مما صنعوه ليقفوا عليه هذه الوقفة الطويلة ويفيدوا منه بالرغم من شكهم فى صدق هذا الشاهد .

ومن هذه الألاعيب التى شغل بها النحويون أنفسهم وأطالوا فيها القول وربما شغفوا بها وعزفوا عن الكلام الفصيح المليح ما أنت واجده فى كل باب من أبوابهم ، وأنا أثبت هنا شيئا مما علق فى ذاكرتى من هذه الشواهد .

جاء من شواهد فى « أفعل التفضيل » مثل البيت الآتى :

ولست بالأكثر منهم حصى   وإنما العزة للكاثر

فى هذا الشاهد ورد « الأكثر » ببناء التفضيل بالألف واللام ، وفى هذه الحالة جرت العربية على ألا يؤتى بالمفضل عليه مجروراً بـ « من » . وفى هذه الحالة كان على النحاة أن يقولوا : إن البيت خرج عن الاستعمال الكثير[1] ، وعلى هذا فهو شىء جديد طارئ على استعمال أفعل التفضيل ، ومن غير شك أن الشاعر قد تجاوز طريقة الاستعمال الغالب لضرورة شعرية والشاعر مضطر فى أحيان كثيرة كما نعلم .

لم يلجأ النحاة إلى القول بالضرورة فيقطعوا بيسر فى هذه المسألة اللغوية ،

(١) يبدو أن هذه الوجه الذي أنكره النحاة في استعمال (أفعل التفضيل) كان لوناً من ألوان التطور في الاستعمار. ويدلنا على هذا شيوعه في لغتنا الحديثة فنحن نقول كثيراً: «والأنكى من ذلك» و«الأمر من ذلك» مبتعدين عن الاستعمال القديم الفصيح.

ولكنهم لجأوا إلى أقوالهم القائمة على شيء يشبه الألاعيب فقالوا فى هذا البيت ليخرجوه تخريجا على طريقتهم : إن الجـــار والمجرور « منهم » غير متعلق بـ «الأكثر» الموجود فى البيت ، بل هو متعلق بـ « أكثر » آخر غير محلى بالألف واللام حذف استغناء عنه بـ « الأكثر » الموجود . وعلى هذا يكون تقديرهم كالآتى :

ولست بالأكثر أكثر منهم حصى . .

وإذا كنا نفهم النحو فى عصرنا هذا أداة يوصف بها الكلام ، ووصف الكلام وبيان أجزائه وعلاقة كل جزء بالآخر هو النحو ، فليس لنا فى هذه الحالة أن نقبل مقالة النحويين الأقدمين فى هذه المسألة الموسومة بالتكلف الواضح .

وكأنهم شعروا بضعف فى أقوالهم فى هذه المسألة اللغوية فعدلوا إلى الأخذ بوجه آخر فقالوا : إن الألف واللام زائدة فى البيت .

كل ذلك ليجعلوا البيت سائرا فى الحـدود التى رسموها ولم يفطنوا إلى أن الاستعمال اللغوى غير ذلك وأن التغير يعرض لبناء الكلام كما يعرض لبناء الكلمة .

أقول : اشتد ولوع النحويين بهذه الأقوال وهذه التعليلات ،و الأخذ بما ثبت لهم أنه مصنوع . واعتمدوا لغة الشعر على ابتعادها فى كثير من الأحوال عن أن تكون مثلا للمألوف المتداول من الكلام ، ولم يعتمدوا على لغة القرآن الفصيحة المشرقة الاعتماد الكافى .

قلت : لقد حمل النحويون كثيراً من وجوه القراءات على الخطإ .

قال أبو شامة فى شرح الشاطبية[1] .

---

(١) أبو شامة، إبراز المعاني ٢٨٣ .

« قرأ حمزة « والأرحام » بالجر من قوله تعالى » واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » .

قال الزجاج : القراءة الجيدة نصب « الأرحام » فأما الخفض فخطأ فى العربية ، فان إجماع النحويين أنه يقبح أن يعطف باسم ظاهر على اسم مضمر فى حال الخفض إلا بإظهار الخافض » . ومن العجيب قول الزجاج هـذا ، وذلك لأنه ممن عنى بالقراءات ووجوه الاختلاف فيها ، ولـكن غلبة النحو عليه دفعته إلى مشايعة أصحابه البصريين .

وقد رد المفسرون وأصحاب القراءات على النحويين وأنـكروا عليهم القول بخطإ ما ثبت بالرواية من وجوه القراءات .

قال الرازى فى تفسيره : « إذا جوزنا إثبات اللغة بشعر مجهول ، فجواز إثباتها بالقرآن أولى . وكثيراً مانرى النحويين متحيرين فى تقرير الألفاظ الواردة فى القرآن ، فإذا استشهدوا فى تقريرها ببيت مجهول فرحوا به ، وأنا شديد التعجب منهم ، فإنهم إذا جعلوا ورود ذلك البيت على وفقها دليلا على صحتها فلأن يجعلوا ورود القرآن دليلا على صحتها كان أولى » .

وقد جاء فى شرح المفصل لابن يعيش فى الـكلام على هذه الآية قوله :

« وأما قوله فى « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » بجر الأرحام فى قراءة حمزه ، فإن أكثر النحويين قد ضعف هذه القراءة نظراً إلى العطف على المضمر المخفوض . وقد رد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد هذه القراءة ، وقال : لا تحل القراءة بها . وهذا القول غير مرضى من أبى العباس لأنه قدرواها إمام ثقة ، ولا سبيل إلى رد نقل الثقة ، ومع أنه قد قرأها جماعة من غير السبعة، كابن مسعود ، وابن عباس ، والقاسم ، وإبراهيم النخعى ، والأعمش ،والحسن البصرى، وقتاده ، ومجاهد ، وإذا صحت الرواية لم يكن سبيل إلى ردها »(١)

---

(١) ابن يعيش، شرح المفصل ٢ / ٧٨.

وقال السيوطى فى « الاقتراح » : « وأما القرآن فكل ما ورد أنه قرىء به ، جاز الاحتجاج به فى العربية سواء أكان متواتراً ،أم آحاداً ، أم شاذاً . وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة فى العربية اذا لم تخالف قياساً معروفا ، بل ولو خالفته يحتج بها فى مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يجز القياس عليه ، كما يحتج بالمجمع على وروده ومخالفته للقياس فى ذلك الوارد بعينه ، ولا يقاس عليه ، وما ذكرته عن الاحتجاج بالقراءة الشاذة ، لا أعلم فيه خلافا بين النحاة »(١).

وقد انساق الزمخشرى فى تيار النحويين لحمل كثيراً من وجوه الخلاف فى القراءات على الخطإ ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم » .

قال الزمخشرى : « وأما قراءة ابن عامر « قتل أولادهم شركائهم » برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على اضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف ، فشىء لو كان فى مكان الضرورات — وهو الشعر — لكان سمجا مردوداً فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته ؟ والذى حمله على ذلك أن رأى فى بعض المصاحف : « شركائهم » مكتوبا بالياء)(٢) .

وقول الزمخشرى هذا يعنى أنه لم يشأ أن يحيد عن مقالة النحويين الأقدمين . أما قوله : « فشىء لو كان فى مكان الضرورات لكان سمجا مردوداً » فغير صحيح ذلك أن النحويين قبلوا من فاسد التركيب وضعيف البناء والمصنوع من الأبيات ما تكون بالنسبة إليه ضرورات الشعر شيئا هينا .

وقد كان الكوفيون من النحويين أصوب منهجا باعتمادهم القراءات مادة بنوا عليها نحوهم ، فقد احتجوا بقراءة ابن عامر أحد القراء السبعة فى هذه الآية بنصب

---

(١) السيوطي، الاقتراح ١٧ .
(٢) الزمخشري، الكشاف ٢ / ٤١ .

« أولادهم » وجر « شركائهم . أما البصريون فقد خالفوهم فى المسألة وعدت من مسائل الخلاف التى درجها أبو البركات بن الأنبارى فى « الإنصاف » فقالوا : « إن هذه القراءة لا يسوغ لكم الاحتجاج بها ، لأن الإجماع واقع على امتناع الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول فى غير ضرورة الشعر ، والقرآن ليس فيه ضرورة ، وإذا وقع الإجماع على امتناع الفصل بينهما فى حال الاختيار سقط الاحتجاج بها على حال الاضطرار »(١) .

وقال أبو حيان فى تفسيره :

وقرأ ابن عامر كذلك ففصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول ، وهى مسألة مختلف فى جوازها ، فجمهور البصريين يمنعونها ، متقدموهم ومتأخروهم ، ولا يجيزون ذلك إلا فى ضرورة الشعر . وبعض النحويين أجازها وهو الصحيح ، لوجودها فى هذه القراءة المتواترة المنسوبة إلى العربى الصريح المحض ابن عامر الآخذ القرآن عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن فى لسان العرب .

ولا التفات إلى قول ابن عطية : وهذه قراءة ضعيفة فى استعمال العرب . ولا التفات إلى قول الزمخشرى . وأعجب لعجمى ضعيف فى النحو يرد على عربى صريح محض قراءة متواترة . وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقا وغربا ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم لضبطهم ومعرفتهم وديانتهم . ولا التفات أيضا لقول أبى على الفارسى : هذا قبيح قليل فى الاستعمال ولو عدل عنها ابن عامر كان أولى »(٢) .

ولعل أبا الفتح ابن جنى قد أدرك شطط النحاة فى هذه المسألة ، وابتعادهم عن الحق فى عزوفهم عن الأخذ بما ثبت من القراءات الصحيحة الثابتة فقال :

---

(١) ابن الأنباري ، الإنصاف ١/ ٢٤٩ .
(٢) أبو حيان، البحر المحيط ٤ / ٢٢٩ .

« لا نقطع على الفصيح يسمع منه ما يخالف الجمهور بالخطإ ما وجد طريق إلى تقبل ما يورده » (١) .

ولم يهتم النحاة الأقدمون باللغات الخاصة الاهتمام الكافى ، واللغات الخاصة ما ندعوه فى عصرنا هذا بـ « اللهجات » ، وكان عليهم أن يفيدوا منها لتتوفر الناحية التاريخية فى بحثهم اللغوى .

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك » « آل عمران ٧٥ » .

قرأ الجمهور « يؤده » بكسر الهاء ووصلها بياء ، وقرأ « قالون » باختلاس الحركة » وقرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزه والأعمش بالسكون . قال أبو إسحق الزجاج : وهذا الإسكان الذى روى عن هؤلاء غلط ، لأن الهاء لا ينبغى أن تجزم وإذا لم تجزم فلا أن تسكن فى الوصل .

قال أبو حيان : وما ذهب إليه أبو إسحاق من أن الإسكان غلط ، ليس بشىء إذ هى قراءة السبعة وهى متواترة ، وكفى أنها منقولة عن إمام البصريين أبى عمرو ابن العلاء ، فإنه عربى صريح ، وسامع لغة ، وإمام فى النحو ، ولم يكن ليذهب عنه جواز مثل هذا . وقد أجاز ذلك الفراء وهو إمام فى النحو واللغة ، وحكى ذلك لبعض العرب تجزم فى الوصل والقطع . وقد روى الكسائى أن لغة عقيل وكلاب أنهم يختلسون الحركة فى هـــذه الهاء إذا كانت بعد متحرك ، وأنهم يسكنون أيضاً .

---

(١) ابن جنى، الخصائص ١ / ٣٩٣.

وأبو إسحاق الزجاج يقال عنه إنه لم يكن إماماً فى اللغة ، ولذلك أنكر على ثعلب فى كتابه الفصيح مواضع زعم أن العرب لاتقولها ، ورد الناس على أبى إسحاق فى إنكاره ، ونقلوها من لغة العرب . وممن رد عليه أبو منصور الجواليقى وكان ثعلب إماما فى اللغة وإماما فى النحو على مذهب الكوفيين)[1]

ومن الأمثلة الأخرى على ابتعادهم عن الأخذ باللغات الخاصة ما جاء فى قوله تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش » (الأعراف ١٠) .

قال أبو حيان : قرأ الجمهور « معايش » بالياء وهو القياس . وقرأ الأعرج وزيدبن على، والأعمش، وخارجة عن نافع وابن عامر فى رواية « معائش» بالهمز، وليس بالقياس ، لكنهم رووه ، وهم ثقات فوجب قبوله . وقال الزجاج: جميع نحاة البصرة تزعم أن همزها خطأ، ولا أعلم لها وجها إلا التشبيه بصحيفة وصحائف، ولا ينبغى التعويل على هذه القراءة .

وقال المازنى : أصل هذه القراءة عن نافع ، ولم يكن يدرى ما العربية وكلام العرب الصحيح فى نحو هذا .

وقال الفراء : ربما همزت العرب هذا وشبهه يتوهمون أنها فيشبهون مفعلة بفعيلة .

قال أبو حيان : فهذا نقل من القراء عن العرب أنهم ربما يهمزون هذاوشبهه وجاء به نقل القراء الثقات »[2]

---

(١) أبو حيان، البحر المحيط ٢ / ٤٩٩ .
(٢) المصدر السابق ٤ / ٢٧١ .

هذه جملة أمثلة تظهر اشتطاط النحويين فى الوصول إلى نحوهم الذى لم يبن مراعاة لأحوال العربية فى العصر القرآنى .

وعلى هذا فقد كان على النحاة أن يفيدوا من أوجه الخلافات فى القراءات، وذلك لأنها لون من ألوان اللغات الخاصة وهو ماندعوه بـ « اللهجات » . وبهذا يكون قدتم لهم علم لغوى تأريخى متطور فى ألفاظه وتراكيبه .

الفصل الثامن

الأضداد

لابد للباحث فى تاريخ العربية أن يقف وقفة طويلة على مشكلة الأضداد ليتبين حقيقتها فى التاريخ اللغوى .

لقد كتب فى هذه المسألة علماء اللغة الأقدمون وهم :

١ — أبو على المستنير المعروف بقطرب المتوفى سنة ٢٠٦[١] .

٢ — أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى المتوفى سنة ٢١٦[٢] .

٣ — أبو محمد عبد الله بن محمد بن هارون التوزى المتوفى سنة ٢٤٠[٣] .

٤ — أبو يوسف يعقوب بن اسحق السكيت المتوفى سنة ٢٤٤[٤] .

٥ — أبو حاتم بن محمد السجستانى المتوفى سنة ٢٥٥[٥] .

وهؤلاء هم اللغويون السابقون الذين عرفوا بجهودهم اللغويه المهمة الأولى ثم اعتمدها من بعدهم الطبقة التى خلفتهم من علماء القرون التى تعاقبت من بعدهم . ومشكلة الأضداد من جملة ما كتبوا فيه من الموضوعات اللغوية الأولى .

---

(١) المزهر للسيوطي ١/ ٣٩٧ ، وقد نشره المستشرق هانز كوفلر في مجلة Islamica المجلد الخامس سنة ١٨٣١ «ص ٢٤٧ - ٢٩٣».

(٢) المزهر ١ / ٣٩٨ . وقد طبع بتحقيق المستشرق أوغست هنتر سنة ١٩١٣ في بيروت ضمن مجموعة تشتمل على ثلاثة كتب في الأضداد للأصمعي وأبي حاتم السجستاني وابن السكيت.

(٣) المزهر ١ / ٣٩٧.

(٤) وقد طبع ضمن مجموعة كتب الأضداد، انظر الحاشية (٢).

(٥) طبع هذا الكتاب ضمن المجموعة المشار إليها.

ومن علماء القرن الرابع أبو بكر محمد بن القاسم المعروف بابن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ قد كتب فى الأضداد(١) وأشار إلى اعتماده على كتب هؤلاء المتقدمين .

ومن هذه الكتب أيضا « كتاب الأضداد فى كلام العرب » لأبى الطيب عبد الواحد بن على الحلبى المتوفى سنة ٣٥١(٢) .

وظل العلماء يؤلفون فى هذا الموضوع. فى القرن السادس ألف فيه أبو محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان المتوفى سنة ٥٦٩(٣) . ولعل أبا الفضائل الحسن بن محمد الصغانى المتوفى سنة ٦٥٠ أحد المتأخرين الذين شاركوا فى هذا الموضوع وكتابه معروف(٤) .

واختلف الرأى عند القدماء فى مشكلة الأضداد فقد أنكرها جماعة وأبطلوها وذهبوا إلى أنه لا يمكن أن يدل اللفظ على الشىء وضده وقد ردوا بالتأويل ما ورد من الأضداد فى كلام العرب . ومن هؤلاء أبو محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه فقد وضع كتابا فى إبطال الأضداد(٥) . وقد تصدى جماعة للرد على هذا الرأى ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس فقد وضع فى إثبات الأضداد ليرد به على مذهب ابن درستويه وأضرابه . قال فى كتابه « الصاحبى » : وأنكر ناس هذا المذهب وأن العرب تأتى باسم واحد لشىء وضده .

---

(١) المزهر ١ / ٣٩٧، وقد طبع الكتاب عدة مرات وقد حققه أخيراً أبو الفضل إبراهيم وطبع في الكويت سنة ١٩٦٠.

(٢) المزهر ١ / ٣٩٧ وقد حققه الدكتور عزة حسن ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٦٣.

(٣) المزهر ١ / ٣٩٧ وقد حققه الدكتور عزة حسن ضمن مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٦٣.

(٤) المزهر ١ / ٣٩٧ وقد طبعه الشيخ حسن آل ياسين «النجف ١٩٥٢» في المجموعة الأولى من نفائس المخطوطات.

(٤) المزهر للسيوطي وقد طبع في ذيل المجموعة التي أشرنا إليها في الحاشية. (٢) بتحقيق اوغست هنتر.

(٥) السيوطي، المزهر ١/ ٣٩٦.

وهذا ليس بشيء وذلك أن الذين رووا أن العرب تسمى السيف مهنداً والفرس طرفا هم الذين رووا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد . وقد جردنا فى هـذا كتابا ذكرنا فيه ما احتجوا به وذكرنا رد ذلك ونقضه »[١] .

ويبدو أن الشعوبيين الذين يزرون بالعرب ويرمونهم بكل نقيصة هم الذين سلكوا هذا الطريق ليثبتوا أن لغة العرب قد خلت من الحكمة وافتقرت إلى الدقة والبلاغة فى إطلاق الألفاظ وتحديد المعانى وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم ابن الأنبارى فى (أضداده) « أهل البدع والزيغ والإزراء بالعرب»[٢] .

وكأن ابن الأنبارى أراد أن يثبت حقيقة الأضداد والوجوه التى تنصرف إليها ليجيب عن الحجج التى أبداها « أهل البدع والزيغ » فذكر :

إن كلام العرب يصحح بعضه بعضا ويرتبط أوله بآخره ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه ، واستكمال جميع حروفه فجاز وقوع اللفظة على المعنين المتضادين لأنها يتقدمها ويأتى بعدها مايدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر ولا يراد بها فى حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد فمن ذلك قول الشاعر :

كل شيء ماخلا الموت جلل والفتى يسعى ويلهيه الأمل

فدل ما تقدم قبل « جلل » وتأخر بعده على أن معناه : كل شيء ماخلا الموت يسير ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن « الجلل ها هنا معناه « عظيم » .

وكلام ابن الأنبارى هذا يشير ضمنا أن اللفظة لا يمكن أن تدل على الشيء وضده فى الوقت نفسه . أماخصوصية التضاد فهى مستفادة من خارج اللفظة وأعنى

(١) ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة ص ٦٦ - ٦٧.
(٢) ابن الأنباري، الأضداد «الكويت ١٩٦٠» ص ١.
(٣) المصدر نفسه ص ١.

بهذا « الخارج » أن فى الـكلام من القرائن والمجوزات ما أدى إلى هذا التوسع فى المعنى .

ومعنى هذا أن فـكرة التضاد تـكون نتيجة التطور فى الاستعمال ونتيجة الجديد فى الدلالة ومن أجل هذا فدراسة الأضداد تؤلف موضوعاً لغوياً تاريخياً من حيث علم الدلالة التاريخية Sémantique historique وبهذا التفسير يمكن أن نرد كثيراً مما اعتبر من الأضداد إلى هذه الحقيقة فى التطور والاستعمال . ألا ترى أن قولهم : « رغب فى » و « رغب عن يشتمل على مطلق الرغبة فى كلا الاستعمالين أما خصوصية التضاد فهى حاصلة فى حرفى الجر (فى) و (عن) فى أن الأول يعبر عن اتجاه إيجابى وهو يفيد (نحو) فى حين أن الثانى يفيد الاتجاه السلبى وهو المجاوزة . فإذا استفيدت خصوصية التضاد فهى فى هذا الطريق فى حين أن مادة الفعل احتفظت بالرغبة فى كلتا الحالتين . وقد تقول : كيف حدث هذا الانتقال من الناحية الإيجابية إلى الناحيـــــة السلبية ؟ أقول : إن ذلك أمر اقتضاه التطور فى الاستعمال عبر الزمان الطويل وذلك يعرض للغات عامة . وأكبر الظن أن من أراد بـ « الأمين » المؤتمن على صيغة اسم الفاعل ، هو غير من أراد به المؤتمن على صيغة اسم المفعول ، وأن زمان الأول غير زمان الثانى . غير أن العربية تفتقر إلى مثل هذا التحديد فى الزمان والاستعمال وملاك الأمر راجع إلى البحث والتنقيب فى النصوص المختلفة ليستطيع الباحث أن يثبت الاستعمالات ويردها إلى أزمنتها . وسأقول فى القدر الذى اشتملت عليه هذه الـكلمة فى فـكرة الضدية فى كلتا الصيغتين عند عرضى لمفردات الأضداد عامة .

وليس فى طوقنا أن نقول : إن الفعل « يظن » من مواد الأضداد كما ذهب الأقدمون ففسروا الفعل فى قوله تعالى « قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله »(١)

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٩ .

أراد الذين يتيقنون ذلك ليثبتوا أن اليقين غير الظن المعروف الذى هو أضعف من اليقين والعلم .

أقول : إن الضدية لم تثبت لهذا الفعل أما ماذهبوا إليه فهو مستفاد من الآية الكريمة كما سيأتى فلا يسوغ لمتكلم أن يجزى الفعل على هذا النحو من اشتماله على التضاد . والأمر فى الآية الكريمة غير هذا ، فلم يذهب وهم عاقل إلى أن الله عز وجل يمدح قوماً بالشك فى لقائه كما يعلل ذلك ابن الأنبارى(١) . وهكذا فإن التضاد حاصل فى الآية لما عرفنا من الحقيقة فى أن لقاء العبد بربه حاصل لا محالة .

ثم إن استقراءنا لاستعمالات الفعل « ظن » فى لغة التنزيل يدلنا على أن معانى أخرى تستفاد دون أن يكون فى ذلك شىء من التضاد ففى قوله تعالى حاكياً فى يونس : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه »(٢) . قال المفسرون : أراد : رجا ذلك وطمع فيه ، إذ ليس جائزاً أن يكون يونس تيقن أن الله لا يقدر عليه .

وهذا المعنى الذى ذهبوا إليه يشير إلى أن المعانى قد تختلف باختلاف الأحوال التى يجرى فيها الكلام ، وأن ما يستفاد منها داخل فى باب الاستعمال وما يجد فيه من صور مختلفة فى زمن واحد أو فى أزمنة مختلفة فقد يجوز أن يحصل فى هذا الاختلاف فى الاستعمال ما يمكن أن يجرى على التضاد كما رأينا ، فإذا حصل ذلك فهو داخل فى باب ما أسموه بـ « ماااتفق لفظه واختلف معناه » وقد كتب فى هذا غير واحد من الأقدمين .

وعرض ابن الأنبارى لرأى جماعة أخرى وهؤلاء يرون أنه : « إذا وقع الحرف على معنيين متضادين فالأصل لمعنى واحد ، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع »(٣)

(١) ابن الأنباري، الأضداد ص ٣.
(٢) سورة الأنبياء ٧٨.
(٣) ابن الأنباري، الأضداد ص ٨.

« فقد يجوز » يوحى إلى أنه لم يعتقد أن هذه المادة تنصرف إلى الأضداد ذلك أن فكرة التضاد قد حصلت من ملابسة الطهر للحيض واتصالهما ببعضهما فى الزمان فقد يتوسع فى الاستعمال فتحصل فكرة التضاد .

وقد دفع اعتبار الشعوبيين الأضداد نقيصة من نقائص لغة العرب إلى تحمس القائلين بالأضداد فاندفعوا ينقبون فى كلام العرب ولغة التنزيل مستقصين هذه المسألة ، مستدلين بها على مقدرة العربية فى الأعراب عن دقيق المعانى فتتهيأ من ذلك مادة ضخمة . وكأن هذا الحماس قد دفعهم بقوة فراحوا يتلمسون أبعد الوجوه للتقريب بين لفظين على سبيل التضاد .

قال قطرب : « إنما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلوا على اتساعهم فى كلامهم كما زاحفوا فى أجزاء الشعر ليدلوا على أن الكلام واسع عندهم ، وأن مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والإطالة والإطناب »[١].

ومن هؤلاء الذين قبلوا فكرة الأضداد وتوسعوا فيها دون أن يوجهوها كما فعل ابن الأنبارى وغيره ، أحمد بن فارس فقد قال : « من سنن العرب فى الأسماء أن يسموا المتضادين باسم واحد نحو الجون للأسود والجون للأبيض . ثم قال : « وأنكر ناس هذا المذهب وأن العرب تأتى باسم واحد لشيء وضده وهذا ليس بشيء . وذلك أن الذين رووا أن العرب تسمى السيف مهنداً والفرس طرفا هم الذين رووا أن العرب تسمى المتضادين باسم واحد »[٢].

وقد يحلو لنفر من الباحثين فى الفيلولوجية العربية من المستشرقين[٣] أن يفترضوا

---

(١) ابن الأنباري، الأضداد ص ٨.

(٢) ابن فارس، الصاحبي ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٣) لقد كتب المستشرق الألماني نولدكه منذ ما يقرب من نصف قرن في «الأضداد» وفي كتابه الشهير:

Th. Noldke, Neue Beitrag Zur Semitische Sprachwissnchaft.

شيئا فى مسألة الأضداد فيقولوا : « إذا كان الشعوبيون وجلهم من الفرس الأعاجم قد استدلوا بالأضداد على أن لغة العرب تفتقر إلى الدقة والسداد فلعل هؤلاء هم الذين شاركوا فى البحث عن الأضداد فتوسعوا فيه توسعاً كثيراً وتلمسوه لأدنى سبب » .

أقول : إن الشعوبيين وهم طبقة من الفرس قد عابوا العرب فى هذه المسألة ولكن الباحثين ليسوا جميعا من الفرس فقد تصدى للتنقيب عن هذه المواد جماعة منهم العربى ومنهم غير العربى . ومن الطريف أن نذكر أن بين المتعصبين للعربية الذابين عنها جماعة من أصل فارسى كابن قتيبة الذى يشيد بالعربية أيما إشادة وابن فارس كما رأينا .

والحقيقة أن اهتداء الرواة وعلماء اللغة إلى مواد الأضداد كان نتيجة ولعهم بالتماس فرائد العربية ونوادرها وغريبها فقد تتبعوا هذه « الفرائد » فى كلام العرب وفى « كتاب الله » وسنأتى على بيان ذلك لا سيما ما كان خاصاً بكتاب الله الكريم .

وربما كان شوقهم إلى معرفة هذه الفرائد والنوادر هو الذى دفعهم إلى تسجيل الأضداد والتوسع فيها أكثر مما دفعهم حرصهم على الرد على الشعوبية .

ومن العجيب أن ما اعتبر من مادة الأضداد فى لغة القرآن عند جماعة من المفسرين لم يكن له هذا المعنى من التضاد عند جماعة أخرى من أهل التفسير .

فقد جاء من قوله تعالى : « وأسروا الندامة لما رأوا العذاب »[١] ، ولقد أجروا الفعل « أسروا » على التضاد على اختلاف فى التفسير فى الحالتين والمفسرون على غير اجماع على اعتبار (أسر) من الأضداد فالإمام الطبرى وهو من مفسرى السنة

(١) سورة يونس الآية ٥٤.

يثبت أن معنى الفعل المذكور هو الإخفاء وهو المعنى الأصيل الذى تنصرف إليه الكلمة عامة فى حين أن غيره من المفسرين كالزمخشرى والفخر والرازى يعرضون لتفسير هذه الآية فيشيرون إلى المعنى الآخر المضاد وهو الإظهار كما يشيرون إلى المعنى الأول المعروف وهو الإخفاء .

ذهب الطبرى فى الكلام على المشركين فى سورة يونس فى تفسير الآية المشار إليها : (وأخفت رؤساء هؤلاء المشركين من وضعائهم وسفلتهم الندامة حين أبصروا عذاب الله قد أحاط بهم وأيقنوا أنه واقع بهم)(١) .

على أن الزمخشرى قد ذكر فى الآية نفسها : (.. لأنهم بهتوا لرؤيتهم مالم يحسبوه ولم يخطر ببالهم ، وعاينوا من شدة الامر وتفاقمه ما سلبهم قواهم وبهرهم ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً ولا مايفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة فى القلوب ، .... وقيل : أسر رؤساؤهم الندامة من سفلتهم الذين أضلوهم ، حياء منهم وخوفا من توبيخهم . وقيل : أسروها أخلصوها ، أما لأن إخفاءها إخلاصها ، وإما من قولهم : سرّ الشيء لخالصه . وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة وقيل : أسروا الندامة : أظهروها من قولهم : أسر الشيء وأشره إذا أظهره وليس هناك تجلد)(٢) .

أما الفخرى الرازى فيعرض للآية الكريمة ويعرض لهذه الوجوه جميعاً التى يحتملها الفعل (أسر) فى تفصيل ومحاكة فيقول : (... واعلم أن الإسرار هو الإخفاء والإظهار وهو من الأضداد . أما ورود هذه اللفظة بمعنى الإخفاء فظاهر ، وأماورودها بمعنى الإظهار فهوقولهم : سر الشيء وأسره إذا أظهره إذا عرفت هذا فنقول من الناس من قال : المراد منه إخفاء تلك الندامة والسبب فى هذا الإخفاء

(١) الطبري تفسير ١ / ٨٦.
(٢) الزمخشري، الكشاف ٢ / ٥٣٢ «مطبعة الاستقامة ١٣٦٥».

وجوه ..) وهو يفصل فى هذه الوجوه فيأتى بما ذكره الزمخشرى فى شىء من الإسهاب . ثم يعود فيقول : (. . وأما من فسر الإسرار بالإظهار فقوله ظاهر لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لأجل حفظ الرياسة ، وفى القيامة بطل هذا الفرض فوجب الإظهار . وثانيهما قوله تعالى : (وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) فقيل بين المؤمنين والكافرين ، وقيل : بين الرؤساء والأتباع وقيل بين الكفار بإنزال العقوبة عليهم)[١] .

لعل هذا الخلاف بين المفسرين يوحى لنا الخلاف بين أهل السنة من المفسرين وبين المعتزلة منهم فهذا التفصيل وهذه المحاكمة العقلية يكون من نتائجها أن يبدو فى الآية لون من فكرة التضاد فى هذا الفعل .

ثم إنك إذا أعدت النظر فى هذه الوجوه تبينت أن معنى الضدية فى الفعل آت من اعتبار خارجى كما يبدو فى كلام الفخر الرازى ، فقوله : « إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق فى الدنيا لأجل حفظ الرياسة ، وفى القيامة بطل هذا الفرض فوجب الإظهار » . يشير إلى أن الإظهار قد كان من معانى الفعل لسبب تقتضيه ظروف هؤلاء الكفار .

على أن الزمخشرى حين أورد معنى الإظهار ذكر أن ذلك من قولهم : « أسر الشىء وأشره إذا أظهره » . ولا بد لنا أن نقف قليلا على عبارته هذه . فقوله « أشره » بالشين بمعنى أظهره قد يوحى لنا أن فى « أسر » بالسين إبدالا بين السين والشين وكثيراً ما يحصل هذا الإبدال بين السين والشين . ولنا أن نقول إن « الإسرار » هو الإظهار ثم عرض لهذه المادة الإبدال فجاءت بالسين .

على أن استقراءنا لمادة الأضداد التى جاءت فى كتاب محمد بن القاسم الأنبارى دلنا على طائفة من ذلك مما ألصق بالأضداد ولا تتوفر فيه فكرة التضاد بوجه من الوجوه وها نحن نعرض لذلك .

---

(١) الفخر الرازي ٥ / ٣ .

قال : « ومما يشبه الأضداد الأصفر يقع على الأصفر ، وربما أوقعته العرب على الأسود قال الله عز وجل : « صفراء فاقع لونها »[١] . فقال بعض المفسرين : هى صفراء حتى ظلفها وقرناها أصفران . وقال آخرون : الصفراء السوداء . وقال جل اسمه : « كأنه جمالة صفر »[٢] فقال عدة من المفسرين : الصفر : السود ، وقال الفراء : إنما قالت للجمل الأسود : أصفر ، لأن سواده تعلوه صفرة فسموه أصفر ، . . . »[٣] وهكذا يمضى ابن الأنبارى فيأتى بأقوال من أوقعوا الأصفر على الأصفر الحقيق .

وقال : « وقال ابن قتيبة : « توسد » حرف من الأضداد يقال قد توسد فلان القرآن إذا نام عليه وجعله كالوسادة له ، فلم يكثر تلاوته ولم يقم بحقه ، ويقال : قد توسد القرآن إذا أكثر تلاوته ، وقام به فى الليل فصار كالوسادة وبدلا منها ، وكالشعار والدثار »[٤] . فأنت ترى أن تحميل الفعل « توسد » معنى التضاد غير واضح فى النص وأن ذلك لا يوصل إليه ألا بهذا التفسير الطويل الذى لا يخلو من الاصطناع .

وقال : « وأشد حرف من الأضداد ، يقال : بلغ فلان أشده إذا بلغ ثمانى عشرة سنة ، وبلغ أشده إذا بلغ أربعين سنة ، قال الله عز وجل : « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة »[٥] . قال الفراء :« ويقال : الأشد أربعون سنة . قال : وحكى لى بعض المشيخة بإسناد ذكره أن الأشد ثلاث وثلاثون سنة والاستواء أربعون سنة »[٦].

---

(١) سورة البقرة الآية ٦٩.
(٢) سورة المرسلات الآية ٣٣.
(٣) ابن الأنباري، الأضداد ص ١١٠.
(٤) ابن الأنباري، الأضداد ص ١٦.
(٥) سورة الأحقاف الآية ١٥.
(٦) الأضداد ص ٢٢٢.

ومن هنا يتبين لنا اختلافهم فى تحديد السن التى يبلغ فيها الرجل الأشد وفى كل هذا لم تكن فكرة التضاد متوفرة .

وقال : « ومما فسر من كتاب الله جل وعز تفسيرين متضادين قوله تبارك وتعالى : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » [١] يقال : معناه خلقها مرفوعة بلا عمد فالجحد واقع فى موضعه الذى يجب كونه فيه . ثم قال بعد « ترونها » أى لا تحتاجون مع الرؤية إلى خبر » ويفسر تفسيراً آخر ، وهو الله الذى رفع السموات بعمد لا ترون تلك العمد فدخل الجحد على العمد فى اللفظ وهو فى المعنى منقول إلى الرؤية . . . »[٢] .

وفى هذا دليل على أن الذين تصدوا لجمع الأضداد اندفعوا فى هذا السبيل اندفاعاً عجيباً فصاروا يتلمسون هذه المادة فى ضروب من التأويل والتفسير ، والنظر الصحيح لا يمكن أن يثبت ذلك . ومثل ذلك ما جاء فى الكتاب :

« ومما يفسر تفسيرين متضادين قول الجعدى .

إنك أنت المحزون فى أثر الحى فإن تنو نيهم تقم

. . . .

قال الأصمعى فى (فإن تنو نيهم تقم) معناه تقم صدور الإبل وتلحق بأهلك ؛ قال كيسان : كذب الأصمعى لم يرد النابغة هذا ، وقد سمع الجواب من أبى عمرو ولكنه نسيه وإنما أراد : فإن تنو ما نووا من البعد والقطيعة تقم ولا تتبعهم حتى يوافق فعلهم فعلك وما تنوى ينوون »[٣].

(١) سورة الرعد الآية ١٥ .
(٢) الأضداد ص ٢٦٨ .
(٣) الأضداد ص ٢٦٩ .

وفى هذا توسع وتجوز لإثبات حقيقة التضاد فى حين أن التضاد غير واقع فيه .
وقال محمد بن القاسم الأنبارى فى كتابه :

و « أو » من الأضداد تكون بمعنى الشك فى قولهم : يقوم هذا أو هذا أى يقوم أحدهما . وتكون معطوفة فى الشيء المعلوم الذى لا شك فيه كقول جرير :

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

أراد وكانت[١] .

وهذا أيضاً ضرب من الاصطناع لإثبات شىء لا يتوهم فيه التضاد إلا بسبب ضعيف واتخاذ البيت حجة على ذلك لا يقوم دليلا مطلقاً .

ومثل هذا ما جاء أيضاً :

« ومما يفسر من القرآن تفسيرين متضادين قول الله عز وجل : « وأصبح فؤاد أم مو سى فارغاً إن كادت لتبدى به » [٢] فيقول المفسرون : معنى الآية وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من كل هم إلا من الاهتمام بموسى والإشفاق عليه وإن كادت لتبدى باسمه ، فتقول : هو ابنى .

وقال بعض أهل اللغة : معنى الآية وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من الحزن لعلمها بأن موسى لم يقتل ، إذ كان الله عز وجل قد أوحى إليها أنه يرده عليها ويجعله من المرسلين إن كادت لتبدى به ، أى بذهاب الحزن » [٣] .

ولا أريد أن أطيل فى ذكر هذه الأمثله التى تثبت أن مادة الأضداد لم تكن

---

(١) الأضداد ص ٢٢٩ .
(٢) سورة القصص الآية ١٠ .
(٣) الأضداد ص ٢٨٩ .

على هذا النحو من الاتساع والشمول فى لغة العرب ولكن أسباباً كثيرة عرضنا لها دفعت الرواة الأقدمين وعلماء اللغة على النهاب بعيداً فى هذا السبيل فأدخلوا فى الموضوع أشياء كثيرة لم تكن تشتمل على طبيعة الأضداد : وقد أحصيت من هذا القبيل مايقرب من مائة وخمسين مادة حفلت بها كتب الأضداد وهى لا تملك الضدية إلا بهذه الوجوه البعيدة من التأويل والتفسير منها :

ظنّ ، رجا . خال ندّ ، ضدّ ، قرء الوامق، صَرَى ، سواء ، ضرّاء ،مسجور ، ذَعور ، بردتُ ، قانع ، أخفيت،المستخفى ، سارب ، وثب، نَبَل ، طرب ، مأتم، بعد ، مقتوين ، عائذ ، أون ، ضعف ، مثل،سجع ، خاف،حميم،خجل ، راغ غفر ، تأثّم ، قلَع ، تصدّق، تخنّث، بعض، عَقوق، توسّد الدغطاية ، حَرْف ،الصرْعان، شرَف،فادر، خُلوف الجرّبة، مُعصِر حَزَوّر، بعل،أخلف ظهرىّ ، يَدّية ، الدُرع، أمّة ، تَسَل ، مُسْيح ، مَرى، حافل ، طبَخ، ذاع،أراح،إجلعبّ .ثنىّ ، اعتذر، حجرَ ،صفر ، بَعْل ،ناس ، غانية ، زبية ،فوق ، صلاة ، ساجد،أحنف،جُرموز، نهيك ، عاديات، أعور، رَبَع، خابت، تبيع، تَجَرّ ، زوج ،عاقل،فارض ،استقصى، هَوَى، ثلّ، أسود ، نسِى ، أصغى ، سلَف نَجد[1] .

وهذه المادة قد حفلت بها كتب الأضداد وقد اعتمدت فيها على كتاب محمد ابن القاسم الأنبارى والرجوع إليها يؤيد أن هذه المادة قد توسع فيها فشملت مواد لم تكن منها .

ولابدلنا أن نلاحظ أن الطائفة من الأضداد يمكن ردها إلى اعتبارات اجتماعية ومن ذلك جملة من المواد التى تنصرف إلى الناحية الإيجابية بدلا من سلبية مقيتة وهذا الانصراف على سبيل التفاؤل . ومن ذلك « بصير » للأعمى وفى هذه الكلمة شىء آخر غير التفاؤل هو أن فى إطلاق (بصير) على الأعمى تكريماً وإحساناً للأعمى وهو لون من التأدب والتظرف .

(١) انظر فهرس الألفاظ الأضداد في كتاب الأضداد لمحمد بن القاسم الأنباري .

ومن ذلك (السليم) لديغ ومثله (جلل) للأمر الحقير والأمر العظيم . ومنه أيضاً (المفازة) للصحراء وهى مهلكة فى حقيقتها أما استعارة (المفازة) لها تفاؤلا أى أن قاصدها والسالك فيها يعود منها فائزاً .

وقد نلجأ إلى التضاد فى لغتنا العامية الدارجة على سبيل التهكم فنطلق «النجيب» على من يفتقر إلى النجابة ، وقد تطلق (العاقل) على مجنون ومثله (الكريم) على البخيل الشحيح .

على أن العامية قد تلجأ إلى فكرة التضاد تفاؤلاً على نحو ماعرفنا فى اللغة الفصيحة فهم يكنون عن الأعور بـ « كريم عين » كما وجدت أن التونسيين يطلقون عل النار « العافية » وهذا ماورد فى اللغة الفصيحة أيضاً . كما يسمون (الفحم) (بياضاً) هروباً من سواد الفحم إلى البياض الذى يتفاءل به . هذا عرض سريع لمواد الأضداد العربية أتيت فيه على موادها وعلى حقيقة التضاد فيها وكيف تطورت وعلى مكانة الأضداد فى الدراسات التاريخية اللغوية وسأتبع ذلك بالمواد الأخرى التى تدخل فى تاريخ المشكله اللغوية .

الفصل التاسع

الإبدال والقلب

يؤلف بناء الكلمة العربية مشكلة لغوية ينبغى الوقوف عندها والنظر فيها من نواح عدة. فهى لاتقتصر على الناحية الفنية فى كيفية صوغ الكلمة، بل تتجاوز ذلك فتكون وسيلة تدل على شىء من تاريخ العربية.

فمن اهتمام العربية بالأبنية كثرتها، فقد ذكر سيبويه فى أبنية الأسماء أنها نحو من ثلاثمائة وزن وبضعة أوزان.(١)

وقد يكون هذا راجعاً الى أن العرب كانوا يلتمسون رشاقة اللفظ وتوفر الناحية الموسيقية، وبناء اللفظة العربية فى حركاتها وسكناتها وأصواتها يظهر جنوح العربية إلى بلوغ هذا التناسب الصوتى الموسيقى.(٢)

وقد عنى الأقدمون بجمع اللغة وتصنيفها عناية كبيرة. ولكن هذه الجهود المضنية لم تستوف كل مايجب استيفاؤه. فقد أثر عن أبى عمرو بن العلاء أنه قال:

---

(١) السيوطي، المزهر ٢ / ٢.

(٢) إن الحديث الشريف (ليرجعن مأزورات غير مأجورات (يدل على هذا النحو مهمزة الميل الموسيقى، فقد قالوا: إن «مأزورات «جاءت على هذا النحو مهموزة لتتساوق مع «مأجورات». والوجه أن يقال: «موزورات» من الوزرو إثباتها بالواو يبعد هذه لمساوقة الموسيقية.

والإتباع والمزاوجة في العربية يؤيد هذا الذي نذهب إليه؛ فإن قولهم: «حيص بيص» و«شذر مذر» وإلى غير ذلك يفيد المعنى تقوية المراد، غير أن هذه التقوية لا تحصل إلا إذا توفر شيء من التساوق والانسجام بين الألفاظ.

« ما انتهى إليكم من كلام العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » (١) .

وقد ذكروا أن رجلاً سأل الخليل بن أحمد : « أخبرني عما وضعت مما سميت عربية : أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ » فقال : « لا » كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ فقال : « أحمل على الأكثر وأسمى ما خالفني لغات » (٢)

ولا أريد أن أعرض للقياس الذي يفهم من هذه العبارة ،وإنما أريد أن أفيد مما وسمه الخليل بـ « لغات » .

أقول : إن هذا العربية الواسعة كما هي في المطولات من المعجمات وكتب اللغة الأخرى ، قد بلغت ما بلغت من السعة بكثير من الوسائل وها أنا أعرض لمشكلة من هذه المشكلات وهي مادعي عند الأقدمين بمسألة « الإبدال » .

الإبدال من مصطلح النحويين واللغويين وملاك الأمر فيه عند النحاة معروف للدارسين . وقد أجمل النحويون مواضع الإبدال وهي مسائل قياسية مطردة لا تهمنا في هذا المبحث .

أما الإبدال اللغوى فكثير ولا يحصره ضابط وقالوا: إن الإبدال يعرض لكثير من أصوات العربية . وهو عندهم إقامة حرف مكان حرف مع الإبقاء على سائر أحرف الكلمة وهكذا تشترك الكلمتان أو الكلمات بحرفين أو أكثر ويبدل حرف منها بحرف آخر قد يكون قريباً منه في نشأته من جهاز النطق أو قد يشتمل على شيء من خواصه ، وقد يكون بعيداً منه .

---

(١) ابن الأنباري نزهة الألباء ص ٣٢.
(٢) أحمد أمين؛ ضحى الإسلام ٢ / ٢٥٩.

فإذا قلنا : قضب وقضف فقد اشتركا فى القاف والضاد واختلفا فى البـاء والفاء وأحدهما مبدل من الآخر وهما متقـاربان مخرجاً . أما إذا قلنا : « قطع و « قطف » فقـد اشتركا فى القاف والطاء واختلفا فى العين والفاء وهما متباعدان مخرجاً .

وقد عرف مصطلح « الإبدال » أول ماعرف بما صنف علماء اللغة الأقدمون كالأصمعى والزجاجى وابن السكيت وأبي الطيب من رسائل فى هذا الموضوع واتخاذهم « الإبدال » اسماً على هذه الحقيقة اللغوية . غير أن آخرين التزموا بمصطلحات أخرى للدلالة على ماأسماه غيرهم بـ « الإبدال » فقد شاع البدل والمبدول والقلب والمقلوب والمحول والمضارعة والتعاقب والمعاقبة والنظائر والاشتقاق الكبير أو الأكبر .

وأبو الفتح عثمان بن جنى من علماء القرن الرابع الهجرى سمى كتابه فى هذا الموضوع بـ « تعاقب العربية »[١] ، كما كتب فى الخصائص « باب الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه »[٢] .

وختم هذا الباب بقوله : « ونحن نعتقد أن نشرح كتاب يعقوب بن السكيت[٣] فى القلب « والإبدال » . ولم يشر إلى علاقة الموضوع بضرب من الاشتقاق .

وقد جعله ابن فارس فى كتابه « الصاحبي » فى خصائص العربية فقال : « من سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مقام بعض: مدحه ومدهه ؛ وفرس رِفَلّ ورِفَنّ وهو كثير مشهور .[٤]

(١) قال فيه أبو الفتح: وأطرف به، وحجمه مائتا ورقة (عن كتاب الإبدال لأبي الطيب اللغوي، تحقيق عز الدين التنوخي ص ٧).

(٢) ابن جنى، الخصائص ٢ / ٨٢.

(٣) كتاب القلب والإبدال لابن السكيت في مجموعة «الكنز اللغوي بيروت سنة ١٩٠٣.

(٤) ابن فارس والصاحبي عن المزهر للسيوطي.

وقد وصف « الإبدال » بـ « الأكبر » في كتب المتأخرين كالسيد الجرجاني وأصحاب « مراح الأرواح » و « نزهة الأحداق والعلم الخفاق » و « سر الليال » .

ومقالة ابن فارس في الإبدال تشعر أن العرب كانوا يقيمون حرفا مكان حرف وبهذا صار من سننهم ، وما أظن أن المعربين في أي عصر من عصور العربية يملكون هذه الميزة المصطنعة أو كأنهم حين يقولون لا تنطلق ألسنتهم بلغتهم البديهية وإنما يستعيرون شيئاً غريباً عنهم . أريد أن أقول : إن اللغة فطرة وبداهة فالذي يقول « مدحه » لا يمكن أن ينسرح لسانه فيقول « مدهه » والعكس صحيح أيضاً .

وعلى هذا فلم نعدم أن نجد بين الأقدمين من نظر إلى هذه المشكلة النظر الصحيح فقد قال أبو الطيب اللغوي الحلبي : « ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد حتى لا يختلفا إلا في حرف واحد .

قال : والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طوراً مهموزة وطوراً غير مهموزة ؛ ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى ، وكذلك أبدال لام التعريف ميما ، والهمزة المصدرة عيناً ؛ كقولهم في نحو أن(١) عن ، لا تشترك العرب في شيء من ذلك . إنما يقول هذا قوم وذاك آخرون)(٢) .

وقال أبو حيان في (شرح التسهيل) : قال شيخنا الأستاذ أبو الحسن بن الصائغ قلما تجد حرفا إلا وقد جاء فيه البدل ولو نادراً (٣).

وقال أبو عبيد في (الغريب المصنف) : باب البدل من الحروف — مدهته

---

(١) قال في القاموس: تكون مصدرية وفي لغة تميم يقولون: أعجبني عن تفعل.
(٢) السيوطي، المزهر ١ / ٤٦٠.
(٣) المصدر السابق ١ / ٤٦١.

أمدَهُه مَدْهاً ، يعنى مدحته ، واستأديت عليه مثل استمديت والأيم والأين : الحية . (١) .

وقد فسر ابن جنى معانى كثير من الأفعال المتعاقبة تفسيراً جعل به (أصوات الحروف على سمت الأحداث) مثال ذلك قولهم : خضم وقضم فالخضم : لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء ، وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم : للصوت اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها ، وفى الخبر (قد يدرك الخضم بالقضم) أى الرخاء بالشدة واللين بالشظف وعليه قول أبى الدرداء : (يخضمون ونقضم والموعد الله) (٢) .

وإذا عرضنا لمجاميع الإبدال وجدنا أنها فى كثير من الأحيان تخلو من العزو فإن كثيراً مما ذكره أبو يوسف يعقوب بن السكيت وأبو الطيب اللغوى مفتقر للعزو فلم يخصا الألفاظ التى اعتورها الإبدال ببيئة معينة . و قد جرت على هذه الطريقة معجمات العربية ، فكأن الصورتين اللتين يعرض لهما الإبدال للفظ متساويتان فى الاستعمال وفى مبلغ الفصاحة التى رسمت لمفردات العربية .

وقد ذهب ابن السكيت وغيره من الأقدمين إلى أنه قد يحصل الإبدال ويقول به أبناء بيئة واحدة .

قال ابن السكيت فى « الإبدال » : حضرنى أعرابيان من بنى كلاب ، فقال أحدهما (أنفحة) والآخر (منفحة) ، ثم افترقا على أن يسألا أشياخ بنى كلاب ، فاتفق جماعة منهم على قول ذا ، وجماعة على قول ذا (٣) .

---

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن جنى، الخصائص ٢ / ١٥٧.

(٣) ابن السكيت الإبدال (ضمن الكنز اللغوي بيروت ١٩٠٣) عن «الإبدال» لأبي الطيب اللغوي تحقيق «عز الدين التنوخي» دمشق ١٩٦٠).

ومثل ابن السكيت أبو الحسن ابن سيده الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ الذى ذهب إلى إمكان المعاقبة فى القبيلة الواحدة فقال:

« وأذكر الآن شيئا من المعاقبة وأرى كيف تدخل الياء على الواو والواو على الياء من غير علة (عند القبيلة الواحدة من العرب) ، وإما لافتراق القبيلتين فى اللغتين ، فأما ما دخلت فيه الواو على الياء والياء على الواو لعلة فلا حاجة إلى ذكره فى هذا الكتاب لأنه قانون من قوانين التصريف[١] .

وقد لاحظ ابن سيده أن فى الإبدال صوراً فمنه البدل ومنه مايجرى مجرى البدل ، كما لو كانت اللفظتان المتقاربتان لغتين متعاقبتين ، ومثال ما يجرى مجرى البدل نحو : دهدهت الحجر ودهديته ، زعم القارسى أنهما لغتان : الهاء فى تميم ، والياء فى أهل العالية ، وزعم الفارسى أن تميماً تهمز المنشار (المئشار) وغيرهم لايهمزه وقالوا جمس الودك وجمد وليس هذا بدلا : أولا ترى أن بعضهم يقول جمس الودك وجمد الماء ولا يقال :

جمس الماء وجمد الودك ، وكان الأصمعى يخطىء ذا الرمة فى قوله :

نغار إذا ما الروع أبدى على البرى ونقرى سديف الشحم والماء جامس[٢]

وقد عرض المحدثون لهذه المشكلة اللغوية ، ومن الأوائل الذين بحثوا فى الموضوع أحمد فارس الشدياق فقد كتب معجمه الضخم وهو « سر الليـــال فى القلب والإبدال » وقد ذكر فى مقدمته مانصه :

« وأكثر ما يكون القلب والإبدال فى الألفاظ الدالة على القطع والكسر والخرق والهدم والشق والعزق والتبديد لأنها كلها من جنس واحد وجلتها مأخوذة

---

(١) ابن سيده، المخصص ١٤ / ١٩.
(٢) ابن سيده، المخصص ١٢ / ٢٧٤.

من حكاية صوت نحو : قتّ وقدّ وقضّ وقطّ وجدّ وجثّ وجذّ وجزّ[(١)] والخ.

وكأن الشدياق أراد أن يثبت أن أصل هذه المواد المضعفة حكاية الأصوات وهى مسألة قديمة أشار إليها بوضوح ابن جنى من الأقدمين. كما أنه يرى أن المضاعف هو الأصل ثم يزاد حرف ثالث لتخصيص فكرة القطع واتصالها بنوع «المقطوع» ومعنى هذا أن « قطّ » غير « قطم ».

وهذا لا يستقيم لأحمد فارس الشدياق إلا إذا افترضنا أن الثنائى (قط) و (قد) و (جد) و (جز) وغير ذلك هو الأصل ثم يصار من الثنائى إلى المضعف الثلاثى ثم يتم ما دعوه بالإبدال أو بتثليث الثنائى بحرف ثالث يخصص المعنى .

ومن المحدثين أيضاً مصطفى صادق الرافعى ، فقد عرض لمسألة « الإبدال اللغوى » فذهب إلى إمكان وقوع المعاقبة بين الحرفين وقال : « والمعاقبة إما أن تكون لغة عند القبيلة الواحدة ، أو تكون لافتراق القبيلتين فى اللغتين»[(٢)] .

وأريد أن أخلص من هذا العرض لأقوال الأقدمين والمحدثين فى هذه المشكلة إلى أن العربية قد اشتملت على لغات عدة هى لغات القبائل المختلفة . وطبيعى أن يحصل الخلاف بين هذه اللغات لاختلاف البيئة . وعلى هذا فإن كثيراً مما حمل على الإبدال داخل ضمن هذه اللغات . وعلى هذا فليس هناك إبدال، بل هناك اختلاف بين المعربين فالذى يقول : « صراط » لا يقولها بالسين « سراط » والعكس حاصل أيضاً .

ذكر أبو الطيب اللغوى « أن أبا حاتم السجستانى قال : قلت لأم الهيثم : هل تبدل العرب من الجيم ياء فى شىء من الكلام ؟ فقالت : نعم ، ثم أنشدتنى :

---

(١) الشدياق، سر الليال ص ٥.

(٢) مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب ١ / ١٤٦.

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنى فأبعدكن الله من شيرات[١]

والشيرات هى الشجرات وهى لغة جماعة ويؤيد هذا قراءة بعضهم « ولا تقربا هذه الشيرة » حكاه أبو زيد[٢] .

ويروى أبو الطيب عن الفراء فى هذا الموضوع ما يدل على أن الفراء كان يدرك ألفاظ المعاقبة إدراكا صحيحاً فهو يقول :

« إن نفراً من بلعنبر يصيرون السين ـ إذا كانت مقدمة وجاءت بعدها (ط . ق . غ . خ) ـ صاداً ، وذلك أن الطاء حرف تضع فيه لسانك فى حنكك فينطبق الصوت فتنقلب السين صادا صورتها صورة الطاء واستخفوها ليكون المخرج واحداً كما استخفوا الإدغام ، فمن ذلك قولهم : الصراط والسراط ، قال : وهى بالصاد لغة قريش الأولين التى جاء بها الكتاب قال : وعامة العرب تجعلها سيناً»[٣] .

وكأن جماعة من الأقدمين أرادوا أن يضعوا لهذه المسألة اللغوية إشارات هى أقرب إلى القواعد والحدود المقررة . فهذا ابن السيد البطليوسى الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ قرر بأن :

«الحرف الأضعف يقلب إلى الأقوى ، ولا يقلب الأقوى إلى الأضعف. وشرح هذا بقوله : « كل سين وقع بعدها حرف من الحروف الخمسة (ق . خ . غ . ع . ط) جاز قلبها صاداً نحو سقر وصقر ، ويساقون ويصاقون، وسخر منه وصخر من الهزء ، فأما الذى من الحجارة فبالصاد لاغير ، أما (يساقون)[٤] فإنما جاز قلبها صاداً

---

(١) أبو الطيب اللغوي ، الإبدال ١ / ١٤٦ .

(٢) ابن خالويه، مختصر في شواذ القرآن (شواذ سورة البقرة).

(٣) أبو الطيب اللغوي ، الإبدال ١ / ١٥ .

(٤) يشير إلى قوله تعالى: «يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون» الأنفال ٦.

(يصاقون) لأن السين متسفلة وأضعف من الصاد المستعلية ، والأضعف ينقلب إلى الأقوى ، ولأن السين أصل ، وإذا كانت الصاد أصلا لم يجز قلبها سيناً كصخر بمعنى الحجر ، فلا يجوز أن يقال فيه (سخر) لأن الصاد أصل وهى أقوى من السين ، والأقوى لا ينقلب إلى الأوهى»[1] .

وما ذكره ابن السيد صحيح فى كون تقارب المخرج هو الذى يؤدى إلى هذه المعاقبة ، أما قوله إن الصاد « أصل» أو السين « أصل» فليس بصحيح وذلك لأن الكلمة هى بالسين عند جماعة وبالصاد عند آخرين والسين أصل عند من ينطق الكلمة بالسين ، وكذلك الصاد أصل عند من ينطق الكلمة بالصاد .

وإلى مثل هذا ذهب أبو العباس المبرد إلى القول بتعاقب الحروف إذا توفر قرب المخارج فأورد قول النعمان بن المنذر لحجل بن نضلة : « أردت أن تذيمه فمدهته » قال أبو العباس :وقوله (فمدهته) يريد مدحته فأبدل من الحاء هاء لقرب المخرج ، وبنو سعد بن زيد مناة بن تميم كذلك تقول ولحم ومن قاربها قال رؤبة : (لله در الغانيات المُدَّه) يريد المدح ، وفى الأرجوزة : (بَرَّاقَ أصلاد الجبين الأجله) يريد:الأجلح ، والعرب تقول : جَلِحَ الرجل يجلَح جلحاً ؛ وجَلِهَ يجلَه جَلَهاً والمعنى واحد[2] .

وإلى مثل هذا ذهب ابن جنى فى سر الصناعة قال : إن أصل القلب (البدل) فى الحروف إنما هو فيما تقارب منها وذلك الدال والطاء والتاء ، والذال والظاء والثاء والهاء والهمزة والميم والنون وغير ذلك مما تدانت مخارجه[3] .

وقد فسر أصحاب المعاجم اللفظة بنظيرتها فى تعاقب الحروف ، فقد جاء فى القاموس المحيط : الحرس الجرس[4] ليشير إلى التعاقب والمناظرة .

(١) أبو الطيب اللغوي، الإبدال ١ / ١٢.
(٢) المبرد، الكامل ٢ / ٩٧.
(٣) ابن جنى سر الصناعة ١ / ١٩٧.
(٤) القاموس مادة ح و س .

ومثل المجد الفيروز ابادى من أصحاب المعجمات الجوهرى من المتقدمين وابن مكرم وغيرهم . جاء فى « اللسان » الشاسب لغة فى الشازب وهو النحيف اليابس من الضُمر[١].

وقد لاحظ الأقدمون فى الفعل المضاعف لوناً من الإبدال من أحد الحرفين المضاعفين ياء فيقال فى حسست ومددت وظننت : حسّيت ومدّيت وظنّيت .

وأشار سيبويه إلى شيء من هذا فقد جاء فى الكتاب :

« هذا باب ماشذ فأبدل مكان اللام ياء لكراهية التضعيف وليس بمطرد ، وذلك قولك تسرّيت وتظنّيت وتقصّيت من تسرّر ونظنّن وتقصّص ، وقيل فى قوله تعالى (إلى طعامك وشرابك لم يتسنه من أن تقديره (لم يتسنّن) فقلبت النون الثانية ياء ، ثم قلبت ألفاً لتطرفها وانفتاح ما قبلها ، وحذفها للجزم ثم جعل مكانها هاء للوقف ، وقال العجاج :

إذا الكرام ابتدروا الباعَ بدَرْ تقضّيَ البازى إذا البازى كَسَرْ

يريد تقضضه من الانقضاض ، ويقال تقصيب من القصة وهذا كله شاذ : لأننا لانقول فى تحبّبَ : تحبّى ، ولا فى تحسّسَ تحسّى وكل هذا التضعيف فيه عربى كثير »[٢] .

أقول إن صيرورة المضعف على هذا النحو جار فى العامية إلى يوم الناس هذا ولعله الصيغة الوحيدة الباقية عند إسناد المضعف إلى ضمائر الرفع فلا يقال «مددت» بل « مديت » .

وقد حفلت العامية المحلية فى كثير من أقطار العربية بما أسماه اللغويون

---

(١) اللسان مادة ش س ب .
(٢) سيبويه ، الكتاب ٢ / ٤٥١ .

بـ « الإبدال » ، واستقراؤنا لشيء من هذه الطرائف العامية يؤيد أن الإبدال يقع في الأحرف التي تتقارب مخارجها مع اختلاف بيئة القائلين . فالمعروف أن الفعل العامي « لغْوَس » يصبح « لعْوَس » كما يصبح « لغوص » و (سأل) يكون (سعل) في لغة كثير من القرويين وأن مجاورة السين للخاء في العامية العراقية تؤدي إلى إبدال الصاد بالسين، يقال : صخام وصخي وصخل وغيرهذا وهوسخام وسخي وسخل .

ولابد من القول إن تعاقب االأحرف على طريقة الإبدال في العربية يؤدي إلى تنويع المعاني واتساع دائرتها فأنت ترى أن الوشوشة تنصرف الى صوت لاتنصرف إليه (الوسوسة) أو (الوصوصة) ، وأن (الهديل) غير (الهدير) وأن (فَلَج) غير (فرَج) أو (فلح) ومثل هذا كثير .

ومعنى هذا أن اختلاف القائلين وتقارب المخارج قد أضافا إلى العربية مادة ضخمة حفل بها المعجم العربي .

على أن هذه السعة التي أضيفت للمعجم العربي بطريقة الإبدال قد توسع فيها وربما دخلها شيء من التجوز والتوسع والكذب ، وذلك أنك تجد الكثير مما عرض له الإبدال كما نص عليه الأقدمون يفتقر للشاهد الصحيح . قال أبو عمرو : التبجُّس والتفجُّس : الكبر وعن الليث الفجس والتفجس عظمة وكبر وتطاول .

ويقال : بعير مُبْلَندٍ ومُكْلَنْدٍ إذا كان شديداً ،وقد ابلندى يبلندي ابلنداداً واكلندى يكلندي أكلنداءً إذا اشتد . ومثل هذه الألفاظ اليتيمة كثير في معجماتنا وهي غفل من الشاهد الفصيح الصحيح ، ثم إنك لا يصعب عليك تمييز المادة التي ارتجلت ارتجالاً وأضيفت إضافة وما أظن أن العربية تفيد من هذه السعة غير المقتضاة .

أما « القلب » فهو نحو جذب وجبذ فقد جعله ابن فارس من سنن العرب(١). وكأن هذه الفوضى ميزة يفخر بها العرب على غيرهم . وقد صنف فيه علماء اللغة الأقدمون ، وكأن ابن فارس قد أدرك أن كثيراً مما أسموه بالمقلوب من الألفاظ غير فصيح ولذلك قال : وليس فى القرآن شىء من هذا فيما أظن(٢).

والذى نراه أن الألفاظ المقلوبة موجودة فى الألسن الدارجة ، ووجودها فيها يشعرنا أنها من الاختلافات الإقليمية اللغوية . يقول كثير من العراقيين : « إن هذا الشيء يساوى نظيره الآخر » فى حين أن جماعات أخرى فى جهات معينة معروفة تقول « ان هذا الشيء يواسى » .

وهذه الاختلافات فى الألوان العامية كثيرة وربما اتخذنا منها دليلاً فى أن الألفاظ المقلوبة فى فصيح العربية ترجع إلى السبب نفسه .

والذى نلاحظه أن القلب يعرض كثيراً فى لغة الأطفال الصغار فى الثالثة أو الرابعة من أعمارهم وهو عيب من عيوب النطق ، وهم يتخلصون من ذلك كلما تقدموا فى السن وأدركوا إدراكا لغة الكبار التى يقلدونها .

على أن طائفة من هذه الألفاظ المقلوبة قد وجدت طريقها فى كتب اللغة دون أن يشار إلى أنها مقلوبة نحو : « فجر » و « فرج » و « سلط » و « سطل » و « جمر » و « رجم » وغير هذا .

وقد ألف ابن السكيت فى هذا النوع كتاباً نقل عنه الجوهرى كثيراً فى « الصحاح » .

وقال ابن دريد فى « الجمهرة » : باب الحروف التى قلبت ، وزعم قوم من النحويين أنها لغات(٣).

(١) السيوطي ، المزهر ١ / ٤٧٦ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .

كلمة أخيرة :

لقد تبينا أن هذه العربية التى ورثناها حفلت بمواد شتّى مما ندعوه اليوم بـ « اللهجات » ، وليس من العلم أن نقول إن لغة القرآن أو الفصحى هى لغة قريش أو لغة الحجاز ، والصحيح أن نقول إنه اجتمعت فى هذه العربية مواد كثيرة ترجع لجماعات عدة فى بيئات عدة . ولم ينص فى الكثير الغالب على القائلين وربما كان ذلك بسبب أن اللغويين والنحويين أرادوا أن يؤلفوا بين أشتات هذه اللغة التى جاء بها الكتاب الكريم والتى أريد لها أن تكون شاملة عامة ليكون المسلمون جميعهم متفقين فى فهمهم لهذه اللغة الكريمة .

وعلى هذا فإن هذه المواد من إبدال وقلب تشير إلى شىء من تاريخ .

الفصل العاشر

تحقيق لغوي
في الصيغ والاستعمالات

هذا بحث حققت فيه طائفة من الصيغ والاستعمالات مما يكثر فى عربيتنا الحديثة المعربة . وأقصد بهذه العربية عربية الدواوين الرسمية ، وعربية الصحافة والإذاعة والمقالة الأدبية . على أن هذا البحث لا يقتصر على هذه النماذج من اللغة الحديثة ، بل يتعدى ذلك للتحقيق فى طائفة من الاستعمالات العربية التى عرفت فى عربيتنا الفصيحة القديمة . وأنا إذ أبحث فى هذا اللون من العلم اللغوى لا أقصد أن أشير إلى مكان التجاوز ، أو قل مواطن الخطإ فى هذه المربيه الحديثة ، ولـكنى أريد أن أشير إلى أن هذه العربية الحديثة هى لغة هذا العصر الحاضر بحاجاته العديدة ووسائله المختلفة وما وجد فيه وما يجد من أشياء ومستحدثات . وهى استعمالات وصيغ قائمة دائمة أردنا أم لم ترد خضعت لسنة التطور شأن جميع اللغات فى هذا الموضوع .

ومن الواجب أن نسجل هذا التجاوز ، أو قل هذا الجديد لنربط بينه وبين عربيتنا الفصيحة القديمة عملا بالمنهج اللغوى التاريخى . وسنجد أن علم اللغة فى العربية لايتنكر للجديد المولد أو قل لا يريد أن ينسب إلى الخطإ مواد كثيرة . فالشذوذ فى العربية والقول باللغات الخاصة ومسائل التوهم يؤيد ما نذهب إليه فى هذه الحقيقة اللغوية .

وسأتناول فى هذا البحث طائفة من الصيغ تشتمل على جموع مختلفة وأفعال وغير هذا مما دخله شىء من الجديد صرفه عن الوجه الفصيح المشهور .

ألفاظ الجمع :

(١) لقد شاع جمع « مدير » بصيغة اسم الفاعل من « أدار » على « مدراء » في لغة الدواوين الرسمية ، وكأنهم لا يعرفون أن الكلمة تجمع جمع تصحيح على « مديرون » . وأغلب الظن أن الذى سهل هذا التجاوز أنهم حملوا « مدير » على « فعيل » التي تجمع على « فعلاء » . وربما لم يبق « مــدراء » مكاناً لـ « مديرين » في الاستعمال الجارى في العراق .

(٢) ورد في لغة الصحف استعمال « شقاة » جمعاً لـ « شقى » والصحيح أن الكلمة تجمع على « أشقياء » كما هو مشهور معلوم ، فاستعمالهم « شقاة » من باب الخطإ إذ ليس المفرد « شاق » كما نقول : غازى غزاة ووزنه « فعلة » .

(٣) ومثل هذا الخطأ الجديد استعمالهم « ثقاة » بالتاء المربوطة وهم يريدون بها جمع « ثقة » فكأن المفرد من ذلك « ثاق» وهى تجىء في نطقهم بضم الثاء .

(٤) ويجمعون « سائح » على « سواح » فكأن الكلمة جاءت من فعل أجوف واوى والصحيح أن يقال « سياح » ويبدو أن الذى جر إلى هذا الخطإ ضمة السين فى الكلمة المجموعة « سياح » على « فعال » .

(٥) ويجمعون « مدينة » على « مدائن » بالهمزة ، ومثلها « مصيدة » على « مصائد » بالهمزة والصحيح أن تثبت الياء لا الهمزة ذلك أن ما كان فيه الياء أو الواو أصيلة لم يجز أن تبدل همزة ، وعلى هذا حملت « معائش » فى قراءة نافع على الخطإ فى قوله تعالى : « ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون »[١] . وعن ابن عامر : أنه همز على التشبيه بصحائف[٢] .

---

(١) الأعراف ١٠.

(٢) الزمخشري الكشاف ٢ / ٨٠ (طبعة الاستقامة القاهرة ١٣٦٥).

وقد خرج اللغويون والنحويون قراءة نافع هذه بالهمزة على أن « معيشة » وهى « مفعلة » شبهت بـ « فعيلة » .

وقد جد فى لغتنا العربية الحاضرة جموع لم تعرف فى المأثور من نصوص اللغة ، ولكن البحث يهدى إلى شيء يمكن إن ترد إليه هذة المولدات ومن ذلك استعمالهم « مشاكل » جمعاً « لمشكلة » و مهام « جمعاً » لمهمة ولم ترد « مفاعل » جمعاً لـ « مفعلة » صيغة اسم الفاعل . وجمع المؤنث السالم يغنى عن هذا التجاوز . غير أن كتب النحو تورد قول أبى ذؤيب الهذلى :

وإن حـــديثاً منك لو تبذلينه جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل(١)

فالمطافل جمع « مُطفل » وهى ذات طفل وقد جمت « مطافيل » بالأشباع . وربما استطعنا حمـــل « المشاكل » على « المصائب » وعلى « المراضع » جمع « المرضعة » كما فى قوله تعالى : « وحرمنا عليه المراضع من قبل »(٢).

(٦) وقد يعرض لشيء من ألفاظ الجمع خطأ فى الشكل فيقولون : «زخارف» يضم الراء و « تجارب » بضم الراء أيضا و « قنابل » بضم الباء وبذلك خرجت هذه الجموع عن الصيغة الصحيحة الفصيحة وهى « فمالل » بكسر اللام ، والذى أراه أن الضمة اجتلبت خطأ من ضمة المفرد فالمفردات هى « زخرف » بضم الراء و « تجرُبة » بضم الراء على النطق العامى السائر فكأنها ليست مصدر « جرب » على « تفعلة » . ومثلهما « قنبلة » بضم الباء بمفرد « قنابل » .

(٧) وربما تحول الجمع فى هذه العربية الدارجة إلى مفرد فى الاستعمال ومن ذلك استعمالهم « آونة » فكأنها تحولت عن جمع لـ « أوان » وهى لذلك تعقب

---

(١) الرضى، شرح الشافية ٤ / ١٥٥.
(٢) الزمخشري الكشاف ٣/ ٣٩٦.

فى الاستعمال أحيانا لفظ « طوراً » أو « حينا » ولذلك أيضا خفيت على كثيرين من طلاب الدرس .

(٨) وقد يجمعون « حاجـــة » على « حاجيات » فيقولون « الحاجيات المنزلية » ولا ندرى كيف جئ بهذه الياء .

(٩) وقد نتوهم صيغة الجمع فى ألفاظ منها : « أثاث » فيقولون : أثاث فاخر والصفة تشعر باستعمال الجمع . ودلالة « الأثاث » معروفة فهى تدل على مواد من رياش ومتاع . وفى كتب اللغة أن الأثاث المال أجمع ، الإبل والغنم والعبيد والمتاع . وقال الفراء : الأثاث لا واحد لها ، كما أن المتاع لا واحد له . وجاءت الـكلمة فى لغة التنزيل : « وكم أهلـكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا »[١] وقوله : « ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً »[٢] .

على أن هذا المعنى يثبت للـكلمة فى صورتها العبرانية وإذا تتبعنا فرائد العربية وجدنا شيئا يدلنا على وجود هذه الـكلمة فى صورة أخرى فى مادة عربية وهى «لات» النافية العاملة عمل « ليس » وكأن النحويين قد وقفوا على التاء فى«لات» وفطنوا إلى أن النافية هى « لا » ثم ركبت مع التاء ، ولـكنهم لم يهتدوا إلى حقيقة التاء فقد قال جماعة : أنها تاء التأنيث ، وقال آخرون : إنها للمبالغة ، وقالوا أنها لـكلتيهما[٣] . والذى يرجحه التحقيق أن « لات » هى « لا ايت » ثم خففت وركبت على نحو ما ركبت « ليس » التى هى « لا ايس » و « ايس » تعنى « وجود » فـكأن « لا أيس » لاشىء، ويدل على هذا أن العبرية « ايش » تعنى وجود أو قل إن (شىء) مقلوب (ايش) .

ومثل (أثاث) فى الإفراد (رفات) ولـكن العربية الحديثة حملتها على جمع

---

(١) مريم ٧٤.
(٢) النحل ٨٠.
(٣) ابن عقيل، شرح ألفية ابن مالك.

المؤنث لوجود الألف والتاء . والرفات الحطام من كل شيء تكسر . وفى التنزيل العزيز : « أئذا كنا عظاماً ورفاتاً »[١] وقد عرض هذا الخطأ للغة السيد أحمد الصافى النجفى يستعمل الكلمة جمعاً غير مرة فى شعره .

(١٠) وقد منعت لغتنا الدارجة الحديثة — ولاسيما مانسمعه على ألسنة الذيعين فى العراق — الصرف عن الجموع على زنة « أفعال » فقد منعوا « ألوان » و « أغراض » وغير ذلك من الصرف وكأنهم حملوا ذلك على « أشياء » وما علموا أن فى منع « أشياء » من التنوين كلاماً كثيراً لا نرى حاجة لنعرض له فى هذا المكان .

مواد أخرى :

يقال الآن : « رجل مجرب » بصيغة اسم الفاعل وهو قياس صحيح ، فالرجل المجرب هو الذى عرف الأمور وجربها ، أما المجرب بالفتح فهو من جربته الأمور وأحكمته . والذى نعرفه أن الكلمة فى صيغة المفعول هى التى تكلمت بها العرب وجاءت فى كلامهم ، ولا بد أن نسجل هنا أن اللغة الحديثة عدلت عن اسم المفعول إلى اسم الفاعل وذلك لاختلاف النظر إلى الفعل وعلاقة الفعل بالفاعل من حيث الإيجاب والسلب وهذا لون من ألوان التطور اللغوى .

ندب :

التزمت العربية المعاصرة بصيغة « انتدب » فى حالة التعدى والفصيح المشهور هو الفعل « ندب » يقال : ندب القومَ إلى الأمر يندبهم ندباً ، وندبت فلاناً ولا يقول : انتدبته . أما « انتدب » فهو فعل لازم يقولون : انتدبوا إليه أى أسرعوا، وانتدب القومُ من ذوات أنفسهم أيضاً دون أن يندبوا له .

---

(١) الإسراء ٩٨.

قال الجوهرى فى الصحاح : ندبه للأمر فانتدب له أى دعاه له فأجاب وفى الحديث : انتدب الله لمن يخرج فى سبيله أى أجابه إلى غفرانه . ويتبين من هذا استعمال الفعل « انتدب » بمعنى « ندب » كما فى عربيتنا الفصيحة شىء لم تجر به لغة العرب الفصيحة القديمة . ولم يشذ عن أصحاب المعجمات فى هذه المادة إلا الفيومى فى « المصباح المنير » فقد أثبت أن « انتدب » مثل « ندب » ولم يشر إلى مرجع يؤيده فى هذا على غير عادته فى ذكر المراجع .

استهتر :

والاستهتار الولوع بالشىء والمستهتَر بزنة اسم المفعول المولع ، وفى الحديث المستهترون بفتح التاء الثانية المولعون بالذكر والتسبيح، وجاء فى حديث آخر : هم الذين استهتروا بذكر الله أى أولعوا ومنه : إن لله ملائكة مستهترين به . وأريد أن أقف على هذه المادة بصيغتها فى البناء للمجهول وبصيغة اسم المفعول لأسجل أن عربيتنا المعاصرة بنت الفعل للمعلوم وينبنى على هذا أن الوصف منه بزنة اسم الفاعل وليس بزنة المفعول ثم إن « المستهتر » فى لغتنا الحاضرة الخارج عن القصد والمتزيد من العبث واللهو « فالمستهتر » قد يكون المكثر من شرب الخمر والذى لا يحترم الحدود فى عبثه ولهوه . وهذا التحول فى المعنى والصيغة لون من ألوان التطور جاءت به عربيتنا الحديثة .

سهم :

السهم النصيب والقدح الذى يقارع به . واستهم الرجلان تقارعا . وساهم القومَ فسهمهم سهماً قارعهم فقرعهم ، وأسهم بينهم أى أقرع . هذا هو المعروف فى كتب اللغة ، ولكن عربيتنا الحاضرة توسعت وأفادت من الاشتقاق فأخذت من « السهم » بمعنى النصيب « أسهم » أو (ساهم) بمعنى شارك وهذان الفعلان من المولدات الحديثة التى لا نجدها فى الفصيحة القديمة . وهذا التوليد باب يظهر غنى العربية فى توليد الألفاظ للافادة منها فى معان جديدة اقتضاها عصرنا الحاضر .

احتج :

ترد هذه اللفظة فى لغة السياسة فى أيامنا فيقال مثلاً : « احتجت الحكومة الأردنية على الاعتداءات اليهودية المتكررة». والمراد استنكرت الصنيع واعتبرته اعتداءاً ورفعت بذلك شكوى إلى الهيأة الدولية . وورد « الاحتجاج » بهذا المعنى فى لغة هذا العصر من الجديد المولد الذى حفلت به العربية . وهو مخالف للاستعمال فى كتابات المتقدمين ، وعندهم « احتج بالشيء واتخذه حجة ليس غير .

فالاحتجاجات كما يرد فى الاستعمالات الصحفية جديد لم تعرفه العربية القديمة

شجب :

يرد هذا الفعل فى عربيتنا الحديثة ولا سيما ما يكتبه أهل السياسة وأهل الصَحافة فيقال مثلاً : « شجبت الصحافة العربية تأييد ألمانيا الغربية لإسرائيل والمراد أنها نددت بالتأييد واستنكرته . وهذا معنى جديد لم يرد فى العربية قبل عصرنا هذا . وقد استعمل المتقدمون » شجب » بمعنى « حزِن » أو « هلك » وقد ورد «شجَب » بالفتح « يشجُب » بالضم شجوبا ، و « شجب » بالكسر « يشجب شجبا » فهو « شاجب وشَجِب « و « أشجبه الله » أهلكه . وليس فى هذه المعانى ما يقرب مما نحن فيه من الاستعمال الحديث .

فشل :

وهذا الفعل من الأفعال الشائعة . فى كتابات أهل هذا العصر ، وهو يعنى ما يعنيه الفعل « خاب » . يقال : فشل فى مسعاه أو كانت نتيجة الفشل . والذى نعرفه من استعمال هذا الفعل لا يقرب من هذا . قال تعالى :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» . والفشل فى الآية الجبن أى تجبنوا عن عدوكم إذا اختلفتم. و فَشِل الرجل فَشَلاً ، فهو فَشِل : كَسِل وضعف وتراخى وجبن . ومن هنا تبين لنا بعد هذا الاستعمال الفصيح القديم عما نستعمله الآن .

خابر :

وهذا الفعل يستعمل فيما يستعمل الفعل (أخبر) أى (أنبأ) وأكثر ماخص الاستعمال هذا الفعل هو الإخبار بالهاتف « التلفون » يقال : خابره أى كلمة وأنبأه مستعيناً بهذه الآلة ، وفى كل هذا ابتعاد عن الاستعمال الفصيح المشهور . والمخابرة من لغة الدواوين الرسمية فى أيامنا هذه فى العراق . يقال : جرت مخابرة فى شأن هذا الموضوع ، أى حدث سؤال وجواب ومكاتبة بين جهات عدة فى هذا الموضوع

والمخابرة فى الاستعمال القديم شىء غير هذا ، ولا يقرب منه فى شىء . فهى المزارعة ببعض مايخرج من الأرض . والخَبْر أن تزرع على النصف أوالثلث ، وهى المخابرة ، وهى الخبرة بكسر الخاء أيضاً . وعن رسول الله (ص) أنه نهى عن المخابرة . والمخابرة المؤاكرة ، والخبير الأكّار ، قال الشاعر :

تجز رءوس الأوس من كل جانب   كجزّ عقاقيل الكروم خبيرها

عاش :

استعمل هذا الفعل استعمالاً جديداً فى أيامنا على طريقة المجاز ، يقال : عاش المسألة أو القضية أو المحنة أو الفترة ، بمعنى كابدها واحتملها وخبر من نتائجها . وهذا الاستعمال كما يبدو نقل للأسلوب الأعجمى ، فى الفرنسية يقال : Ila Veou فى الكلام على شىء مثل هذا . وفى الاستعمال الفرنسى يتعدى الفعل بصورة مباشرة وقد انتقل هذا التعبير إلى العربية من الاستعمال الأعجمى فشاع هذا الفعل فى هذا الاستعمال الجديد إلى مشتقاته الأخرى كما فى قولهم : (الواقع المعاش) بزنة اسم المفعول من غير الثلاثى ، وكان الصحيح أن يقال : المعيش بالرجوع إلى صيغة الثلاثى .

هدف :

والهدف : الغرض المنتضل فيه بالسهام . والهدف : كل شىء عظيم مرتفع ،

وهو كل بناء مرتفع مشرف . هذا هو الذى نصت عليه مطولات اللغة ، والكلمة فى عربيتنا الحاضرة من الكلمات التى كتب لها الشيوع واستخدمت استخداماً كثيراً ، ومن أجل هذا توسعت اللغة فيها فأخذت من الاسم فعلاً ثلاثياً هو (هدف) وهذا الفعل يتعدى بحرف الجر (إلى) فهم يقولون : (هذه الحركة تهدف إلى عدة أغراض) وكأنهم يريدون بذلك (تقصد) واشتقاق هذا الفعل واستعماله على هذا النحو شي جديد لم يثبت فى كلام العرب وهو من المولدات التى وجدت فى لغتنا الحاضرة فقد كانوا يستعملون الرباعى من هذه المادة ، فالأهداف عندهم الدنو والقرب ، وأهدف الشيء دنا وقرب ، ومثله استهدف الشيء أى انتصب .

طمّن :

وهذا فعل جديد شاع فى لغتنا الحاضرة وهو مضعف على (فعّل) فيقولون (يطمن الرغبات) أى (يكفى الحاجات ويسد النقص) . وهذا الفعل لا وجود له فى العربية الفصيحة القديمة ، وهو مولد على طريقة التضعيف والحزم من (طَمْأَنَ[1]) والطمأنينة والاطمئنان معروفان .

قرن :

ومن هذه المادة الفعل (قارن) وقارن الشيءُ الشيءَ مقارنةً وقراناً اقترن به وصاحبه . ولغتنا الحاضرة تستعمل الفعل (قارن) فى قولهم : (قارن الشيء بالشيء) على نحو غير الذى أثبتته كتب اللغة وهو استعمال جديد . والمقارنة فى لغتنا اليوم لا يراد بها الاقتران والمصاحبة وإنما يراد بهـا (الموازنة) فهم إذا وازنوا بين موضوعين من الموضوعات أحدثوا (المقارنة) بمعناها الجديد . والموازنة هى الكلمة

(١) لم يرد «طمأن» الرباعي على هذا النحو في معجمات اللغة وإنما ورد مقلوبه «طأمن» كما ورد المزيد «اطمأن» وذهب سيبويه إلى أن «اطمأن» المزيد بالهمزة والتضعيف مقلوب ومعنى ذلك أن الأصل هو «طأمن» وحجة سيبويه أن «طأمن» غير ذي زيادة. ويبدو لي من هنا أن «طأمن» بهذا الشكل جاء من «أمن» ثم زيدت الطاء على هذا النحو الذي لم يجر كثيراً في العربية.

المقتضاة فى هذا الباب ، فقد عرفنا (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) للآمدى وهو من الكتب الشهيرة فى النقد والبلاغة .

والاستعمال الحديث فى موضوع (الأدب المقارن) هو من تحميل مادة(المقارنة) هذا المعنى الجديد فالموازنة فيما أسموه بالأدب المقارن حاصلة موضوعا وتطبيقا .

مبرر :

ومن هذه المادة فعل مضعف هو (برّر) على (فعّل) وهو من الأفعال الشائعة التى حفلت بها لغتنا الحديثة فهم يقولون مثلا : (الغاية تبرر الواسطة) أى تجوزها . وهذا شىء جديد لم يرد فى كتب اللغة .

عِوَض:

والعِوض البدل . وهذه الكلمة لاتتبع إلا بحرف الجر «من» فيقال «عوض من» على أننا لا نقول إلا : « عوض عن » فى عربيتنا السائرة الدراجة . ومثل هذا التجاوز فى استعمال حروف الجر قد حصل كثيراً فى لغتنا الحاضرة بحيث خفى الصواب فى أفعال كثيرة وسنعرض لجملة من ذلك .

كلم :

ومن هذه المادة يرد الفعل « تكلم » فيعدونه بحرف «عن» والوجه فيه أن يقال: « تكلم على الشىء » و « الكلام على الشىء » ولا نقول : تكلم عن الشىء كما هو شائع فى لغتنا الحاضرة.

جوب :

وفى هذه المادة يرد الفعل « أجاب » فيمدونه بحرف الجر «على» والوجه فيه أن يقال : « أجاب عن السؤال» و «الجواب عن السؤال» ولا نقول : أجاب على السؤال كما هو معروف فى لغتنا الحاضرة .

ضلع :

ومن هذه المادة يرد الفعل « تضلّع » فيعدونه بحرف الجر « الباء » فيقولون: « تضلع بالشيء » والوجه أن يقال : « تضلع من الشيء » و «هو ضليع من الشيء».

عمق :

ومن هذه المادة يرد الفعل (تعمق) وهو من الأفعال التي تتعدى بنفسها في لغتنا الحديثة ، فيقولون (تعمق الشيء) والوجه أن يتعدى بحرف الجر (في) فيقال : (تعمق في الأمر) .

بدل :

والفعل من هذه المادة (بدّل) فضعف على وزن (فعّل) وتبدّل و (استبدل) وهذه الأفعال ترد في لغتنا العربية في عصرنا الحاضر وهم يستعملونها على النحو الآتي : (بدل الكتاب بكتاب آخر) و(استبدل الشيء بشيء آخر) وحرف الجر في هذا الاستعمال يباشر ما أخذ عوضاً من الشيء . وهذه الاستعمال لا يجري على ما جاء في لغة التنزيل فقد جاء في قوله تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج [1]) وفي قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب [2]) .

وفي قوله تعالى : (ومن يتبدل الكفر بالإيمان [3]) وفي قوله تعالى : (قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير [4]) . على أن هذا الفعل قد يأتي في لغة التنزيل دون أن يتعدى بالحرف : (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً [5])

---

(١) الأحزاب ٥٢ .
(٢) النساء ٢ .
(٣) البقرة ١٠٨
(٤) البقرة ٦١
(٥) النور ٥٥ .

كفء:

الكفء : النظير وكذلك الكُفء والمصدر الكفاءة بالفتح والمد ، ويقال لا كفاء له أى لا نظير له وهو فى الأصل مصدر . ومن الكُفء الكفأءة فى النكاح، وهو أن يكون الزوج مساوياً للمرأة فى حسبها ودينها ونسبها وبيتها وغير ذلك . وهكذا فإن المعنى الذى تنصرف إليه هذه المادة وهو المساواة حاصل فى كثير من المشتقات غير أن عربيتنا الحاضرة قد عدلت عن هذا المعنى وصار الكفء فيها هو (الكافى) القدير فيقولون : هو كفء فى عمله أى قادر ذو كفاية وكان الصحيح أن يقال :هو كاف فى عمله . وعلى هذا فإن (الكفاءة) قد أخذت هذا المعنى المولد الجديد وهو القدرة على الشيء و (فلان ذو كفاءة) يراد به (ذو كفاية).

والكفاية هى المتطلبة فى هذا الاستعمال فقولهم : (رجل كافٍ وكفِيٌ) أى يكفى الأمر ، ويقال : رجل كافيك من رجل .

وأرى أن سبب هذا الوهم الذى أدى إلى أن يكون (الكفء) (كافيا) عدم فهم الكلمة حين وردت فى كلام الله تعالى فى سورة الاخلاص : (ولم يكن له كفوا أحد)[1] وقد وقعت الكلمة منصوبة خبراً (كان) وقد سهلت الهمزة إلى الواو فصارت الكلمة ترسم بالواو خطأ (كفؤ) وقد حرف معناها إلى معنى (الكافى) الذى أشرنا إليه .

ومن الخطإ فى الرسم بالواو وانحراف الهمزة عن مكانها على الواو تولدت كلمة جديدة لا وجود لها فى مفردات العربية وهى (كفوء) على وزن (فعول) للدلالة على معنى القدرة والجدارة فقد قالوا : (فلان كفوء بين أقرانه) ثم حلا للمتكلمين بهذه اللغة أن يؤنثوا الكلمة فيقولوا : (العناصر الكفوءة) وهكذا فقد ولد الخطأ فى الرسم كلمة مولدة جديدة شاعت فى كتابات أبناء هذا العصر ولا تعدم أن تجدها فيما يكتبه المتأدبون .

(١) الإخلاص.

سبق :

نقرأ فى لغة الدواوين الرسمية فى العراق كلمة (مُسبَّق) وهى بزنة اسم المفعول المشتق من الرباعى (أسبق) فيقال مثلا : (وكانت النتائج قد نشرت مسبقا) والكلمة تستعمل ظرفا . وإذا نظرنا إلى الفعل الرباعى (أسبق) فى كتب اللغة وجدناه فى قولهم : (أسبق القوم إلى الأمر وتسابقو بادروا) وهذا الاستعمال بعيد عما يستعمل فى لغة الدواوين الرسمية فى أيامنا .

فنى :

يقال : (التفانى فى سبيل الوطن) والمراد : بذل النفس فى سبيله ، وحقيقة التفانى لا تفيد هذا المعنى الذى شاع فى عربيتنا الحاضرة ، فإذا قلنا (تفانى القوم) فالمراد قتل بعضهم بعضاً .

وعى :

وشاع عند مايقرب من سنتين مصدر جديد هو (توعية) على أن فعل هذا المصدر المضعف (وعى) لم يشع بل لم يعرف . وهذا المصدر وفعله من المولدالجديد فى عربيتنا الحاضرة . وقد استعملت ، (التوعية) لغرض سياسى فالمراد منها (إيقاظ الجمهور) وتنبيهه) نحو الوطنية الجديدة القائمة على الاشتراكية والنظم الاجتماعية الأخرى .

كتف :

ومن هذه المادة الفعل (تكاتف) وهو مادة جديدة استعملت فى العربية الحديثة ، ولا أحسب أنه استعمل فى الفصيح المأثور من العربية ، وقد خلت معجمات اللغة من هذا الفعل ، ولكن اللغة الحديثة تفيد من الاشتقاق فتتوسع فيه لمعنى من المعانى . ومن المفيد أن نقول : إن علاقة المعنى الجديد للفعل

(تكاتف) بالأصل وهو (كتف) من مفردات (خلق الإنسان) مفهومة معروفة .

ضمن :

ومن هذه المادة الفعل (تضامن) والمصدر (تضامن) والفعل والمصدر من المواد التى تشيع فى لغة الجيل الحاضر بمعنى (الاتحاد) فيقال مثلا : (إن الأمة بتضامنها تبلغ الآمال) . ومعنى (التضامن) فى الفصيح المأثور (التكافل) وبعيد مابين (الاتحاد) و (التكافل) ومادة (ضمن) تعنى (كفل) و (الضمين) (الكفيل) . ويبدو فى هذا أن (التضامن بمعنى (الاتحاد) شىء من المولد الجديد الذى جاءت به لغة العصر .

إخصائى :

يراد بالإخصائى الاختصاصى أو المختص ، والكلمة تستعمل وصفاً لأصحاب العلوم والفنون فالطبيب الإخصائى هو الاختصاصى بمرض معين وكذلك يقال عن أصحاب العلوم الأخرى . ومن المفيد أن نذكر أن (إخصائى) لا يمكن أن تسد سد الاختصاصى ولا يفهم منها ذلك إلا على سبيل شيوع الخطإ . فليس فى مادة (خصص) شىء من هذه الكلمة . وإذا أردنا وجه الصواب فلابد أن نقول : إن (الاخصائى) منسوب إلى (الإخصاء) وفرق بعيد بين (الاختصاص) المطلوب لأصحاب العلوم (والإخصاء) مصدر أخصى يخصى باعتبار الفعل رباعيا وإن كان الثلاثي (خصى) هو الثابت الصحيح والمصدر خصاء بالكسر والمد .

رئيس :

والوصف بـ (الرئيس) معروف كثير فى عربيتنا الحاضرة ، يقال : (السبب الرئيسى و (العنصر الرئيسى) وغير ذلك . والذى أراه أن الوصف المنسوب غير

صحيح ، والوجه أن يقال : (السبب الرئيس) دون نسبة (الرئيس) ولا حاجة هنا إلى أن ينسب الشيء إلى نفسه ، وأكبر الظن أن هذه الصفة المنسوبة هى من بقايا ماورثته العربية من العصور التركية ، لأنه ليس المراد بهذا الوصف المنسوب كوناً خاصاً بـ (الرئيس) ، فليس هو مثل الوصف بـ (الأساسى) المنسوب إلى (الأساس) . وإنما هو مثل قولهم (السبب المهم) .

حيـاتى :

وتساهل أهل هذا العصر فى لغتهم حتى ارتكبوا الخطأ فقد نسبوا إلى (الحياة) قالوا (حياتى) دون النظر إلى ألف الحياة وعلامة التأنيث فكما ينسبون إلى (وطن) ويقولون (وطنى) وكذلك نسبوا إلى (حياة) فقالوا : (حياتى) وكأن (حيوى) ليست نسبة إلى (حياة) وقد بلغ من شيوع الخطإ أن صارت وزارة التربيةالتى تشرف على صيانة العربية تجعل فى منهاج المدارس الابتدائية (العلوم الحياتية) . وربما كان (وحدوى) أخف وطأة من هذا الارتكاب الشنيع .

مصون :

اسم المفعول من (صان) وكأن هذه الكلمة فى لغة الجرائد على وزن مفعول توهماً على الخطإ ، ومعلوم أن (فعول) يستوى فيها المذكر والمؤنث نحو عجوزه وغيره ، ولذلك فقد كتبوا فى الصحف فى الأخبار عن عقد قران مثلا : جرى يوم أمس عقد قران السيد فلان على الآنسة المصون . . . ! وقد جر التوهم إلى أخطاء كثيرة ولذلك ينبغى ألا ينصرف الذهن إلى التوهم الذى أحدث مواد لغوية نحو توهم أصالة الياء فى (قيمة) فقالوا فى الفعل (قيّم) بدلا من (قوّم) ومثله (عيّد) من (عيـد) .

أما التوهم الذى نباشره فهو من الأخطاء نحو توهم الياء أصلية فى (يحيك) والذى جر إلى هذا (الياء) فى المصدر (حياكة) . ومثله الواو فى (سُوّاح) بدلا

من (سُياح) والعدول عن الياء إلى الواو فى هذا الجمع كان بسبب ضمة السين . التى اجتلبت الواو من أجلها خطأ .

لا زال :

من أفعال الاستمرار ومجىء (لا) قبل (زال) الفعل الماضى يمحضها للدعاء كما هو فى العربية . قال ذو الرمة :

ألا يا اسلمى يادار مَىّ على البلى   ولا زال منهلا بجرعائك القطر

على أن هـــذا الدعاء لم تحتفظ به عربيتنا الحاضرة . وأن متأدبى عصرنا لا يميزون بين (لازال) و (مازال) فيقولون : لازالت الأنباء تتوارد) .

والأنــكى من ذلك :

وهذا خطأ آخر فى استعمال اسم التفضيل ، فالمعلوم أن اسم التفضيل إذا كان محلى بالألف واللام لا يؤتى بالمفضل عليـــه مجروراً بمن ، فالصحيح أن يقال : (والأنــكى ، والأحر ، والأدهى) دون الإتيان بالمفضل عليه مجروراً بمن ولاحجة بالشاهد النحوى :

ولست بالأكثر منهم حصى   وإنمـــا العــزة للـكاثر

فقد خرج على أن (من) ليست تفضيلية بل للتبعيض أى : لست من بينهم بالأكثر حصى .

ومعظم الأسباب تؤكد . .

هذا باب عود الفعل على المضاف إليه وهو غريب فى العربية الفصيحة إلا فى شواهد سنعرض لها . أما فى العربية المعاصرة فهو استعمال شائع . ولغة اليوم فى الصحيفة والإذاعة والمقالة الأدبية تعطى مئات الشواهد على ذلك .

أما فى المأثور الفصيح فمنه قوله تعالى : (وكنتم على شفا حفرة من النار ، فأنقذكم منها)[١].

وقال جرير :

رأت مر السنين أخذن منى　　　　كما أخذ السرار من الهلال

وقال آخر :

وما حب الديار شغفن قلبى　　　　. . . . .

وقال العجاج :

طول الليالى أسرعت فى نقضى　　　　طوين طولى وطوين عرضى

ما دخلت الدار إلا ورأيت الطفل يلهو :

هذه جملة صدرت بالنفى ثم جىء بـ (إلا) بعدها وهى متلوة بالواو التى تفيد الحال . وهذه الواو ترد كثيراً فى مثل هذه الجملة فى لغتنا الحاضرة وربما وجدت فى لغة العصر العباسى ولكن لغة التنزيل قد خلت من هذا الاستعمال . جاء فى قوله تعالى : (ما تأتيهم آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين)[٢] وفى قوله تعالى: (وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون)[٣]. وفى قوله تعالى: (وما يأتيهم من ذكر الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين)[٤] .

الجملة الواقعة فى جواب إذا الفجائية :

هذه الجملة تكون اسمية وهى لغة هذا العصر تكون مصدرة بـ (باء) زائد

---

(١) آل عمران ١٠٣ .
(٢) الأنعام ٤ .
(٣) الحجر ١١ .
(٤) الشعراء ٥ .

إذا كان المبتدأ ضميراً نحو : (خرجت فإذا به واقف فى الباب) ، وقد خلت لغة التنزيل من هذه الباء فى مثل هذا الاستعمال . فقد جاء فى قوله تعالى : (ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون)(١) وفى قوله تعالى : فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون)(٢) .

اجتماع الشرط والقسم « لئن »

قالوا : إن اللام فى « لئن » موطئة للقسم ومعنى ذلك أن الجواب لا بد أن يكون للقسم نحو قول الشاعر :

فلئن عفوت لأعفون جللاً ولئن وهنت لأوهنن عظمى

ثم قال النحويون : وقد جاء قليلاً ترجيح الشرط على القسم عند اجتماعهما وتقدم القسم ، وان لم يتقدم ذو خبر ، ومنه قوله :

لئن منيت بنا عن غب معركة لا تلفنا عن دماء القوم ننتفل

أقول : إن هذا الاستعمال غير قليل وترجيح الشرط على القسم عند اجتماعهما وتقدم القسم وارد عند عصور العربية الأولى .

قال عمر بن أبى ربيعة :

لئن كان ما حدثت حقاً فما أرى كمثل الألى أطريت فى الناس أربعا

وفى العصر العباسى نجد أبا تمام فى مثل هذا المقام يأتى شعره على نحو ما أقره النحويون فى استعماله « لئن » . قال يمدح محمد بن يوسف الطائى :

لئن عمت بنى حواء نفعاً لقد خصت بنى عبد الحميد

(١) الزمر ٦٨ .

(٢) الصافات ١٩ .

وعلى هذا جرى فى جميع قصائده . غير أن البحترى فى جميع قصائده يجعل الجواب فى مثل هذا الاستعمال إلى الشرط ، فهو يقول :

لئن صنت شعرى عن رجال أعزة فإن قوافيه بوصفـــك أليق

أما فى شعر الشريف الرضى فالأسلوبان قد وردا ، فهو يقول :

لئن راب منى ما يريب فإننى على عدواء الدار غير مريب

وقوله :

لئن فارقتهم وبقيت حياً لقــد فارقت أيام الشباب

أما شعراء هذا العصر فهم يجعلون الجواب فى مثل هذا المكان للشرط ولا عبرة فى هذه اللام الموطئة للقسم .

فى الاستفهام :

يستفهم كثيرا بـ « ما » وبـ « من » من أدوات الاستفهام . وقد يحصل أن يتوسط ضمير الغيبة المنفصل بين اسم الاستفهام والمستفهم عنه فنقول :

« ما هى المسألة ؟ » و « ما هو السبب ؟ » و « من هو المسئول » وهذا الأسلوب شائع كل الشيوع فى عربيتنا السائرة ، غير أن الاستقراء لا يؤيد هذا الاستعمال ، والإيجاز الذى هو صفة العربية فى بلاغتها يأبى هذا الحشو . قال تعالى « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها[١] » . وقال تعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى »[٢] .

لا يتفق والحالة الراهنة :

الواو فى هذه الجملة للمعية ومعنى هذا أن الاسم التالى لها منصوب على أنه

(١) البقرة ٦٩ .
(٢) البقرة ٦٨ .

مفعول معه ، ومثل هذه الجملة وكثير غيرها مما يكون فيها الفعل دالاً على المشاركة. وهذه الأفعال لا يمكن أن تأتى بعدها واو للمعية وإنما تتمحض هذه الواو إلى العطف . وإذا صح العطف فلا يمكن عطف اسم ظاهر على ضمير مستتر وإنما يجب أن يؤكد هذا الضمير المستتر بضمير منفصل حتى يتم العطف نحو :

(لا يتفق هو والحالة الراهنة) . ولكن الجملة كما أثبتناها فى أعلاه شائعة فى لغتنا الحاضرة .

وبعد فهذه جملة مواد أجريت فيها تحقيقات لغوية لأسجل شيئاً من التاريخ اللغوى وكيف يعرض له التبدل والتطور سلباً وإيجاباً .

الفصل الحادي عشر

الثقافة العامية في التاريخ

كشف البحث العلمى عن صلة اللغة بالإنسان وبيئته ، فهى تظهر المجتمع الإنسانى على حقيقته . وقد اهتم بموضوع اللغة العلماء المختصون فى العصور الحديثة كما بحثه الأقدمون فكتبوا فيه على الطريقة التى سلكوها فى علومهم القديمة . على أن غير قليل من غير ذوى الاختصاص فى موضوعات اللغة قد بحث فى الموضوع نفسه فى خلال دراساتهم . ومن هؤلاء علماء الاجتماع وعلماء النفس والفلسفة وآخرون غيرهم . وليس عجيبا فقد بحث الفلاسفة الأقدمون فى موضوع اللغة . وكانت اللغة موضوعاً فلسفياً عندهم ، وللموضوع جوانب كثيرة وأبواب متعددة فاللغة أساس كل أنواع النشاط الثقافى (وهى بذلك خير دليل يهتدى به الباحث إلى معالم أى من المجتمعات الحديثة) . فنى كل مجتمع مهما كانت طبيعته وسعته ، تشغل اللغة مكانا ذا أهمية أساسية ، إذ هى أقوى الروابط بين أعضاء هذا المجتمع ، وهى فى الوقت نفسه رمز إلى حياتهم المشتركة وضمان لها .

فما الأداة التى يمكن أن تكون أكثر كفاية من اللغة فى تأكيد خصائص الجماعة ؟ فهى فى مرانتها ويسرها ، وامتلائها بالظلال الدقيقة للمعانى تصلح لاستعمالات متشعبة ، وتقف موقف الرابطة التى توحد أعضاء الجماعة فتكون العلاقة التى بها يعرفون والنسب الذى إليه ينتسبون .

وليست اللغة رابطة بين أعضاء مجتمع واحد بعينه ، وإنما هى عامل مهم للترابط بين جيل وجيل ، وانتقال الثقافات عبر العصور لا يتأتى إلا بهذه الوسيلة . ومن أجل هذا كان من السهل على الباحثين أن يكتبوا تاريخا واضحا للكثير من اللغات

الحديثة ، بادئين بأقدم صورة للغة ، متعقبين التطور التاريخى لها ولذلك استطعنا أن نقف اليوم على البحوث القيمة فى هذا الموضوع .

ولقد كان لمالينوفسكى العالم الأنتروبولوجى فضل كبير فى لفت الأنظار إلى مفهوم جديد فى اللغة فقد أدرك عندما كان يدرس بعض المجتمعات التى اصطلح عليها بالمجتمعات (البدائية) أو (الفطرية) أو (الوحشية) أن دراسته لن تصبح دون معرفة الوظيفة التى تقوم بها اللغة فى المجتمع . قرر مالينوفسكى بعد قيامه بهذه الدراسات فى هذه المجتمعات ، أن اللغة لم تكن مجرد وسيلة للتفاهم والاتصال فهى حلقة فى سلسلة النشاط الإنسانى المنظم ، وأنها جزء من السلوك الإنسانى ، وهى ضرب من العمل ، وليست أداة عاكسة للفكر . ويرى أن العمل الإنسانى هو أصل مختلف الظواهر والنظم الاجتماعية ، وتبرز نظريته فى الصلة بين العمل واللغة ويرى أن مواقف العمل هى التى تعمل فى تنويع اللغة ، وهو يسجل فى دراساته لمختلف قبائل أستراليا وجزر الهند الغربية أن للصيادين لغة تختلف موسيقاها عن موسيقى لغة الزراعين ، والألفاظ تدور فى سهولة وخفة مع العمل اليسير ، وتعقد بتعقد العمل .

ومعلوم أن لكل زمن أو بيئة ذوقاً خاصاً فى استعمال ألفاظ اللغة ، ويبدو ذلك فى أدب الأمة ولا سيما فى الجانب الشعبى منها ، ولا يمكن أن نطبق ماتواضع عليه الناس فى أساليب الذوق فى هذا الباب فى زمن معين ، على لغة أو لهجة فى زمن آخر أو بيئة أخرى .

ولا بد أن نعرض لرأى آخر فى تفسير موضوع اللغة واجتماعيتها فهذا ابن خلدون يعرض فى مقدمته لموضوع العلوم اللسانية فيقول فى نشأة لغة الأمصار فى اللغة الأولى وهو على معرفة نفسية بأثر اختلاف البيئات على الظواهر الاجتماعية التى منها اللغة وإليك قوله « وإن كلا منهم متوصل بلغته إلى تأدية مقصوده ، والإبانة

عما فى نفسه ، وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الإعراب ليس بضائرهم » . ويقول أيضا بعد عرضه لطائفة من فنون الشعر فى هذه الأمصار: « والكثير من المنتمين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكر هذه الفنون التى لهم إذا سمعها ، ويمج نظمهم إذا أنشدوا ويعتقد أن ذوقه إنما نبا عنها لاستهجانها وفقدان الإعراب منها وهذا إنما أتى من فقدان الملكة فى لغتهم (ويقصد بذلك العلماء) فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم (ويقصد بذلك الشعوب) لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها إن كان سليما من الآفات فى فطرته ونظره ، وإلا فالإعراب لا مدخل له فى البلاغة .. فالدلالة بحسب ما يصطلح عليه أهل الملكة فإذا عرف اصطلاح فى ملكة واشتهر صحت الدلالة ، وإذا طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولاعبرة بقوانين النحاة فى ذلك . وأساليب الشعر وفنونه موجودة فى أشعارهم هذه ما عدا حركات الإعراب فى أواخر الكلم ، فإن غالب كلماتهم موقوفة الآخر » .

ونريد الآن بعد هذا العرض أن نخلص إلى لغة الناس العامة لنتبين الجو العامى والثقافة العامة ، ولعل النصوص التى عثرنا عليها على قلتها تشير إلى هذا الذى نريد أن نتبينه . والنصوص قليلة وقلتها راجعة إلى أن هذه اللغة وهذا الأسلوب لم ينظر إليهما بما يستحقانه من احترام ، فقد غلب النظر إلى الفصيحة ، وأسباب ذلك معروفة سنشير إليها فى هذا العرض التاريخى .

كان للحدث القرآنى تأثيره العظيم فى العربية ودفعها خطوات فسيحة إلى الأمام ، فقد عملت لغة التنزيل على توحيد هذه اللغة ، ومعلوم أن الأمصار كانت تقرأ القرآن قراءات مختلفة ، وسبب هذا الاختلاف أن لغات الأقاليم قد فعلت فعلتها فى الموضوع ، فما كان من عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان إلا أن يعملا على توحيد هذه القراءات ليكون المسلمون إجماعاً على لغة واحدة . فقد منع عمر عبد الله بن مسعود أن يقرىء الناس بلغته الهذلية حين سمع أحدهم يقرأ الآية الخامسة والثلاثين من سورة يوسف (ليسجننه عتى حين) بدلا من (حتى حين) .

ولم يكن شيوع اللهجات العامية مختصا بعصر دون آخر ، أو قل إن مشكلة الفصيح والعامى قائمة فى كل عصر فى التاريخ الإسلامى .ولا نستطيع أن نعد شيوع اللحن دليلا على نشوء العامية فقد عرف اللحن فى أوائل العصر الإسلامى ، وقد ظهرعلى ألسنةالطبقة المثقفة المتعلمة ففى الأخبار أن عمر بن الخطاب قدأدب أولاده بسبب اللحن وأن عبد الملك بن مروان كان يحذر أبناءه من اللحن .فإن اللحن فى منطق الشريف أقبح من آثار الجدرى فى الوجه . وقد أشار الأصمعى إلى اللحن فى لغة مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ومعلوم أن مالكا هذا يحتل مكانة عالية بين الطبقة المثقفة والذى يرجع إليه فى مسائل كثيرة . وأحسب ان القارىء يعرف الشىء الكثير عن مالك بن أنس فلا حاجة بنا إلى التعريف به فهو معروف مشهور ومثل مالك هذا فى اللحن على منزلته ومقامه . أيوب السختيانى فقد كان يلحن حتى فى كتاب الله .

وقد فطن النحاة إلى أن اللحن قد عرض لقراء القرآن ، فهم يعيبون على نافع مقرىء أهل المدينة أنه قرأ (معائش) بالهمزة وكان حقها أن تقرأ بالياء . ولم يكن وضع قواعد النحو يمجد فى التزام القوم بالفصيح وعدم الأخذ بالدارج وغرض الواضعين معروف فهو حفظ لغة التنزيل أن يتسرب إليها اللحن والأخذ باللغات الإقليمية ، وقد مر الشعبى (المتوفى سنة ١١٠ هـ) على قوم من الموالى يتذاكرون النحو . فقال : لئن صلحتموه إنكم لأول من أفسده وكان شيوع اللهجات بحيث أن القراءات الشاذة استمرت بالرغم من إلزام الناس بالأخذ بما أجمع عليه المسلمون وبالرغم من منع أصحاب الأمر القراءات الأخرى كما مر بنا . فقد عرفنا فى القراءات الشاذة الشىء الكثير من تأثير اللهجات فى قراءات القرآن . وكتب التفسير حافلة بهذه القراءات . فقد ذكر أن أحدهم قرأ على طريقته ولهجته « ولاتقربا هذه الشجرة » بكسر التاء بالفعل . ثم أن آخر قرأ « ولا تقربا هذه الشيرة » بكسر الشين وابدال الياء بالجيم ، وهذه المخالفات للفصيح المعروف معروفة فى اللهجات

الإقليمية وما زال هذا الإبدال حتى يومنا هذا فى كثير من الجهات فى القسم الجنوبى من العراق .

وقد أسلفت أن اللهجات الخاصة قد رافقت الفصيح فى سائر عصور العربية ، ولعل ذلك كان سبب الدعوة القائلة بوجود المشكلة ، ولا يحسب القارىء أن المشكلة اللغوية وما ينتج عنها من مشكلات ثقافية هى وليدة عصرنا الحديث ، فهى قديمة كما عرفنا ذلك فى البحث اللغوى التاريخى ، ولكننا نستطيع أن نقول إنها اليوم أعقد مما كانت بالأمس وذلك لأن المجتمع العربى يواجه حضارة معقدة تلزمه أن يكون مزوداً بآلات للأخذ بنواحى هذه الحضارة المتعددة الأطراف ، ومن هذه الآلات والأدوات مسألة اللغة فلا تغنى لهجة اليوم الدارجة كما أن الفصيح لم يعد اللغة التى يملكها الناس ويتصرفون فى أمرها ، ولذلك فالتعلم والتلقين واجب .

وقد كنت أحصى من هذه النصوص العامية فى لهجاتها الدارجة ما أقع عليه فى هذا البحث التاريخى ، وقد عرفنا أن اللغة العامية كانت معروفة فى أيام العربية الأولى ، ولا أريد بالعربية الأولى العصور التى سبقت الإسلام وظهور النبوة فتلك حقب لا نعرف من أمرها الشىء الواضح الذى يمكن أن يكون أساساً للبحث ومعلوم أن العربية بدع بين اللغات القديمة ، وذلك أننا لا نعرف عن طفولتها شيئا نجعله مادة أصيلة فى البحث بحيث نقيم من هذه الركائز بناء يظهر التاريخ اللغوى العام لهذه اللغة .

ولكن أقول إن العامية عرفت فى أيام الخليل بن أحمد وأضرابه من النحويين واللغويين ، وقد نسب للكسائى النحوى أنه ألف رسالة فى لحن العامة . وقد ذكر صاحب الأغانى أن سبب نسبة المغنى المشهور إبراهيم الموصلى إلى الموصل أنه كان يغنى متى شرب وهو يروى هذين البيتين :

أناجت من طرف الموصل	أحمـــــل قلـل خمريا
من شارب الملوك فلا	بدمن ســـــكريا[1]

(١) الأغاني ٥ / ١٥٦ ط. ش.

وواضح من هذين البيتين أنهما باللسان الدارج الذى كان الموصليون يستعملونه

وسمع إبراهيم بن سفيان الزيادى النحوى المتوفى سنة ٢٤٩ مغنيا يغنى أبياتاً فقال له :

لمن هذا الشعر أصلحك الله ؟ فقال له المغنى ! « لى ياسيدى وأنا جوان ابن دست الباهلى سيدى » فقال : « إيش عليك من ذا يا سيدى » قلت : فردد الصوت.قال تريد «نقشمه»«كنك» عقاب أو (كنى) ما أعرفك ؛ ماتركت على كبد ابن عمى الأصمعى الماء وقد جيت إلى ، طارت فراخ برجك طارت .

ولا بد لى أن آتى على كتاب «البخلاء » فأقول فيه شيئاً فقد حكى الجاحظ عن زمرة من البخلاء وكان سبيله أن يولد الأحاديث على ألسنة هؤلاء وهو فى هذه الاحاديث يكشف عن الأوساط العامية التى يحيونَ فيها . وفى طوق الجاحظ أن يصور البيئة العامية أو قل يوحى إليك وأنت تقرأ أحاديث البخلاء البيئة الفقيرة الشحيحة ذلك أن الجاحظ نفسه قد عاش فى بيئة معدمة فقيرة فقد شوهد فى أيام طفولته وصباه يبيع الخبز والسمك فى سيحان . وهو يحاول أن يستعيد البيئة العامية بملحها وخرفها وتقاليدها . ولنسمعه يقول : (وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاما غير معرب ولفظا معدولا عن جهه فاعلموا أنا تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده إلا أن أحكى كلاما من كلام متماقلى البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباههم . ولم يقتصر على استعمال اللحن والكلام غير المعرب واللفظ المعدول عن جهته وإنما أوحى بهذا المذهب فقال : — (ومتى سمعت — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تحكيها مع إعرابها ومخارج ألفاظها فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام وملحة من ملح الحشوة والطغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخذلها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا فإن ذلك يفسد الإمتاع بها

ويخرجها من صورتها ويذهب استطابة الناس لها . وانت تحس حين تقرأ « البخلاء » كيف يقضى سواد الناس سحابة يومهم فهو يقول على لسان صاحب الدار المؤجرة وهو يشكو الساكن من إتلافه للدار « ويدق على الأجزاع والحواضر والرواشن » ولا يكتفى الجاحظ بالجو العامى بالعبارة أو اللفظة بل يتعداه إلى القول العامى ينقله كما هو على ألسنة الناس وربما جاء بالدخيل الأعجمى المستعمل فى لهجاتهم فقد ذكر التشريب والرزة والجله والثريد والبوش والهريسة والكرنبية والفجلية والبالوعتة والغموس والدوشاب وغير هذا مما هو كثير فى البخلاء . وقال : — (فقال لو خرجت من جلدك لم أعرفك) وترجمة هذا الكلام بالفارسية « اكراز پوست پارون بيائى نشتناسم » . قال أحد المراوزة البخلاء لصديقه العراقى الذى زاره فى مدينة مرو وكان هذا المروزى قد أظهر الغباء والجهل التامين كى لا يعرف صديقه العراقى نخافه أن يدعوه للغذاء . وقال محدثا عن الكندى أحد بخلائه وكان هذا صاحب دور للسكن إذ يقول له : — وإذا كثر الدخول والخروج والفتح والإغلاق والإقفال وجذب الأقفال تهشمت الأبواب وتقلفت الرزات وإذا كثر الصبيان وتضاعف البوش ونزعت مسامير الأبواب . والرزة من ألفاظ المعجم فى حين أن « البوش » من الألفاظ العامية التي لا تشير إليها المعجمات . وقال الجاحظ على لسان البخيل الكندى : — فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئا حلف بالغموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله وحلف بالزاد والطعام مما هو داخل فى العقلية العامية ومازال العوام فى أيامنا يقسمون بهذه الأقسام . ولا بد من الإشارة إلى المصطلحات العامية التى أشار إليها الجاحظ فى حديثه عن البخل : — قال أبو فاتك : « الفتى لا يكون نشالا ولا نشافا ولا مرسلا ولا لكاما ولا مصاصا ولا نقاضا ولا ولا كا ولا مقورا ولا مغربلا ولا محلقا ولا مسوغا ولا ملغما ولا مخضراً فكيف لو راى أبو الفاتك اللطاع القطاع والنهاش والمداد والدقاع والمحول » وهذه الألفاظ مما حملها العوام معانى لا تشير إليها المعجمات وكتب اللغة .

ويشرح الجاحظ مفسراً المخطرانى فيقول : « إنه الشخص الذى يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب فلا ترى له لسانا البتة . وهكذا نستطيع أن تتبين فى كتب الجاحظ مادة غزيرة فى الثقافة العامية وأنها خير مصدر لمعرفة البحث اللغوى التاريخى .

الفصل الثاني عشر

الأصول التاريخية للعامية البغدادية

في «ألف ليلة وليلة»

كتاب « ألف ليلة وليلة » قد شغل الناس واستمتعوا به في مختلف أقاليم هذه المعمورة. وقد أعجب به الأوربيون أيما إعجاب، وصار من كتبهم المفضلة، فترجموه إلى لغاتهم، واهتم به المستشرقون اهتماماً بالغا منذ أن بدأ « أنطوان كالاند Antoine Galand المتوفى سنة ١٧٥١ م بترجمته إلى الفرنسية، وعن هذه الترجمة أخذت الترجمات الأخرى. ولا أراني إلا آتياً بالحديث المعاد إن أشرت إلى اهتمام سائر الذين عنوا بهذا السفر النفيس أمثال (فون هامر Von Hammer) المستشرق النمساوي » و « سلفستردي ساسي » (Sylvester de Sacy) وغيرهم من الأعلام. ولعل اهتمام هؤلاء الأعاجم المستعربين بالكتاب قد نبه الشرقيين ولا سيما العرب منهم إلى العناية بهذه « الليالي » الممتعة التي أقبل عليها الناس كلفين مستمعين. أعجب بها العامة كما أعجب بها الخاصة حتى دخلت في نماذج الأدب العالمي، وأثرت في آداب كثير من الأمم منذ مطلع القرن الثامن عشر للميلاد، حتى لقد أثر عن الفيلسوف الفرنسي. « Voltaire » : أنه لم يتصد للكتابة إلا بعد أن قرأ هذا الكتاب أربع عشرة مرة. كما أن أحد مشاهير الكتاب الفرنسيين تمنى أن يمحو الله من ذاكرته « ألف ليلة وليلة » حتى يعيد قراءته فيستعيد لذته. ومن هنا كانت هذه « الليالي » مصدراً من مصادر الأدب العام، وهي من أجل ذلك تدخل في مادة « الأدب المقارن » ومنهجه.

وإذا عدنا إلى هذه « الليالي » وجدناها تعكس الحياة الاجتماعية بجلاء

ووضوح ، ومن الثابت أن هذا « الكتاب » لم يكن ثمرة فترة واحدة من فترات التاريخ الحضارى ، وإنما كان تسجيلاً لفترات مختلفة ، كما أنه لم يخص مكاناً بعينه بل اتصل بكثير من بلاد المشرق القديم . وليس من حاجة إلى إثبات هذه الحقيقة المعلومة .

يمثل الكتاب حياة عامة الناس ، كما يصور حياة الخاصة منهم ، وهو عندما يتناول قصص الوزراء والنبلاء والأشراف والقضاة والأمراء والخلفاء ، يذكر إلى جانب ذلك الحمال والبقال والدجال والساحر ومروض الأسود والنمور ، كما يذكر العبيد والخدم والإماء ، وتبدو المرأة فى « الليالى » فى صورة اجتماعية خاصة ، فالحديث عن كيدها ومكرها كثير ، وربما عكست « الليالى » نمطاً من حياة المرأة فى انحلالها وانحطاطها ، وهذا كثير ظاهر ، ولاسيما فى الحديث عن بذخ الخلفاء والملوك فى القصور الأنيقة ، ومكانة المرأة فى هذه القصور . فأنت ترى أن « الكتاب » قد صور حياة طبقات الناس عامة فى رغباتهم ونوازعهم الإنسانية ، نجد الخير كما نجد الشر ، ونرى الصدق كما تلمس الكذب ، ويمر بك العذاب والفرح والحب والأسى والحسد والغيرة والمكر والدس والنميمة وجملة مايعرض للنفس الإنسانية من عواطف وغرائز .

ويتحدث صاحب « الليالى » فى المقدمة عن التاريخ فيقول : « لو كتب ذلك بالإبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر . »

وقد أشرنا إلى أن « الكتاب » قد اتصل بأقاليم عده . تبدو فيه للقارىء بغداد وما كانت تتمتع فيه فى عصور التاريخ المختلفة كما تظهر البصرة والقاهرة والإسكندرية ودمشق وغيرها .

ونستطيع أن نقول : إن الجانب البغدادى يتميز على غيره ، وهو واضح كل الوضوح ، ومن هنا نستطيع أن نقرر : « أن ألف ليلة وليلة كتاب بغدادى ، وأنه

صور المجتمع البغدادى فى طبقاته الاجتماعية المختلفة وإذا كان الأمر على هذه الحال فلابد أن يكون « الكتاب » مادة نلمح فيها لغة البغداديين فى أصولها التاريخيه، واستقراء هذه النصوص التى تؤلف مادة « الليالى » يدل على لون من العامية البغدادية التى نعنى بإظهارها فى هذه الدراسة .

ولابد من اعطاء صورة من هذه العامية البغدادية قبل أن ندخل فى صلب هذه المادة اللغوية ونريد بالعامية فى هذا البحث الألفاظ التى شاع استعمالها بين العامة فاعتبرت من اللغة العامية ، ذلك أن الخاصة تجتنب من اللغة ما يدور على ألسنة العوام لتسلم لها لغة خاصة . ومن أجل ذلك كان من شروط البلاغة عندهم خلو الكلام من العامى المرذول ، وكتب البلاغة حافلة بالأمثلة الكثيرة من هذا الباب . وقد تكتب السيرورة لكلمة من الكلمات ، فى عصر من العصور وتشيع حتى يتداولها العوام فى لغة التخاطب فتصبح الكلمة مرذولة مرزوءة . وقد عرف هذا النظر للمادة اللغوية فى مختلف العصور العربية ، ومن أجل ذلك فقد برزت العامية طوال الفترات التاريخية ، والمستقصى لأخبار اللغة والأدب واجد من الأمثلة مادة يعتد بها . والبحث فى هذا الميدان شاق بسبب من إهمال الرواة والمؤرخين لكثير من نصوص هذا الادب العامى ،عملا بمسايرة ذوق الخاصة الذى طبع العربية فانصرفت له ، ذلك أن الخاصة تملك من أمور العامة ما تملك فتصرف شئونهم وتوجههم إلى ما تريد أن يدرجوا عليه . وربما فرض هذا الذوق الرفيع على العامة ، فأنت ترى أن العلمى يتشبه بالخاصة ويستعير لنفسه عاداتهم ووسائلهم وحتى لغتهم ، وهذه الحال كانت قد حصلت لكثير من الامم وليس العرب بدعا بين الناس . وقد يكون من أسباب ذلك مسأله تاريخية ، هى أن لغة القرآن قد صقلت العربية وطبعتها بطابع خاص ثم إنها ميزت من الفصيحة مستوى رفيعا أخذت الناس بمبانيه ومعانيه ، وصار هذا النمط القرآنى يفرض على المسلمين اللغة الرفيعة المهذبة التى سحروا بها فى آى القرآن.

وهذه الفترة من تاريخ العربية ذات أثر كبير فى اللغة ، وقد عملت على توحيد كثير من خصائص اللغة التى هى ألصق ما تكون بما ندعوه اليوم باللهجات ، وهكذا طغت على الألوان الاقليمية فشاعت وكان منها للعربية لون عام ضبطت حدوده وأصوله على وجه عام . ولا يعنى هذا أن شيئاً كثيرا من تلك الألوان قد زال عن أصله ذلك أن هذا الأمر ليس بالسهل وأن مسألة التعود ودرج الناس على طريقة فى الكلام ، من المسائل التى لم تنقرض دفعة واحدة ، وفى تاريخ العربية مايشير إلى أن الأمصار أو قل الجماعات البشرية المختلفة قد استمرت تقرأ كتاب الله بلحون خاصة ، وهذه الألحان معروفة مقيدة بأقاليمها ، فمسألة (القراءات) لم تكن غريبة عن موضوع (اللغات) الخاصة أى (الألحان) وهى اللهجات باصطلاحنا الحديث . إذا فالعامية قديمة جداً ، ولابد أن تكون العامية قد صاحبت الفصيح المهذب فى جميع عصور التاريخ اللغوى ، وربما لم تكن العربية بدعا بين اللغات فى هذا الباب . فكثير من لغات الأمس ولغات اليوم قد عرفت هذه الظاهرة اللغوية . ويعنى هذا أن شيئاً من مبدإ الازدواج فى اللغه كان قد وقع ، ومازال يقع فى كل مرحلة من مراحل التاريخ .

وإذا عدنا إلى العامية أو قل للدارج من العربية متفحصين متبينين لنضع نماذجها ونصوصها فى حيز تاريخى محدود ، وجدنا صعوبة قائمة فى هذا الأمر ، ومصدر ذلك أن العامية فى العربية لم تنل من اهتمام الدارسين شيئاً ، ومرد ذلك انشغالهم بلغة القرآن واتصال هذا الأمر بالإسلام وإثبات معجزة الدين الحنيف التى تقوم على الجانب اللغوى من التنزيل . وظلت هذه النظرة إلى لغة القرآن محوطة بهذه القدسية طوال العصور ، ولم تسمح هذه النظرة لرواة اللغة وجماعها والدارسين والمتأدبين أن يسجلوا نماذج مما جرى على ألسنة الناس وما يتناقلونه فى اجتماعهم من نماذج لغوية تنطلق على فطرتهم وسجيتهم دون تكلف أو تعمل . وأنت لاتستطيع أن تحظى بشىء من ذلك إلا أن تكون ذا صبر طويل لتتسقط أخبار العامة وماتوحيه إليك من فوائد فى هذا الباب .

ومعلوم أن لـكل زمن أو بيئة ذوقاً خاصاً فى استعمال ألفاظ اللغة ، ويبدو ذلك فى أدب الأمة ولاسيما فى الجانب الشعبى منها ، ولا يمكن أن تطبق ما تواضع عليه الناس من أساليب الذوق فى هذا الباب فى زمن معين ، على لغة أو لهجة فى زمن آخر أو بيئة أخرى .

ومن صفات العامية فى كل عصر أنها لا تعنى كثيراً بالمألوف من قواعد العربية ومعنى ذلك أن شيئاً من اللحن قد وقع فيها دون أن يـكون قصد فى هذا الأمر ، ومسألة ذلك متعلقة بالسجية الفطرية التى تنطلق بصورة عفوية . ولا نستطيع أن نعد شيوع اللحن دليلا على نشوء العامية ، فقد عرف اللحن من أوائل العصر الإسلامى . وقد ظهر على ألسنة الطبقة المثقفة المتعلمة .

فنى الأخبار أن عمر بن الخطاب قد أدب أولاده بسبب اللحن[1] ، وأن عبد الملك بن مروان كان يحذر أبناءه من اللحن ، فإن اللحن فى منطق الشريف أقبح من آثار الجدرى فى الوجه .

وقد أشار الأصمعى إلى اللحن فى لغة مالك بن أنس (المتوفى سنة ١٧٩ هـ[2]) ومعلوم أن مالـكاً هذا يحتل مكانة عالية بين الطبقة المثقفة ، وكان يرجع إليه فى مسائل كثيرة ، ومثل مالك هذا فى اللحن على منزلته ومقامه ، أيوب السختيانى فقد كان يلحن حتى فى كتاب الله[3] .

وقد سجل النحاة شيئاً من اللحن قد عرض لقراءة القرآن مما خلا السبعة المشهورين وتفصيل ذلك فى كتب القراءات . وأريد أن أخلص من ذلك إلى أن العامية موجودة وقد سبقت فترة شيوع اللحن ، وإن كان اللحن من مظاهرها وهو

---

(١) ياقوت، إرشاد الأريب ١ / ٢٠ .
(٢) الصولى ، أدب الكاتب ٣٣ .
(٣) ياقوت، إرشاد الأريب .

يعرض لها فى ألسنة الناس ، وظهورة على ألسنة الصفوه المهذبة دليل على قدمه ، وعلى تأثر هؤلاء بالألوان الدارجة العامة من اللغة . وقد أسلفت أن معرفة العامية فى العربية أمر عسير بسبب من عزوف الكتاب عنها لما عرضت من أسباب ذلك . ولعل كتب الجاحظ خير مصدر لمعرفة اللغات واللهجات الخاصة، فقد سجل الجاحظ نماذج من هذه اللهجات ، وفطن إلى مصطلحات العامة من أصحاب الحرف . وحسبك أن تعرف أن الجاحظ قد أشار إلى لغة الأطفال وكيف أن الطفل يستخدم ألفاظا خاصة . يطلقها على مدلولات معينة ، فالطفل يرمز للكلب بلفظ «واواو[١]» كما يرمز للشاة بلفظ « ماء ما »[٢].

وتحدث الجاحظ فى « البيا ن » عن لغات غير العرب من الموالى ممن نزلوا بين العرب وأخذوا لغتهم ، ولكنهم مع تعصبهم للعربية وحبهم لها ، وهجرانهم لغاتهم الأولى ظلوا يتكلمون بهذه العربية بلحونهم المعروفة ، فهو يقـــول : « ويستطيع الحاكية من الناس أن يحكى نطق الأهوازى ، والخراسانى ، والزنجى ، والسندى حتى نجده كأنه أطبع منه . . . » وهو يقول أيضاً : « أن النبطى القح يجعل الزاى سينا والعين همزة[٣] ». ويسرف الجاحظ فيروى الحكايات التى تثير الضحك والفكاهة عن لهجات هؤلاء الناس . والأمثلة فى « البيان » كثيرة ؛ ولعل من الطريف أن نذكر إشارة الجاحظ إلى استعمال الدخيل الفارسى فى النصوص الفصيحة وهو الفارسى الذى لم تألفه العربية من ذى قبل ؛ فقد جاء فى شعر الشاعر العمانى مادحاً هرون الرشيد : « آلى يذوق الدهر آب سرد » ومعناه حلف لا يشرب الماء البارد أبداً[٤] .

(١) الجاحظ، البيان ١ / ٢٩ .
(٢) الجاحظ، الحيوان ٥ / ٨٩.
(٣) الجاحظ، البيان ١ / ٣١ - ٣٢.
(٤) الجاحظ، البيان ١ / ٦١.

وقد فطن الجاحظ إلى استعمالات ولهجات الطبقات الدنيا فى المجتمع فى أيامه ؛ فهو يعرض للغة المتسولين والمحتالين ولا سيما ما جاء فى كتابه البخلاء من هذا الباب وكما أشار الجاحظ إلى جماعة من هذه الجماعات التى ارتضت لنفسها أن تحيا حياة خاصة ؛ وهم اللصوص وكتب فى الموضوع رسالة أسماها « كتاب اللصوص » وقد جاء ذكر الكتاب فى مظان عدة(١). ولعل هوى الجاحظ فى تسجيل آداب العوام وملحهم وظرفهم هو الذى دفعه إلى أن يسجل حكايات عن اللاحين مع ذكر مصطلحاتهم التى يستعملونها(٢). كما أشار إلى شيء من ذلك صاحب حكاية أبى القاسم البغدادى(٣). وفى كتاب « المستطرف » شيء من هذه المصطلحات أيضا(٤).

ونعود إلى كتابنا «ألف ليلة وليلة » لنتبين آثار العامية ممثلة باللون البغدادى فيه فنقول : إن عامية هذا الكتاب تظهر فى الألفاظ التى شاعت بين العامة ولم ترق إلى الخاصة . والتزام العامة لها جعلها فى عداد الألفاظ العامية . بحيث صارت تتجنب فى الكلام البليغ ؛ وكأن الكلمة عندهم لا تكون فصيحة ولا يكتب لها أن تدخل فى الكلام البليغ إلا إذا لم تصب بعصبية الشيوع. وكأن الشيوع فى الكلمة يعنى استرذالها وهبوطها من مستوى رفيع .

وقد يحصل أن يكون فى الكلمة نوع من الإبدال اللغوى أو القلب المكانى فى الكلمة « Métathèse » . والإبدال والقلب المكاني وإن كانا يعرضان للنصوص الفصيحة . فحصولها فى اللسان الدارج متوارد متعارف .

---

(١) الجاحظ ، «تصنيف حيل لصوص الليل وتفصيل حيل سراق النهار» كما ورد ذكر «كتاب اللصوص» في الحيوان ٢/٥٧. ياقوت، إرشاد ٦/٧٦. والكتاب من كتب الجاحظ المفقودة.

(٢) الجاحظ، البيان ١/ ٢١٢.

(٣) أبو المطهر، حكاية أبي القاسم (M, 2) ١٠٤.

(٤) الأبشيهي، المستطرف ٢ / ٢٤٥.

ومن مظاهر هذه العامية أنها تعمد إلى ألفاظ فصيحة فتستعملها ؛ استعمالات تبعد عما ألف فى الفصيح المشهور وسنرى شيئاً من ذلك فى المادة المعجمية التى أحصيناها أمثلة فى هذا البحث .

وأنت واجد فى هذا الكتاب شيئا من الدخيل الذى أصبح جزءاً من لغة العامة بحكم الحاجات المتنوعة التى ولدتها الحضارة فلزم ذلك مادة لغوية للافصاح عن الجديد من الحاجات ؛ وبحكم الغزو والتمازج الثقافى والانصهار الحضارى الذى يمكن أن تلمس آثاره بدراسة حضارية لهذه الفترة التى لا يمكن تحديدها على وجه الضبط .

وكما تظهر هذه العامية فى الألفاظ ؛ نراها تظهر فى الأسلوب العام لصياغة الكلام ؛ فأنت ربما لا تجد فى كثير من الجمل والفقرات إلا اللفظ الفصيح؛ ولكن الأسلوب المتبع فى تركيب الكلام ؛ وما يحمله من صور وأخيلة يجعله من صميم الاستعمالات العامية ؛ ذلك أنها أخيلة وصور لم يحتملها الأدب المترف الرفيع ، أو قل يتجافاها هروبا من عامية مرذولة تظهر على ألسنة البقالين والحمالين ومروضى الأسود والنمور والخدم والجوارى وغير هؤلاء من أصناف هذا الحشد من العامة.ولم أرد أن أسجل من ذلك إلا القدر الذى يعطى الامثلة المطاوبة.

ولابد من العودة إلى أبى عثمان الجاحظ الذى فطن إلى لغة العامة حين نقل عنهم فى كتاب البخلاء ؛ فقد حكى الجاحظ عن زمرة من البخلاء ؛ وكان سبيله أن يولد الأحاديث على ألسنة هؤلاء ؛ وهو فى هذه الأحاديث كشف عن الاوساط العامية التى يحيون فيها .

وفى طوق الجاحظ أن يصور البيئة العامية ؛ أو قل أن يوحى إليك وأنت تقرأ أحاديث البخلاء البيئة الفقيرة الشحيحة ؛ ذلك أنه قد عاش فى بيئة فقيرة معدمة ؛ فلقد شوهد فى أيام طفولته وصباه يبيع الخبز والسمك فى « سيحان » .

وهو يحاول أن يستعيد البيئة العامية بملحها وظرفها وتقاليدها ؛ وهو يشير

إلى هذا فى « البخلاء » كما نقلنا ذلك فى غير هذا المكان . وأنت تحس حيث تقرأ فى « البخلاء » كيف يقضى سواد الناس سحابة يومهم . ولا يكتفى بالجو العامى للعبارة أو اللفظة ؛ بل يتعداه إلى القول العامى ينقله كما هو على ألسنة الناس .

وفى رسالته « فى صناعات القواد » يعرض لجماعة من أصحاب الحرف الذين أدخلت الحرفة الضيم على لغتهم ؛ فيسألهم عن معركة دارت فى بلاد الروم بعد أن قدم المعتصم منها ؛ فيصفها كل واحد بأسلوبه الذى يأخذ مادته اللفظية من مادة حرفته ؛ ثم يذكر عدة أبيات فى الغزل . والجاحظ يؤكد مهنة كل واحد من هؤلاء ويذكرها ليشير إلى أثر ذلك فى أصناف كلامهم ؛ وهم حزام وطبيب وخياطوزراع ومؤدب وصاحب حمام وكناس وطباخ وفراش وخباز .

والجاحظ ربما افتعل ذلك ليقرر مايريد أن يقرره من أن الحرفة لا بد أن تؤثر فى لغة الناس ومايتبادلونه من مخاطبات فهو يقول على لسان الحزام فى وصف المعركة :

« لقيناهم فى مقدار صحن الاصطبل فما مكان إلا بمقدار ما يحش الرجل دابته حتى تركناهم فى أضيق من ممرغه . فقتلناهم وجعلناهم كأنهم أنابير سرجين فلو طرحت روثة ما سقطت إلا على ذنب دابة » ثم يذكر متغزلا .

« إن يهدم الصبر من جسمى معالفه   فإن قلبى بقت الوجد معمور
إنى امرؤ فى وثاق الحب يكبحه   لجام هجر على الأسقام معذور»

إلى أن يقول :

لبست برقع هجر بعد ذلك فى   إصطبل حب فروث الحب منثور[1] »

وهكذا يأتى على وصف هذه المعركة بلسان هؤلاء العامة من أصحاب

---

(١) الجاحظ ، رسائل « ط. السندوبي» ص ٢٦١ .

الحرف . وهكذا فلغتهم لا تخلو من لفظ فصيح ، ولكنها تحفل بالصور والأخيلة العامية ومثل هذا نجده كثيرا فى أسلوب « ألف ليلة و ليلة » على لسان العامة .

وأريد أن أقرر شيئا لاحظته فى « ألف ليلة وليلة » وهو أن صاحب الحكايات أو قل أصحاب الحكايات على علم بدقائق اللغة والأسلوب ، وأنهم يميزون كل طبقة من الناس لغتها الخاصة: فكلام الأمير أو الوزير أو من على شا كلتهم من الخاصة فصيح رفيع تسير فيه الجملة والكلمة فى نظام مرتب مقصود يجعل منها لغة خاصة ليست لغة التخاطب . كما أود أن أشير إلى أن الحوار فى هذه الحكايات يميل أكثر ما يميل إلى الأسلوب العامى ، وكأن كاتب الحكاية يريد فى ذلك أن ينقل الحكاية كما تدور على ألسنة شخوصها ولا سيما إذا كانوا من الطبقة العامة . ولعل هذا يذكرنا بمشكلة كتاب القصة والمسرحية فى عصرنا هذا وكيف إنهم يميلون إلى الكتابة بالعامية فى حوار شخوص المسرحية أو القصة حرصاً منهم على أن تكون القصه أو المسرحية واقعية حية .

وهكذا فحوار « ألف ليلة وليلة » الذى يدور على ألسنة الشخوص التى تتحرك فى الحكايات مشحون باللفظ العامى الذى يراد منه أن يكون ملائماً لمقتضى الحال ، ومتفقا مع ما يمكن أن يجرى فى ظروف كظروف الحكايات المعروفة . وهذه الألفاظ تندر بشكل يلفت النظر فى الحكى أو السرد أى فى ماخلا الحوار فى هذه الحكايات . ولقد نحكم فى إدراكنا لعامية الألفاظ المستعملة فى (ألف ليلة وليلة) مقدار شيوعها فى عصرنا الراهن . وأنا أنبه القارىء ألا يتخذ من العامية البغدادية المستعملة فى أيامنا أصلا يقيس عليه ما يجده من مواد عامية فى هذا الكتاب ذلك أن عامية اليوم تختلف عن عامية « الكتاب » أو قل تختلف عن عامية الماضى القريب . فالعامية متطورة متغيرة وهى متأثرة أبداً بمؤثرات عدة ، وليس من شك أن عامية بغداد قبيل الاحتلال البريطانى تختلف عما نسمعه اليوم على لسان ابن الشارع وعلى ألسنة الصناع والحرفيين . واعتبار

عامية اليوم لا يثبت عامية اللفظة فى نصوص « ألف ليلة وليلة » ذلك أنها مقيدة بزمانها ومكانها . وعلماء البلاغة يشيرون إلى ألفاظ فصيحة استعملتها العامة فخرجت لذلك عن رتبة الفصيح .

ومن مظاهر عامية هذه النصوص أن الكلمة أو الجملة ربما تنكرت عن عمد أو قصد للمعروف المشهور من قواعد النحو ، وربما خرجت أيضاً على المتعارف من قياسات الصرف والاشتقاق وذلك لأنها منقولة عن ظرف يدعو إلى هذا الخروج المقصود وكأن العامة قد ضاقت ذرعاً بمقررات النحويين واللغويين وهم من أجل ذلك كلفون بالخروج عليه ، مهتمون بذلك اهتماماً يدعو إلى النظر وقد يحملهم ذلك على التهكم على النحويين ، ومن ذلك ما أثر من الأخبار والطرف عن النحويين وما كانوا يجدون من تجاوز العامة عليهم . فقد أثر عن الكسائى إنه قال : « حلفت ألا أكلم عامياً إلا بما يوافقه ويشبه كلامه . وقفت على نجار فقلت :له بكمهذان البابان . فقال بسلحتان يامصفعان ألا بما يصلح » (١) .

وهذا الخبر له دلالته التاريخية اللغوية وهو يشير إلى أن الفصيح المعرب كان ممـا يتمعاناه العامة فى أحاديثهم اليومية فى هـــذه الفترة التاريخية المتقـدمة . ومعنى ذلك أن « الازدواجية فى اللغة « كانت موجودة على عهد الرشيد إلى فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى وأغلب الظن أن شيئا من ذلك كان موجوداً قبل هذه الفترة بكثير وأن إغفال الإعراب كان من الأمور السائرة ، ومعنى ذلك أنهم يجرون فى ذلك على فطرتهم العامية التى تتخفف من القيود وتميل إلى الإيجاز ، وطبيعى أن الإعراب قيد ربما كان ثقيلا على كثير من الناس فى سائر عصور العربية فضلا عن ثقله وصعوبته فى عصور « ألف ليلة وليلة » ولا سيما المتأخرة منها .

(١) ابن الجوزى ، أخبار الظراف ص ٧٧ .

والعامى لا يحس أن كلامه مشوب باللحن أو أنه خرج على قوانين النحاة ، أو التزم اللفظ المعدول عن جهته وإلى هذا أشار الجاحظ حين قال :

« وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخذ لها لفظا حسنا ، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ، ويذهب استطابة الناس لها » .(١)

والجاحظ فى هذه الإشارة يقابل لغةالعامة بلغة الإعراب الأصيلة فى الفصاحة فيقول عنها :

ومتى سمعت — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتها بأن تلحن فى إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية ، وعليك فضل كبير » .

وأنت تقرأ حكايات « ألف ليلة وليلة » فتقرأ ما يتناقله العامة من أساليب الكلام ومن مظاهر ذلك أن العامى مولع أو قل مفطور فى كل زمان ومكان إلى القسم أو الحلف وأنه يقسم فى كل أمر يحزبه صغيراً كان أم كبيراً . وربما كان القسم فى لغة العوام نوعاً من الاستعمال اللغوى يجريه العامى بفطرته التقليدية ، فأنت لا تشعر إن به حاجة إلى استعمال القسم ، وأن الأمر خال من مشكلة والتباس أو خلاف يضطره إلى أن يلجأ للقسم ، ولكنه مع ذلك يجرى على سجيته فتسمع منه ألفاظ القسم يستعملها من غير انقطاع . والقسم من خصائص الشعوب السامية وألفاظه مختلفة بحسب الزمان والمكان ، وبحسب

(١) الجاحظ ، البيان ١ / ٨١.

اختلاف الأديان وبحسب اختلاف الطبقات . فهو موجود فى الجاهلية كما هو موجود فى الإسلام وهو مألوف عند المسيحيين كما هو معروف عند المسلمين ، وإن طبقات الناس عامة تجريه فى كلامها . غير أن العامة تلتزم به كثيراً وتطلقه كما أشرنا دون حاجة إليه ، وألفاظهم فى القسم تشير إلى بيئتهم العامية . وإذا رجعنا إلى حكايات « ألف ليلة وليلة » وجدت هذا القسم ظاهراً واضحاً وأنه مستعمل على ألسنة العوام انطلاقا مع سجيتهم التى ألفت هذا النوع من الاستعمال . وأنت إذا قرأت هذه الأقسام وجدتها لا تبتعد عما نسمعه اليوم على ألسنة العامة من البغداديين ، كأن يقسم أحدهم « برأسه » أو « بعينه » أو بعيشته » .

وقد فطن الجاحظ إلى شيء من ذلك حين ذكر البخيل الكندى (١) أحد الذين تحدث عنهم فى « البخلاء » فقال :

« فإن ردوا عليه بعد ذلك شيئاً ، حلف بالغموس أنه ليس من دراهمه ولا من ماله » (٢) والحلف بالزاد والطعام مما هو داخل فى العقلية العامية ، وما زال العوام فى أيامنا يقسمون بهذه الأقسام .

والجاحظ لابد أن يشير إلى هذه الاستعلامات ذلك أنه قد اهتم بالمصطلحات العامية فى حديثه عن البخل ، فقد ذكر .

« قال أبو فاتك : الفتى لا يكون نشالاً ولا نشافا ولا مرسلا ولا لكاما ولا مصباحا ولا نفاضا ولا دلاكا ولا مقوراً ولا مغربلا ولا ولا مسوغاً ولا ملغماً ولا مخضراً ، فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطاع والقطاع والنهاش والمداد والدفاع والمحول (٣) » . وهذه الألفاظ مما جعله العوام معانى

---

(١) لا يفهم من كلام الجاحظ أن المقصود بالكندى الشيخ الفيلسوف المعروف .
(٢) الجاحظ ، النبلاء (ط. الحاجري) ص ٨٥ .
(٣) الجاحظ ، النبلاء (ط. الحاجري) ص ٦٧ .

لاتشير إليها كتب اللغة المطولة ؛ فهى من مصطلحات العامة كما هى الحال فى كل زمان ومكان ، فللعامة اصطلاحاتهم الخاصة .

ولا بد أن نجتزىء من هذا الاستقراء المعجمى بشىء من الأمثلة لما ورد من العامية فى « الكتاب » .

ورد فى الصفحة الثالثة من الجزء الأول (١) ما يأتى :

« ولم يزالوا فى بوس وعناق » وكلمة البوس من الألفاظ العامية وقد عدها الخفاجى (٢) من الدخيل الفارسى ، وقد شاعت الكلمة فى العصر العباسى . مرادفة للتقبيل . وهى مستعملة كثيراً فى نصوص الحكايات . ولنا أن نقول فى إسناد الفعل « يزال » إلى ضمير الجمع المذكر شىء من التأثر بالأسلوب العامى الذى يعوض من ضمير المثنى ، فلا يفهم من ذلك أن صاحب الحكاية التجأ إلى الجمع أخذاً بأساليب التبجيل والاحترام .

وقد جاء فى الصفحة نفسها : « فلما رأى الملك شهريار ذلك طار عقله من رأسه» . وطيران العقل من الرأس على هذا النحو أسلوب عامى لم يعرف فى الفصيح المشهور فى العربية ، وربما سمعت هذا الاستعمال فى أحاديث الناس فى لغتنا العامية البغدادية . ولا يعنى هذا أن الاستعمال مختص ببغداد دون سائر الأقاليم الأخرى ، فقد تجد شيئا من ذلك مما يدخل فى المشترك من الاستعمالات بين الأقاليم المختلفة .

وأنت تقرأ فى الصفحة الخامسة ما يأتى :

« فتوجه إلى منزله وهو غضبان مقهور خايف على نفسه من الملك » .

هذا فى الكلام على رجل من عامة الناس فهو غضبان وهو فوق الغضب

(١) اعتمدت على طبعة البابي الحلبي لأنها أتم الطبعات.

(٢) الخفاجى ، شفاء الغليل مادة (بوس).

« مقهور » و« القهر » فى هذا المكان لفظ عامى له دلالته المعروفة ، والمراد به « متألم » ومازالت هذه الدلالة معروفة فى هذه الكلمة فى عاميتنا العراقية بصورة عامة والعامية البغدادية على وجه الخصوص . ثم إنه « خايف » وهذا الوصف جاء على « فاعل » بإثبات الياء دون الهمزة كما هو معروف فى الأساليب العامية ، فالعامية لاتلجأ إلى الهمزة فى هذه المواطن ، وربما ابتعدت العامية عن الهمزة فى كثيرمن الألفاظ فهى تلجأ لتسهيل الهمزة كما هو الحال فى العامية البغدادية أو قل العراقية عامة . فكلمة « الألف » بكسر الهمزة تصبح « ألوف » بكسر الواو، والفعل «يأكل » بالهمزة يصبح « ياكل » بالتسهيل وهكذا جاءت « خايف » بدلا من « خائف » . والذى نستدله من ذلك أن عامية « ألف ليلة وليلة » تجرى على السليقة الدارجة فى هروبها من الهمزة الثقيلة ، وقديماً هربت لغة قريش من هذه الهمزة لولا أن القرآن قد التزم بالهمز فثبتت فى العربية الفصيحة .

ثم يقول : « وحكى لها ماجرى من الاول إلى الآخر مع الملك »وهذا الاستعمال يشعرك أن صاحب الحكاية يريد أن يثبت أسلوباً دارجاً باستعماله « من الأول إلى الآخر) يؤيد هذا المذهب الذى أراده قاصداً .

ثم تقرأ فى الصفحة السادسة : (وحرك ذنبه وضرط وبرطع) والكلمات والأسلوب من العامى الادنى . وتحريك الذنب كناية من شىء معروف ،والضراط معروف أيضاً ؛ ولم يكتف الكاتب بذلك فقد جاء بكلمة (برطع ولاتعرف كتب اللغة المطولة هذه الكلمة ، وأكبر الظن أنها من مولدات العامة فى الكلام على (السخيف)من الموضوعات .

ويدخل فى باب (السخف)ألفاظ البذاءة ؛ وللعامة غرام فى التوليد والاختراع فى هذا الموضوع ؛ ولاسيما فى التمليح عما يتصل بالأعضاء الجنسية وبالأعمال الجنسية ولاتأنف العقلية العامية من ذكر المستكره من الالفاظ مما يتعلق ببراز الإنسان على وجه الخصوص (Scatalogie) . والتوليد فى باب (السـخف) بين

العامة مشهور فى كل زمان ، وإلى هذا ينبغى النظر فى قوله (برطع) .

وأنت تقرأ فى الصفحة نفسها : « فسمع التاجر الكلاب وهو ينادى الديك ويسبه ويقول له : أنت فرحان وصاحبنا رايح يموت » .

وأريد أن أقف على قوله : « رايح يموت » فاستعماله « رايح » يريد به القرب والوشك ، فكأنه أراد أن يقول : « يوشك أن يموت » أو « يكاد يموت » ، ولكنه آثر الأسلوب العامى بالاعتماد على مادة « راح » فى معناها الدراج المعروف الذى ما زلنا نستعمله حتى يومنا هذا فى أغلب الأقاليم .

وتقرأ فى الصفحة الثامنة ما يأتى :

« فجلس تحت شجرة وحط يده فى خرجه » .

وأنا أريد أن أقول لك : إن ورود الفعل « حط » من الاستعمالات العامية وأن جاء فى كتب اللغة ، فاستعماله للوضع بهذه الصورة من العامية ، ذلك أن استعماله فى الفصيح فى غير هذا . فى حديث عمر : « إذا حططتم الرحال فشدوا السروج »[1].

على أن هذا الفعل قد ورد كثيراً فى حكايات « ألف ليلة ليلة » مما يدل على عناية صاحب الحكايات بنقل المادة الدارجة .

ثم يقول : « فرجع إلى بلده وقضى جميع تعلقاته » . والتعلقات بهذا المعنى لابد أن تكون مستعارة من العامى الدارج .

ثم تقرأ فى الصفحة نفسها : « وأقيم عليه العياط والصراخ » والعياط بهذا المعنى استعمال عامى مازال حياً معروفاً فى عاميتنا البغدادية خاصة والعراقية على وجه العموم . وليس فى معانى الكلمة فى كتب اللغة ما يشير إلى هذا الاستعمال فى العامية الدارجة ، فالمراد بالعياط الصراخ على الميت ، فهو صراخ يطلق فى مقام خاص .

---

(١) انظر مادة «حطط» في لسان العرب.

وقد جاء فى كتب اللغة التمعيط وهو الجلبة ينادى بها الأشر عند السكر بقوله : (عيط) وليس بين الاستعمالين فائدة لغوية كثيرة .

وتقرأ الصفحة العاشرة : (أنت خلصتيه) وإسناد الفعل (خلص) للمخاطبة يقتضى حذف الياء فنقول (خلصته) بكسر التاء فى اللغة الفصيحة ، أما العامية فسبيلها إثبات الياء كما هى الحال فى عاميتنا الحديثة فى الأقاليم المختلفة ، وعلى هذا جرى صاحب الحكايات .

ويريد على عادته أن ينقل هذه العامية الدارجة دون أن يحرف منها كثيراً فيقول فى الصفحة نفسها : (فنى ثانى يوم) وما ظنك تكتب هذه العبارة الآن وأنت تكتب قصة مثلا بالأسلوب الفصيح على طريقة أهل هذا العصر ؛ بل تعدل عنه إلى قولك : (فنى اليوم الثانى) أما صاحب الحكاية فقد قصد من ذلك تسجيل كلام أهل تلك القرون فى محادثاتهم الدارجة اليومية .

وفى الصفحة الحادية عشرة نقرأ : (ففتحت أنا دكاناً أبيع فيه وأشترى) والدكان[١] فارسى معرب. أما دلالته فى العربية فالدكة المبنية للجلوس عليها ؛ كما فى حديث أبى هريرة : (فبنينا له دكانا من طين يجلس عليه) . ونعود للجملة فنقرأ (ففتحت دكانا) فيخيل إلينا أن قائلها من أهل هذا العصر ؛ ففتح الدكان يعنى مباشرة العمل التجارى ؛ وهو استعمال عامى مازلنا نسمعه كل يوم . ثم إن هذا الدكان (يبيع فيه ويشترى) واختصاص (الدكان) بالبيع والشراء على هذه الصورة نقل للأسلوب العامى الذى مازلنا نباشره حتى يومنا هذا .

وينطلق صاحب هذا الدكان متحدثا فيقول :

(وأرادوا أن أسافر معهم فلم أرض ...)

---

(١) الجوهري ، الصحاح مادة (دكن).

ويأخذ كل واحـد منا ألف دينار ونتسبب بها) و (والتسبب) استعمال ما زال شائعاً فى العامية البغدادية ؛ وهو يعنى التـكسب ، وليس هذا الاستعمال معروفاً فى فصيح العربية . ذلك أن (التسبب) فى الفصيح ما زال متصلاً بمادة (سبب) .

ثم نقرأ فى الصفحة نفسها : (فجاءونى وأنا نايم بجانب زوجتى) ونعود فنرى الوصف (نايم) بالياء دون الهمزة على الطريقة الدارجـــة التى تهرب من قياسات الصرفيين كما أشرنا إلى ذلك .

والزوجة بإثبات علامة التأنيت تحضر كثيراً فى نصوص هذه (الحكايات) ومعنى ذلك أن الكاتب يهجر كلمة (زوج) جرياعلى المتعارف المشهور فى عامية العصور المتأخرة . فإن الفصيح هو (زوج) كما ورد فى القرآن : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) [1] ولكن لغة الشعر قد تتجاهل المشهور المتعارف فتلجأ مضطرة إلى غير المشهور المعروف كما فعل الشاعر ذو الرمة .

أذو زوجة بالمصر أم ذو خصومة

أراك لها فى البصرة اليـوم ثاويا

وكان الأصمعى ينكر كلمة (زوجة) ويقول : (زوج) ويحتج بقوله تعالى : (أمسك عليك زوجك) [2] . والأصمعى لا يعد ذا الرمة حجة (إذ طالما أكل البقل والمالح فى حوانيت البقالين) [3]. وفى هـذا الخبر فائده تاريخية لغوية ، ذلك أن الأصمعى يشير فى ذلك إلى لغة العامة من أصحاب الحرف ، وأنهم يلتزمون لغة تبتعد عن لغة الخاصة المهذبة .

---

(١) سورة الأعراف ١٩ .

(٢) سورة الأحزاب ٣٣ .

(٣) السيوطي ، المزهر ١/٤ .

وهكذ فالزوج هى « زوجة » دائماً فى نصوص هذه الحكايات جريا على الدارج المتعارف . ثم إن « الكتاب يخلط الحقيقة بالأسطورة وهذا واضح جلى . فأنت ترى كثيراً أن المرأة تنقلب مخلوقا آخر من الجن ، وهى هنا « عفريتة » بعلامة التأنيث ، وعالم العفاريت يحضر فى أخيلة العامة ، والعفريت فى خيال العامى شىء مخيف يشتمل على الجنس ففيه الذكر والأنثى وفيه الصغير والكبير . وما زلنا نعرف هذا اللون من الخيال والتجسيد فى عاميتنا الحديثة . وقد ورد العفريت فى لغة القرآن فى قوله تعالى : « قال عفريت من الجن أنا آتيك به»[١].

وفى الصفحة نفسها تقرأ هى « فحبّك قلبى[٢] » وفعل الحب لا يكون ثلاثياً إلا فى العامية الدارجة ، والفصيح هو الرباعى (أحبّ). ومازلنا نستعمل فى عاميتنا العراقية بصورة العامة الفعل فى صيغته الثلاثية ، كما هى الحال فى عامية الأقاليم العربية الأخرى .

وفى الصفحة الثالثة عشرة تقرأ :

« وهما فى كلام وغنج وضحك وتقبيل وهراش .

وتستوقفنا كلمة « هراش » واستعمالها فى هـــذه الجمله معروف من القرينة المكانية ، فالمراد منها الحركة الكثيرة العالية. وهى بهذا المعنى قريبة من استعمالها الحديث فى اللغة البغدادية أو العراقية على وجه العموم فى أيامنا هذه . ولكن هذا المعنى أو قل هذا الاستعمال غير وارد فى كتب اللغة ، فقد ذكر الجوهرى: الهراش والاهتراش تقاتل الكلاب[٣] . وهو تحريش بعضها على بعض . والتهريش :

---

(١) سورة النحل ٣٩.

(٢) استعمال الفعل الثلاثي «حب» من الاستعمالات العامية الشائعة في أيامنا. وإن كنا لا نعدم أن نجد في الشعر شيئاً من ذلك نحو قول المتنبي:

حببتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غداراً فكن أنت وافياً

(٣) صحاح الجوهري، مادة (هرش).

التحريش ، وفى الحديث : يتهارشون تهارش الـكلاب أى يتقاتلون ويتواثبون .

ونقرأ فى الصفحة الخامسة عشرة :

« فلما رأى الصياد ذلك العفريت ارتعدت فرائصه وتشبكت أسنانه ونشف ريقه وعمى عن طريقه» . ولم نعرف أن الأسنان « تتشبك» إلا فى هذه النصوص ، وأكبر الظن أنها مستعارة من الاستعمال العـامى الدارج ، وعاميتنا الحاضرة لاتعرف هذا الاستعمال . والتشبك والشبك للأصابع كما هو معروف فى كتب اللغة والذى يؤيد عامية هذا الاستعمال ماعطف عليها فقد جاء : «ونشف ريقه وعمى عن طريقه » وهاتان الجملتان تجعل هذا المجموع أقرب للأسلوب الدارج السائر منه إلى الفصيح .

كما نقرأ : « يا بعيد لأى شىء تقتلنى » واستعمال « البعيد » على هذه الصورة مستعارة من اللغة العامية الدارجة . ألا ترى أن عاميتنا البغدادية المعاصرة تستعمل هذه الـكلمة فى لون من ألوان النبز والشتم كأن يقال : « البعيد ما يستحى ما يخجل » . وما أظن أن هذا الاستعمال معروف فى غير البغدادية أو العراقية بوجه عام .

وفى الصفحة السادسة عشرة نقرأ :

« فو الله إن أبرأتنى أغنيتك لولد الولد » .

واستعماله « لولد الولد » يريد به أغنيتك وأغنيت أحفادك من بعدك . وما زلنا نستعمل هذا الأسلوب فى لغتنا العامية المعاصرة .

وفى هذه الصفحة نقرأ أيضا . « كان ملك ملوك الفرس يحب الفرجة والتنزه والصيد » . واستعمال الفرجة على هذه الصورة مأخوذة من العامية ، والـكلمة مازالت مستعملة فى عاميتنا البغدادية حتى هذا العصر ودلالة الفرجة (بضم الفاء) معروفة فى الفصيح ، فهى كفرجة الحائط ونحوه . غير أن تطورات اللغة تشير

إلى أن « الفَرجة » (بفتح الفاء) تعني التقصى من الهم[١] ، وهى الراحة من حزن أو مرض كقول أمية بن أبى الصلت .

ربما تـكره النفوس من الأمـ ـر له فرجة كحل العقال

وهذا المعنى ربما كان قريبامن مدلول « الفرجة » فى الحـكاية ، ولـكنها مع ذلك مأخوذة من العامية .وأحسب أن « الفرجة » فىالحـكاية (بضم الفاء) كما هو مستعمل فى أيامنا .ومما يقوى عاميتها عندى أنها متبوعة « بالتنزه والصيد » فليس فى هذا المجموع علاقة بترويح النفس من الهم والأسى ، وهى بذلك بمعنى « التفرج » فى العامية العراقيةالتى تعنى « التطلع » و « الاستمتاع » .

وفى الصفحة التاسعة عشرة نقرأ :

« وإذا بالغزالة أقبلت على الملك وشبتعلى رجليها وحطت يديها علىصدرها . فقال الملك : وحياة رأسى لأتبعنها وصار البازى يلطشها على عينيها إلى أن أعماها ودوخها » .

فهذه « الغزالة تشب على رجليها » ثم « تحط يديها على صدرها » واستعمال الفعل « حط» يؤيد ماأشرنا إليه من عامية هذه الـكلمة فى هذه الصورة المقصودة والـكلمة ما زالت مستعملة فى عاميتنا الدارجة . ثم إن صاحب الحـكاية يجعل الملك يقسم « بحياة رأسه » وهو هنا يستعير هذا القسم من العامية الدارجة ولا يجد ضيراً أن يقوله على لسان ملك . وهذا القسم من المألوف فى اللغة العامية فى لغة عصرنا الحاضر

ثم إن « البازى يلطشها على عينيها » واللطش يفيد الضربفى هذا الاستعمال ولم تشر كتب اللغة إلى « اللطش » فهو عامى دارج ، وما زلنا نستعمله فى عاميتنا البغدادية على وجه الخصوص وفى العامية العراقية بوجه عام . و « اللطش» بالشين

(١) انظر لسان العرب مادة (فرج).

المعجمة هو « اللطس» الذى تذكر معجمات اللغة ، ومعنى هذا أن إبدالا قد حصل بين الشين والسين وهذا يحصل كثيراً . والعامية تلجأ إلى هذا النوع من الإبدال فى مواد كثيرة . والبازى « يلطشها » على عينيها إلى أن أعماها و « دوخها » . والتدويخ فى كتب اللغة له معان كثيرة منها قولهم : « دوخ الوجع رأسه » أى أداره والكلمة وإن أشارت إليها كتب اللغة ، فهى من المفردات العامية المستعملة كثيراً ، وهى مازالت معروفة فى عاميتنا الحديثة فى كثير من الأقاليم .

وفى الصفحة الثالثة والعشرين نقرأ : « وأيقن بالهلاك وبال فى ثيابه » نقرأ هذه الفقرة فلا نرى فيها كلمة عامية ، ولكننا مع ذلك نحكم بعاميتها جملة ذلك أنها تحكى أسلوب العامة فى الاستعمالات والتشبيهات ، فالجملة تشير إلى أنه قد خاف خوفاً شديداً حتى ارتعدت فرائصه « فبال فى ثيابه » .

وفى الصفحة الرابعة والعشرين نقرأ :

«ففرجينا اليوم على طهيك وحسن طبخك» . وتعود إلينا « الفرجة والتفريج» وهى بالاستعمال الدارج الذى مازلنا نزاوله . ومعناه كما أشرنا « أطلعينا» وليس فى « التطلع » و « الاطلاع » ما يشير إلى استعماله الفصيح .

وفى الصفحة عينها نقرأ : « فإن السلطان جاء إليه واحد بهدية » . وإطلاق السلطان على الملك قد حدث فى عصور متأخرة . والأصل فى السلطان الحجة كما فى قوله تعالى : « هلك عنى سلطانية » أى حجته . وإنما سمى الوالى سلطاناً لأنه صاحب الحكم والحجة وهو صاحب السلطة . ولفظة السلطان ترد كثيراً فى نصوص « الحكايات » .

وهذا « السلطان جاء إليه واحد بهدية » نقرأ هذه العبارة فنلمح أنها نقل

---

(١) سورة الحاقة ٢٩ .

للمألوف من الكلام الدارج . فالمقصود بـ (واحد) أحد الناس ، وإطلاق هذه الكلمة على هذه الصورة لون من ألوان العامية الدارجة . وما زلنا نستعمل (واحد) هذا الاستعمال فى عاميتنا البغدادية الحديثة .

فى هذه الصفحة أيضاً : فقالت تلك الجارية : (من أول غزوته حصل كسر عصيانه) . وعامية هذه العبارة بادية واضحة وهى ما زالت مستعملة فى الأمثال العامية فى لغتنا البغدادية وفى غيرها من اللهجات المحلية .

وتقرأ فى الصفحة السادسة والعشرين ما يأتى :

ثم التفت الملك إلى الوزير وقال له : « سوّ أنت السمك ههنا قدامى » ،

وأنت لا بد أن تحكم على استعمال الفعل (سوّى) المضعف بأنه استعمال عامى فالمراد بالتسوية فى هذه الفقرة مطلق العمل ، فى حين أن المراد بالتسوية فى نصوص الكلام الفصيح جعل الشيء مستوياً . واستعمال الفعل على هذه الطريقة العامية ما زال حيا فى عاميتنا البغدادية .

وجاء فى الصفحة نفسها : (وقل للأمراء والوزراء والحجاب إن السلطان متشوش) .

ووصف السلطان بالتشويش من الاستعمال العامى الدارج ، والكلمة مستعملة كثيراً فى جميع الألسنة العربية الدارجة . وقد أنكر أهل اللغة هذه ونصوا على أنها من كلام المولدين ، وقالوا : وأصل التشويش التهويش وهو التخليط .

وجاء فى الصفحة السابعة والعشرين ما يأتى :

(وشامة على كرسى خده كترس من عنبر) فأنت لا تجد فى هذه الفقرة لفظة

---

(١) انظر مادة (شوش) في لسان العرب.

عامية مرذولة ، ولكنك مع ذلك تحكم على عامية هذه الفقرة لما تدرك من استعارتها وتشبيهها .

ثم إنك تجد فى الصفحة نفسها : « ثم توفى والدى وتسلطنت بعده » ، واشتقاق الفعل (تسلطن) على طريقة قاعدة توهم الأصالة فى اللغة ولم يعرف فى نصوص اللغة الفصيحة هذا الاشتقاق ، وهو مأخوذ من العامية الدارجة .

وفى الصفحة نفسها تجد : « أو هى تخليه باختياره »

واستعمال الفعل « خلى » المضعف استعمال عامى ، فلا تؤدى التخلية هذا المدلول فى اللغة الفصيحة . ومازلنا نستعمل هذا الفعل على ماورد فى حكايات « ألف ليلة وليلة » .

وفى الصفحة نفسها يأتى ذكر « البنج » فى قولها « فتضع البنج فى شرابه فينام ».

والبنج من الفارسى الدخيل الذى استعير فى الطب وشاع بين العامة . وما زال مستعملاً فى العامية العراقية .

ونقرأ فى الصفحة الثامنة والعشرين : « فناولتنى الكأس فتزاوغت عنه وجعلت أنى أشربه مثل عادتى ، ودلقته فى عبى ورقدت فى الوقت والساعة » . وعامية هذه العبارة واضحة من مخالفتها لمدلول الكلمات المستعملة فيها . فالتزاوغ يعنى الميل والانحراف واستعماله فى هذه الجملة يشير إلى التأثر بالعامية ، ثم أن العامية تظهر فى جعل الكأس مذكراً وذلك ضمير المذكر عليها . والكاس فى اللغة الفصيحة مؤنث كقوله تعالى : « بكأس من معين بيضاء »[1] . وجعل « الكأس » مذكراً من تأثر الاستعمال بالعامى الدارج . ثم نجده يقول : وجعلت

(١) سورة الصافات ٤٥ .

أنى أشربه مثل عادتى « وعامية هذه العبارة واضحة لحشو « أن » على هذه الصورة لا تلتئم والأسلوب الرشيق الخفيف . وفى قوله : « مثل عادتى » أسلوب عامى لا تعرفه اللغة الفصيحة .

وفى قوله : « ودلقته فى عب ورقدت فى الوقت والساعة » عامية ظاهرة . فلا نعرف للفعل « دلق » هذا الاستعمال . والكلمة « عِب » مستعارة من الألفاظ العامية التى مازلنا نستعملها فى العراق عامة ، وفى قوله : « فى الوقت والساعة » طريقة فى الاستعمال العامى الدارج أيضاً . وحشد هذه الألفاظ فى هذا المركب المجموع برسم العامية التى أشرنا إليها فى المقدمة التى تعتمد على الدلالات الخاصة بها والتى تبتعد عن فصيح العربية .

وفى الصفحة نفسها نقرأ : « ولولا أنى أخشى على خاطرك » فالخشية « على الخاطر » يراد الخشيه من أجلك ، وهذا أسلوب لا تعرفه العربية الفصيحة ، بل تحفل به اللهجات العامية الدارجة .

ثم نقرأ فى هذه الصفحة :

« وصارت بنت عمى واقفة تبكى وتقول ما أحد غيرك بقى لى فإن طردتنى ياويلى ياحبيبى يانور عينى » .

وهذا الكلام من المألوف فى اللغة العامية وإن الفصيح يأبى هذا الرصف وهذا النظام ، ذلك أن ألفاظ هذا النص فصيحة ، ولكن طريقة جمعها وانتظامها على هذه الصورة من العامى الدارج . فهو يريد بقوله « وصارت بنت عمى واقفة تبكى » وظلت بنت عمى واقفة تبكى . واستعمال « ما » للنفى فى قوله : « ما أحد غيرك » غير وارد كثيراً فى الفصيح واستعمال لا فى هذا المقام أجدر وأكثر . ثم إن هذه الاستغاثة والندبة فى قوله : « ياويلى ياحبيبى يا نور عينى » ذات تأثر بالأسلوب العامى .

وفى الصفحة التاسعة والعشرين نقرأ :

« وأنا أطول بالى عليها واستعمال « تطويل البال » عامى واضح وما زلنا نستعمله فى اللهجة البغدادية بصفة خاصة وفى اللهجات العراقية عامة .

وقد أشرت إلى أن الحوار يميل إلى العامية فى نصوص « الكتاب » وهذا شىء واضح جداً وهكذا نقرأ فى الصفحة الثالثة والثلاثين :

فقلن للحمال : اجلس على الرأس والعين » .

فالاستعمال « على الرأس والعين » يشير إلى العامية وما زلنا نستعمل هذا الأسلوب فى عاميتنا البغدادية .

وفى الصفحة نفسها نقرأ : « ولو كان غيره ما طول روحه علينا » وأنت من غير شك تتبين أن صاحب الحكاية يريد أن ينقل كلام العامة فى فترة تاريخية معينة . فليس « تطويل الروح » على هذا النحو من الكلام العامى الذى نلمح بقاياه الآن فى لغتنا البغدادية وفى الصفحة الأربعين نقرأ : « ثم قال لى فر بعمرك » . والاستعمال « فر بعمرك » عامى بعيد عن اللغة الفصيحة . والمتتبع للغة البغدادية واجد شيئا يقرب من ذلك فربما يقال فى أيامنا « خلص بعمره » أو « طار بعمره » .

وفى هذه الصفحة أيضاً يجد القارىء العبارة الآتية : « وهان على تلف عينى » وما أشك أنه لا يلمح فى مسألة « تلف العين » نقلاً للمتداول العامى الدارج الذى ما زلنا نستعمله فى عاميتنا البغدادية خاصة ، والعامية العراقية على وجه العموم . والباحث فى مادة « تلف » يعرف أنها مادة فصيحة وردت فى معجمات اللغة وقد وردت فى استعمال الفصحاء المتقدمين قال الفرزدق :

---

(١) انظر اللسان مادة (تلف)

وقوم كرام قـــد نقلنا إليهم   قراهم فأتلفنا المنايا وأتلفـــوا[١]

وكون الـكلمة فصيحة لا ينفى عنها صفة العامية . فللاستعمال دقائق وخصوصيات تبعد الـكلمة بها عن نطاق الفصيح المشهور .

وتقرأ فى الصفحة السابعة والأربعين ما يأتى : « نحنّ على الريس » ومعلوم أن المراد « بالريس » « الرئيس » وما زالت هذه الـكلمة مستعملة فى لغتنا العامية البغدادية .

وفى الصفحة التاسعة والأربعين نقرأ العبارة الآتية : « وصار عندنا فى الليوان » والليوان من أجزاء الدار العراقية قبل أن يجد فن العمارة الحديثة المتأثرة بالنمط الأوربى. وهو حيز بسعة الحجرة المتوسطه مشتملة على جدر ثلاثة أى أنه مفتوح من جبهته . و (الليوان) تحريف للمكلمة الفصيحة وهو (الإيوان) وقد أشرنا إلى أن سبيل العامية أنها تحرف اللفظ الفصيح باستخدام الإبدال أو القلب المـكانى أو زيادة حرف أو نقص حرف .

و (الإيوان) أو (الإوان) الصفة العظيمة ، وفى المحـكم : شبه أزَج غير مسدود الوجه ، وهو أعجمى ، ومنه إيوان كسرى قال الشاعر :

إيوان كسرى ذى القرى والريحان

وجمع (الإوان) (أون) مثل (خِوان) و (خوُن) ، وجمع (الإيوان) (أواوين) (وإيوانات)

وفى الصفحة الثانية والستين نقرأ : إن هذا شيخ كبير خرفان لا يدري ما يقول : والخرفان بزنة (فعلان) من الخرف (بفتحتين) وهو فساد العقل ، والصفة

---

(١) انظر اللسان (مادة أون)

من هذا المصدر لا تأتى فى اللغة الفصيحة على (فعلان) وإنما تأتى على (فعل) بكسر العين نحو (خرف) أما (خرفان) فهو من الاستعمال العامى الدارج الذى ما زلنا نستعمله فى لغتنا العامية البغدادية .

قال أبو النجم العجلى :

أقبلت من عند زياد كالخرف تخط رجلاى بخط مختلف [1]

وفى الصفحة نفسها نقرأ : (ياولدى أنت صغير تشتهى الدنيا ، وأنا كبير شبعت من الدنيا) .

و (اشتهاء الدنيا) يعنى (محبة الدنيا) والاشتهاء فصيح وانصرافه للدنيا باق فى حيز الاستعمالات الفصيحة ولكن العبارة المعطوفة عليها وهى (أنا كبير شبعت من الدنيا) يبدو عليها اللون العامى ، فحديث (الشبع) على هذا النحو لم يشع إلا فى اللغة العامية ، وإن كنت واجداً فى الفصيح شيئا من من ذلك ، فقد ينصرف الاستعمال الفصيح إلى العامية بالقرائن التى يتم عنها الاستعمال .

ونقرأ فى الصفحة الثالثة والستين : (ونحرتها بالسكين وقطعت رأسها وأعضاءها وحطيتها فى القفة بسرعة وغطيتها بالأزرار وحطيت عليها شقة بساط) .

وهذه العبارة من أولها إلى آخرها تشعر القارىء أن صاحب الحكاية أراد أن ينقل كلام الناس على صورته . فالفعل (حط) مسند إلى المتكلم وبنية الفعل فى هذا الإسناد على الطريقة العامية التى نستعملها الآن ، ذلك أن الفعل الماضى الثلاثى المضعف يفك أدغامه عند الإسناد فى اللغة الفصيحة فتقول فى (مد)

---

(١) انظر اللسان (مادة خرف)

(مددت) مثلاً ، فى حين أن العامية لا تلجأ إلى فك الأدغام ، وإنما تضيف ياء حشواً كما نقول الآن (استمريت) بدلا من (استمررت) وكأن صيغة الفعل قبل الأسناد مختومة بالألف نحو (حطى) و (ومدى) وليس الأمر كذلك . ولنرجع إلى هذه العبارة (وحطيتها فى القفة) فنجد أن صيغة الفعل المسندة على الطريقة العامية تنسجم و (القفة) ذلك أن هذا التركيب بما ينصرف إليه لا يخرج عن الجو العامى . ثم تختم العبارة بقوله :

(وحطيت عليها شقة بساط) والمراد (بشقة بساط) بساط صغير ، و (شقة البساط) على هذه الطريقة مما نستعمله فى لغتنا البغدادية الدارجة حتى يومنا هذا .

وفى الصفحة الرابعة والستين نقرأ : (ودخلا الوزارة وكل منهما يتولاها جمعة . فاتفق فى ليلة من الليالى أن السلطان كان عازما على السفر فى الصباح. وكانت النوبة للكبير) .

أما قول صاحب الحكاية . (وكل منهما يتولاها جمعة) فالمراد بـ (الجمعة) أسبوع كامل ويسمى الأسبوع باسم أشهر أيامه وهو الجمعة على الطريقة العامية ، وهذه الطريقة العامية غير مستعملة الآن فى بغداد ، ولكنها معروفة فى بلدان الشمال الأفريقى ولا سيما فى (تونس) ومعلوم أن لغة تونس تعتمد على اللغة العراقية فى الحدود التاريخية التى مصرت فيها (القيروان) حاضرة الشمال الإفريقى فى القرون المتقدمة من التاريخ الإسلامى . ولا يبعد أن يكون هذا الاستعمال مما كان معروفا فى اللغة البغدادية العامية القديمة .

وقول صاحب الحكاية : (وكانت النوبة للكبير) داخل فى الاستعمال العامى الذى مازلنا نزاوله وهو استعمال (النوبة) على هذا النحو .

وفى الصفحة الثامنة والستين نقرأ : (وما زال نور الدين يوصى ولده حسن بدر الدين حتّى طلعت روحه) .

و (طلوع الروح) يعنى الموت ، وهو من الاستعمالات العامية الدارجة وما زلنا نردده فى اللغة البغدادية العامية على سبيل الحقيقة أو المجاز . والمراد بالمعنى المجازى فى عبارة (طلوع الروح) التعب والمشقة . ولغتنا العامية البغدادية تميل إلى صيغة أخرى من مصدر (طلع) وهو (طلعان الروح) بكسر الطاء .

وفى الصفحة التاسعة والستين نقرأ : (فقمت وأنا مرعوب وخفت أن يفوت النهار) .

وعبارة (يفوت النهار) تشعر بالعامية ، ونحن مازلنا تستعمل فى عاميتنا هذه العبارة .

وأنت تقرأ فى الصفحة السبعين : (وحياة رأسى لا أزوجها إلا لأقل منى برغم أنفك) .

فيستوقفك (عبارة رأسى) وهى أسلوب من أساليب القسم فى الأدب العامى الشعبي . ولقد أسلفت أن العامة تلتزم بالقسم وتكثر منه ، ولهم فى القسم أساليب خاصة ، ومن ذلك هذه العبارة التى لا أشك فى أنك تسمعها كل يوم على ألسنة العامة فى بغداد فى أيامنا هذه . وفى الصفحة الحادية والسبعين نقرأ : — (فبالله خذنى عندك وضمنى إلى حضنك ، وكانت بلا لباس) ونعيد قراءة (بلا لباس) لنرى هل ينصرف اللباس إلى عامة الثياب ، ولكننا نتبين أن المراد (باللباس) هو السروال الداخلى الذى يباشر الجسد ويستر العورة . واطلاق (اللباس) على هذا النوع من الملابس لغة عامية مازلنا نطلقها فى لغتنا العامية البغدادية .

وفى الصفحة الثالثة والسبعين نقرأ : (ياليته صبر حتى لبس حوائجه) . والمراد بـ (الحوائج) الألبسة المختلفة . وانصراف (الحوائج) إلى هذه المسائل لايكون إلا فى اللغة العامية الدارجة ، ومازلنا نسمع هذه اللفظة بهذا المعنى على ألسنة البغداديين المتقدمين فى السن . وأريد أن أقول إن الاستعمال قد يشيع فى

عصر ثم يموت فى فترة لاحقة ، وهذا أمر طبيعى فى اللغات كافة .

وفى الصفحة التاسعة والسبعين نقرأ : (فلما وصل إلى منزلها سمع حسها) . والمراد بـ (الحس) (الصوت) ومعنى (الحس) معروف فى اللغة الفصيحة . أما هذا المعنى فهو استعمال عامى دارج مازال موجوداً فى كثير من أقاليم العربية .

فإذا قرأت فى الصفحة الثالثة والثمانين : (فضحك وقال : كم عام لى غائب عنك فقالت له : سلامتك ، اسم الله حواليك ، أنت إنما خرجت إلى الكنيف لتقضى حاجة) .

وجدت هذه العبارات التى تشير إلى أنها نقل للأسلوب العامى الدارج . وقد أسلفت أن الحوار فى هذه (الليالى) يميل إلى نقل الكلام بالأسلوب العامى الدارجى . وما أظنك لاتلمح العامية فى قوله : (سلامتك) أو فى قوله (اسم الله حواليك) ، ثم إن استعمال (الكنيف) بمعنى (المستراح) مما هو مشهور عند العوام ، فمعانى (الكنيف) لاتنصرف إلى هذا دون غيره فى اللغة الفصيحة .

وفى الصفحة الخامسة والثمانين نقرأ : (ومرادنا نوديه إلى الطبيب ليداويه) . وقوله (نودى) من اللغه العامية الدارجة ومازلنا نستعمل هذه المادة فى عاميتنا العراقية ، كما هى موجودة فى العامية لكثير من أقطار العربية . وهذا الفعل العامى من الفصيح (نؤدى) وهو مشتق من الأداة ، واستعمال الفعل الفصيح يختلف عنه فى الفعل العامى .

وفى الصفحة نفسها نقرأ : (فحمله وطلع به من حوش البيت إلى زوجته) . والطلوع بمعنى الخروج مقابل للدخول استعمال عامى لا نجده فى الفصيح وما زال (الطلوع) بهذا المعنى فى عاميتنا العراقية . و (حوش البيت) يعنى ساحة الدار فى النمط العتيق للعمارة العراقية الشرقية . والحوش بهذا الاستعمال عامى شائع فى مختلف الجهات العراقية . وربما كان الأصل الفصيح لهذه الكلمة (الحشّ) أو

(الحُشّ) بفتح الحاء أو ضمها مع تضعيف الشين ومعنى هذه الكلمة جماعة النخل، وقال ابن دريد : هما النخل المجتمع . والحش أيضاً البستان، وربما كان هذا البستان محاطاً بنوع من السياج ، ثم توسع بهذا الاسم حتي صار يطلق على ساحة الدار فى العامية العراقية ، ثم إن هذه العامية لم تحتفظ بصيغة الاسم بل انتقلت بالمضعف إلى الأجوف ، وهذا الانتقال كثير فى العامية العراقية كما أن العكس حاصل أيضا ألا تراهم يقولون (لاف) ويريدون به (لفّ) المضعف بتحميله معنى الاستدارة . كما أن صيغة الأجوف ثابتة فى اللغة الفصيحة وهى تشير إلى شىء من هذا المعنى وهو (الإحاطة) فقد جاء فى كتب اللغة (الحائش) وهو جماعة كل شجر من الطرفاء والنخل وغيرهما ، وقال الشاعر :

فوجـــد الحائش فيما أحدقا　　　تفراً من الرامين إذا تودّما

فالحائش فى بيت الراجز (محدق) بشىء وهو مجتمع الشجر وهذا هو المعنى الذى أشرنا إليه نفسه . ومثل هـــذا المعنى قولهم : (احتوش القوم فلاناً ، وتحاوشوه بينهم) أى جعلوه وسطهم ، ومثله (احتوش القوم على فلان) أى جعلوه وسطهم[١] .

وفى الصفحة نفسها نقرأ . (فقال أما يكفى أنك أحدب حتى تكون حرامياً وتسرق اللحم والدهن ياستار استرنى بسترك الجميل) .

وقوله (ياستار استرنى) من ألفاظ الدعاء التى ترد كثيراً على ألسنة العامة فى العراق عامة . وللعامة ألفاظ يستعملونها فى الدعاء خاصة بهم لا ترد كثير فى الفصيح المشهور . وقوله (بسترك الجميل) داخل فى حيز هذه الألفاظ التى يقصد بها الدعاء على طريقة العامة . وفى الصفحة الحادية والتسعين نقرأ : (وقعدت أتحدث معها فأوصيت إليها بالإشارة ففهمت أنى أريد وصالها) . والفعل (قعد) فى هذه الجملة

(١) انظر اللسان مادة (حشش) ومادة (حوش).

يؤدى معنى (أفعال الشروع) مثل (قام) و (أخذ) و (وشرع) ولـكن هذا الفعل (قعد) لايكون فى عدة هذه الأفعال التى تعنى (البدء). ولـكنه مستعمل بهذا المعنى على الطريقة العامية ، وما زلنا نستعمل هذا الفعل بهذا المعنى فى عاميتنا البغدادية .

وقوله : (فأوحيت إليها بالأشارة) يعنى (أشرت إليها) وهو أسلوب فيه حكاية للدارج العامى .

وفى الصفحة نفسها نقرأ : (ثم رخت القناع وأخذت التفصيلة) .

وفى هذه العبارة الفعل (رخى) فى صيغة الثلاثى بمعنى (أسدلت)والصحيح استخدام الرباعى أرخى فى هذا المـكان . أما استعمال الثلاثى فإنه شائع فى العامية وما زلنا نستعمله فى عاميتنا العراقية . وهذا وجه من وجوه العامية أى أنها تعدل عن الصيغة الفصيحة إلى أخرى ولا ضابط فى هذا العدول ، فقد تعدل عن الثلاثى إلى الرباعى أو غيره ، أو بالعـكس من ذلك . أما (التفصيلة) فلم أهتد إلى المراد منها فربما كانت دالة على نوع خاص من الثياب ، ومثل هذا يجد فى كل عصر من العصور .

وفى الصفحة الثانية والتسعين نقرأ . (فقالت ياحبيبى أجى عندك . فقلت لها . أنا رجل غريب ومالى مكان يأوينى إلا الخان) .

نقرأ هذا اللون من الـكلام الذى هوألصق بالحـكايات ، فنتبين أن الحـكاية حين يعرض لها الحوار تلتجىء إلى لون من الـكلام ، وهو حكاية للمتداول الدارج بين العامة . فاستعمال الفعل «أجى» بمعنى (أجىء) تأثر بالعامية العراقية كما أن ذلك حاصل فى العاميات الأخرى .

ذلك أن العامية تبتعد عن الهمز فتميل إلى التسهيل فيها بحيث أصبح تسهيل الهمزة صفة لازمة للغات العامية ، على أن لغة قريش لم تـكن تلتزم بالهمز .

وفى هذه السبارة نقرأ كلمة (الخان) والخان من الدخيل الفارسى ، وقد عرب فى لفظ (الحان) فقد ذكر أبو حنيفة فى (الحانة) . أنها فارسية وأن أصلها (خانة) ومنه (الحان) و (الحانوت) وقيل (الحان) للتجار . وورود (الخان) فى لغة الحكايات يدل دلالة تاريخية على أن عامية طائفة من هذه الحكايات متأخرة ، ذلك أن (الخان) بلفظها الفارسى متأخرة ، أى أن المتأخرين عدلوا عن المعرب إلى الفارسى الأصيل[١] .

وفى الصفحة نفسها نقرأ :

« فمشى حتى أوصلنى إلى المنزل فقلت له فى غد تجينى هنا وتودينى ، فقال الحمار : بسم الله » .

وهذا الكلام حكاية للغة عامية دارجة لا سبيل إلى نكرانها ، وهى تؤكد ما أشرنا إليه من أن الحوار يأتى غالبا بلغة هى لغـــة العامة فى تجوزها وتساهلها .

ففى هذه العبارة جاء الفعل (تجى) بصيغة العامية فهو غير مهموز ، ثم نعود فنرى الفعل (تودينى) بمعنى (تأخذنى) وقد سبق الكلام على هذا الفعل .

وقول الحمار : (بسم الله) عود إلى لون من ألوان العامية التى تتكىء فى كثير من الأحيان على الكلام الفصيح وتأخذه بشكل خاص .

وفى الصفحة الثالثة والتسعين نقرأ : (وقلت له : تعال فى وقت الغروب ، قال : على الرأس) . واستعمال صاحب الحكاية (على الرأس) للدلالة على الجواب الإيجابى أى أن ذلك بمعنى (سمعاً وطاعة) ، أسلوب عامى ما زلنا نباشره فى عاميتنا البغدادية .

---

(١) انظر اللسان مادة (حون) ومادة (خون).

وفى الصفحة الرابعة والتسعين نقرأ العبارة الآتية : (وانصرفت أنا ولفيت يدى فى خرقة) . واستعمال الفعل (لف) على الطريقة العامية بدلا من (لففت) على طريقة فك التضعيف فى اللغة الفصيحة ، وقد سبق الكلام على هذا عند بحث الفعل (حط) .أوقد حدث شىء من هذا فى فصيح العربية ، فقد جاء فى كتب اللغة أن أباعبيده قال : (تظنيت) من (ظننت وأصله (تظننت)فكثرت النونات فقلبت إحداها ياء . كما قالوا : (قصّيت أظفارى) والأصل (قصّصت) أظفارى[1] ولكن لا أرى وجها للعلة التى أتى بها أبوعبيدة ، وهى (كثرةالنونات فقلبت إحداها ياء) ذلك أن هذه الطريقة تكون فى كل فعل عند من التزم بها والوجه فيها أنها ربما كانت لونا من ألوان اللغات المحلية الخاصة ، والذى يؤيد هذا الوجه وجودها الآن فى كثير من اللغات العامية ، وفى هذه الصفحة نفسها نجد : (فجهزتها ، وواريتها فى التراب ، وعملت لها ختمات) . ويراد بـ (عمل الختمات) قراءة كاملة للقرآن الكريم مرات عدة احتسابا والتماسا للأجر والثواب على روح المتوفاة » كما هى عادة المسلمين فى كل العصور . ولكن قوله : (عملت لها ختمات) استعمال عامى ما زلنا نسمعه على ألسنة العامة فى العراق . وفى هذه الصفحة أيضا نقرأ أيضا : (فقالت : لا بد أن تسافر معى . فقلت : نعم وواعدته على رأس الشهر) .

فقوله : (نعم وواعدته على رأس) استعمال عامى متداول وما أشك فى أنك تسمعه على ألسنة العامة فى بغداد . « فالمواعدة) و (رأس الشهر) مألوف فى العامية البغدادية .

وتقرأ فى الصفحة السادسة والتسعين : (وصار يأكل وهو متغضب) . فقوله : (متغضب) استعارة لكلمة عامية ما أظن أن غير العراقى على علم بها ، أو أنه يفهمها كما ينبغى . وهى لا تستعمل فى العامية إلا فى مواطن خاصة كأن

---

(١) انظر اللسان مادة (ظنن).

تقال فى حال الإقبال على طعام أو شراب لا يستساغ ، أو ما يناسب هذا المقام وفى هذه الصفحة نجد : (ووجدت عليه ديونا كثيرة ، فصبّرت أصحاب الديون ، وطيبت خواطرهم ، وصرت أبيع وأشترى وأعطى من الجمعة إلى الجمعة أصحاب الديون . فتقع أعيننا على كلام عامى دارج وإن كان معربا ، فتصبير أصحاب الديون (، و تطييب الخواطر) . وقوله : (وصرت أبيع وأشترى) و (أعطى من الجمعة إلى الجمعة أصحاب الديون)استعمالات لا ترقى فى مجموعها ورصفها إلى مستوى الفصيح المقبول .

وفى الصفحة المائة والثانية عشرة نقرأ : (وجعل يقول إن هذا الثور بطال ، مع أن القمح كثير وأصحاب الطحين يطلبونه . فأنا أعلقة فى الطاحون حتى يخلص طحين القمح . فعلقه فى الطاحون إلى قريب الصبح) وما نشك أن هذا الكلام يخرج عن حيز العامى الدارج برصفه ومجموعه ولحنه الواضح .

وفى الصفحة المائة والثالثة عشرة نقرأ : (قال لها : وكيف قصدتينى بهذا الأمر دون الخلق أجمعين).

وأنت لا يغيب عنك اللجوء إلى الصيغة العامية فى (قصدتينى) فالفصيح أن يقال : (قصدتِنى) بكسر التاء وليس من حاجة إلى إثبات الياء .

وفى الصفحة المائة والسابعة عشرة نقرأ : (ولا أخلّى مغنية بالمدينة إلا وأجى بها إلى بيتى) . واستعمال الفعل(خلّى على هذا النحو عامى دارج ما زال حياً فى عاميتنا البغدادية .

وفى الصفحة المائة والثامنة عشرة نقرأ : ياسيدى انظر جاريتك فإنها تشتهى قربك فاجبر خاطرها بكلمة) . وهذا الكلام ينأى عن الفصيح ويقرب من العامية الدراجة فى مجموعة ولا سيما مسألة (جبر الخاطر بالكلمة » .

ثم نقرأ فى الصفحة نفسها شيئا يقرب من ذلك وهو (فإذا رأت منك الانقباض انكسر خاطرها)

و (انكسار الخاطر) مقابل (لجبر الخواطر) وهو مساو له في كونه مما يستعمله العامة في درج كلامهم . ونحن مازلنا نستعمل ذلك في عاميتنا البغدادية وفي الصفحة المائة والعشرين نقرأ : (وأعطاه الله عز وجل الستر ومشى في الظلام وقوله : (وأعطاه الله الستر) يذكرنا بما يستعمله العامة في أيامنا من أقوال الدعاء ، فهم يقولون في هذا المعنى « الله يستر عليك) أو (الله يعطيك الستر) .

وفي الصفحة المائة والحادية والعشرين نجد : (ويقول لأخي كل ولا تستحي) والفعل (تستحي) واقع في حيز النهي ، ومعنى ذلك ينبغي أن يجزم والجزم يقتضي حذف الياء الأخيرة ، ولكن صاحب الحكاية لم يبال بهذه الضوابط النحوية جريا على اللغة العامية التي تتنكر لأشكال الإعراب كافة .

وفي هذه الصفحة أيضا نقرأ : (فقال له . ياسيدي عمري مارأيت . . .) . وقد جاءت كلمة (عمري) ظرفا للزمان ، واستخدام العمر ظرفا شائع في العامية ذلك أن سبيل العامية التخفف والإيجاز ، فلو أريدت الظرفية في الكلام الفصيح للزم أن يقال (طول عمري) .

وفي الصفحة المائة والرابعة والعشرين نقرأ . (فقالت ، أنت طول النهار في حظك وأنا قاعدة في البيت حزينة) . وليس من شك أن عبارة (وأنا قاعدة في البيت حزينة) مأخوذة من عامية دارجة ما زلنا نباشرها في أيامنا هذه . وأكبر الظن أن صاحب الحكاية نقل هذه العبارة مما هو مألوف على ألسنة العامة وهو من غير شك ينأى عن الإعراب فالكلمة (قاعدة) لا بد أن تكون بالهاء على الطريقة العامية ومثلها (حزينة) واستعمال القعود على هذا النحو هو عامي دارج .

وفي الصفحة المائة والخامسة والعشرين نجد . (فلما أخرجها رآها الناس بعيونهم) . فلو قال . (فلما أخرجها رآها الناس) وسكت لظل في حيز الفصاحة ، أو قل لكان كلامه بعيداً عن العامية . غير أنه لما زاد قوله (بعيونهم)

انصرف هذا المجموع إلى العامية . وهذا الاستعمال من الاستعمالات التى نباشرها فى عاميتنا البغدادية .

وفى الصفحة المائة والثانية والعشرين نقرأ . (فقبلت يدها فقالت لهـا . نعيما يا أنيس الجليس كيف حالك فى هذا الحمام) . وتلتزم اللغة العامية بألفاظ خاصة تقال فى مناسبات معروفة كألفاظ التحية ، وألفاظ الدعاء ، وألفاظ التعزية ، وألفاظ التهنئة ، ومن هذه ما يقال الآن فى مجاملاتنا الدارجة لمن حلق شعر رأسه ، أو لمن استحم فى الحمام .

والـكلمة التى تقال فى هاتين المناسبتين هى (نعيما) والـكلمة منصوبة دائما على تقدير فعل منـاسب كما نعب (أهلا وسهلا) . وقد استخدمت هذه الـكلمة فى عبـارة الحـكاية التى أشرنا إليها ، وما أظن أن غير العراقيين يستخدمون هذه الـكلمة فى لغاتهم الدراجة .

وفى الصفحة المـائة والتاسعة والعشرين نقرأ : (فقالت أمه لأبيه . ياسيدى هل تعدم الجارية وتعدم الولد ، فإن طال الأمر على الولد هج) . وأكبر الظن أن المقصود (بالعدم) فى هذا النص هو المعنى العامى . فالمراد بـ (تعدم الجارية) أو (تعدم الولد) هو التلف والخسارة كما هى الحال على ألسنة العامة . البغدادية ومما يدل على انصراف هذه الـكلمة إلى هذا المعنى العامى أن مجموع النص كله يدل على العامية الدارجة . فأنت تجد الفعل (هج) بالتضعيف وهو خاص بالعامية العراقية ، والمراد به (وخرج هائما على وجهه) وهو استعمال عامى شائع حتى يومنا هذا . وطريقة هذا الفعل أنه تحويل للأجوف الفصيح (هاج) إلى (هج) على طريقة العوام .

ونعود فى الصفحة نفسها فنرى العامية تطغى فى أسلوب الحـكاية الحوارى ، وهذا مصداق ماذهبنا إليه فى المقدمة ، من أن صاحب الحـكاية يحرص على أن ينقل فى الحـكاية ما يدور على ألسنة العامة ، والنص كما يأتى .

(قالت له اسهر هذه الليلة فإذا جاء فأمسكه واصطلح أنت وياه وأعطه الجارية . .) والنص كما هو واضح عامي دارج فكلمة (وياه) تعني و(وإياه) أو « معه » وهذا مما نستعمله في أيامنا في لغتنا العامية البغدادية .

وفي هذه الصفحة أيضاً نقرأ : (فلما مضت السنة دخل الوزير فضل الدين بن خاقان الحمام وخرج وهو عرقان فأصابه الهواء فلزم الوساد) .

وفي هذا النص ترد مادة (عرق) والعرق معروف والصفة من هذه المادة غير واردة في كتب اللغة إلا وزن واحد قليل الاستعمال هو (عرقة) للدلالة على المبالغة . أما عرقان فلم يرد ولم يسمع إلا على ألسنة العامة . وسبيل العامية أنها تختص بوزن دون آخر ،وفي كثير من الأحيان أن الوزن الذي تختاره العامية لا يكون في أوزان اللغة الفصيحة . وهذه الصيغة مازالت مستعملة حتى يومنا هذا في جهات عدة .

وفي الصفحة المائة والحادية والثلاثين نجد (أريد اليوم أن أحضر عند أخي فإنه يطهر ولده) . والمراد بالتطهير في هذه العبارة (الختان) واستعارة التطهير لعملية الختان ذات وجه مقبول ذلك أن الختان نوع من الطهارة .

ولكن اختيار هذه الكلمة للختان لم يقع إلا في اللسان الدارج . وهذه الكلمة مازالت حية في العامية العراقية ، أو قل إن العامة لا تعرف الختان مطلقاً وإنما تستعمل (الطهور) . وقد تجد في نصوص الحكايات خليطا من مواد فصيحة وأخرى غير فصيحة ولكن هذا المجموع بهذ الشكل من الخليط يصبح عامياً بعيداً عن الفصيح، ولا سيما إذا كان الكلام على لسان السوقة من الناس كما أشرنا إلى ذلك في المقدمة . فأنت تقرأ في الصفحة المائة والثانية والثلاثين ما يأتي (فلما نظر الدلال إلى ازدحام السوق نهض قائماً وقال: ياتجار : ياأرباب الأموال ، ما كل مدور جوزة، ولا كل مستطيلة موزة ، ولا كل حمراء لحمة،ولا كل بيضاء شحمة ، ولا كل صهباء خمرة ، ولا كل

سمراء تمرة ، ياتجار ،هذه الدرة اليتمية التى لاتنى الأموال لها بقيمة ، بكم تفتحون باب الثمن ،فقال واحد . . .) .

تقرأ هذا الكلام فتعرف أن (الدلال) خاطب به جماعة التجار ، والدلال من ينادى على البضاعة عند البيع وهو من المصطلحات المتأخرة التى جرت على ألسنة العامة ومازالت الكلمة مستعملة فى العراق للدلالة على حرفة (المناداة) .ثم إن هذا النص يشتمل على أمثال عامية وفصيحة وحشر هذين الضربين فى كلام واحد يجىء من المجموع نمطاً عامياً صرفاً ،فالمثل(ما كل مدور جوزة) والمثل (ما كل مستطيلة موزة) من الأمثال العامية ومازلنا نستعمل فى العامية البغدادية شيئاً يشبه ذلك فنقول : (موكل مدعبل جوز) و (المدعبل) سر المدّور فى العامية العراقية .ولكن صاحب الحكاية لم يكتف بضرب هذين المثلين بل عطف عليهما شيئا من الأمثال الفصيحة التي تضرب فى المقام نفسه وهى : (ما كل بيضاء شحمة) [١] و (ما كل حمراء لحمة) .

وفى الصفحة المائة والرابعة والثلاثين نقرأ : (وتكونون مبغوضين) وصيغة (مبغوض) من الثلاثى (بغض)وليس الثلاثى بمشهور . وأكبر الظن أن صاحب الحكاية نقل ذلك من اللغة العامية. والكلمة مازالت حية فى العامية البغدادية .وإذا رجعنا إلى كتب اللغة وجدنا أن الرباعى من هذا الفعل هو الفصيح المشهور ، ولم يقل بالثلاثى إلا أبو العباس ثعلب من علماء اللغة والنحو الأقدمين، وسبيله فى هذا القول أنه عرض لقوله تعالى : (إنى لعملكم من القالين) [٢] وفسر(القالين) بالباغضين ،فدل بهذا على أن بغض عنده لغة . قال : ولولا أنها لغة عنده لقال من المبغضين [٣] . وفى هذه الصفحة نفسها نقرأ أيضاً : (فلما نظر السلطان حالته وسمع مقالته قام عرق الغضب بين عينيه).

(١) انظر الميداني، مجمع الأمثال «فصل الميم».
(٢) سورة الشعراء، الآية ١٦٨.
(٣) انظر اللسان مادة (بغض).

وقد أشرنا إلى أن (السلطان) للدلالة على الملك أوالأمير هو صاحب السلطان أى صاحب الحكم ، وهو مما شاع فى الأزمنة المتأخرة مثل سلاطين آل عثمان . وفى إثبات هذا المصطلح دليل تاريخى على أن لغة (الحكايات)قد تأثرت بالعاميات المتأخرة .

ثم ذكره(لقيام عرق الغضب بين عينيه) تأكيد لهذا التأثر بالعامية الدارجة . واستعارة العرق للغضب وقيامه بين العينين مما نسمعه فىأيامنا علىألسنة المتحدثين على طريقتهم السهلة الدارجة .

ونقرأ فى الصفحة المائة والخامسه والثلاثين :(والريس واقف فى وسطالمركب يقول : (من بقى له حاجة من وداع أوزوادة أونسى حاجة فليأت بها) .وهذا نص لاتخفى عاميته ،(فالريس)هو (الرئيس) وقد أشرنا إلى ذلك.والكلمة كما قلنا مازالت حية على ألسنة المتكلمين فى لغتهم الدارجة . وهذا (الريس) ينادى : (من بقى له حاجة من وداع) وكلامه هذا لاينأى عن حيز الفصاحة لولا ماأضاف إليه من كلام عامى واضح فأضفى على المجموع صورة الكلام السائر الدارج ،وذلك أنه قال:(أو زوادة (و(الزوادة)مايزاد على الشىء فهى كالطُفافةووزنها(فُعالة)بضم الفاء.و(فعالة) تدل على بقايا الأشياء . ولكنا إذا رجعنا إلى مادة هذهالكلمة وجدناهاثلاثيةجوفاء فهى (زيد) ، أما العدول عن الياء إلى الواو فأمر ذلك راجع إلى أن العامية تسلك هذا السبيل فى اللغات العراقية عامة .ألاتراهم أنهم لايصغرون (العين) على(عيينة) جرياً على الفصيح المعروف فيقولون (عوينة) ومن ذلك أنك تقرأ على واجهات المحلات التى تبيع النظارات (العوينات) بالجمع جرياً على هذه العامية التى تميل إلى الواو دون الياء فىهذه (الكلمة) وأمثالها . وفى الصفحة المائة والسادسة والثلاثين نقرأ :(فقالت له : ياسيدى نحن غرباء وفرت الدمعة من عينيه) . و(فرار الدمعة) من العين استعارة للأسلوب الدارج العامى . وما زلنا نستعمل فى عاميتنا البغدادية شيئاً يقرب من هذا ، كأن نقول : (طفرت الدمعة من عينيه) .

وفى الصفحة المائة والسابعة والثلاثين نجد : فقال له نور الدين : (نحن محسوبين عليك) . وماأظنك لاتلمح العامية فى قوله : (محسوبين عليك) وهذا الاستعمال ما يزال مسموعا فى كلام العراقيين عامة .

ونقرأ فى الصفحة المائة والحادية والأربعين ما يأتى : « ثم قال الصياد : روح أنت إلى شغلك » . وانصراف « الرواح » إلى الذهاب لا يكون إلا فى العامية ، وما زال هذا المعنى فى كثير من اللغات العامية الدارجة .

ونقرأ فى الصفحة المائة والثانية والأربعين : « أريد أن تغنى لنا شيئا من شأن خاطر هذا الصياد » . فنشعر أن العامية تغلب على هذا الكلام . وهو قوله صاحب الحكاية . « من شأن خاطر » معناها معروف . وما زالت هذه العبارة مستعملة فى العامية البصرية . وهذه اللغة التى نجدها فى الحكايات لاتأنف من الدخيل الأجنبى الذى استعملته العامة فصار فى لغتها . فأنت تقرأ فى الصفحة المائة والسادسة والأربعين ما يأتى : (ثم أخذ بقجة فيها عشرة تفاصيل) . و (البقجة) هى الصرة المعروفة . وما أظن أن غير العراقيين يهتدون إلى معرفة هذه الكلمة متى قرءوا هذه الحكايات . ثم إن هذه (البقجة) فيها عشرة (تفاصيل) والتفاصيل لون من ألوان الثياب أى أنها مفصلة على طراز معين جرياً على أسلوب ذلك العصر فى التفصيل والخياطة : « وربما كانت لوناً من ألوان ما نسميه اليوم بـ La Mode .

وفى الصفحة المائة والثامنة والأربعين تقرأ : (ليلة الدخلة) والمراد بـ (ليلة الدخلة) ليلة دخول الرجل على عروسه ، وهى ليلة (البناء) وهذه الكلمة من الكلمات التى استعملتها العامة ، وهى ما زالت معروفة عند العراقيين عامة . وفى الصفحة المائة والحادية والخمسين نجد :

(قال لهم : يا أولاد عمى كل ما حكى هذا بطّال) . والمراد بـ (بطّال) بتشديد الطاء الباطل والكذب والبهتان . وهذه الكلمة بمعناها واستعمالها وصيغتها للدلالة

على هذا المعنى ، عامية وما زالت مستعملة فى كلام العراقيين أو البغداديين بصورة خاصة .

ونقرأ فى الصفحة المائة والرابعة والخمسين ما يأتى : فمد يده على جسدها وملّس والمراد بالفعل (ملّس) المس الرفيق وهو لون من ألوان العبث مع النساء . وهذه الكلمة عامية فى هذا المكان وإن كانت ذات أصل فصيح . وهى مستعملة فى أيامنا هذه تطلق فى مثل هذا المقام . وفى هذه الصفحة أيضاً نقرأ : « قال أريد أن أنام معك وأتصافى أنا وأنت » . والتصافى فى كتب اللغة التخالص ، وتصافيا تخالصا[1] . ولكنا إذا رجعنا إلى هذه العبارة وجدنا الكلمة تحمل اللون العامى فالمراد بالتصافى فى العامية العراقية الخلاص إلى حال من الأحوال ، وهذا هو المعنى المراد فى هذه العبارة . وفى الصفحة المائة والسابعة والخمسين نجد : (أن السيدة زبيدة أرسلت مع جارية بنجاً وبنجتها) . ونعود إلى (البنج) وهو المادة المخدرة باصطلاح عصرنا . ولكن البنج وهو دخيل فارسى مازال معروفا . والعامية على طريقتها تشتق الأفعال من أى مادة كانت ولهذا جاء الفعل (بنج) كما هو مستعمل الآن فى العامية العراقية حقيقة ومجازاً . والمراد بالاستعمال المجازى حالة الغيبوبة مطلقاً .

وفى الصفحة المائة والتاسعة والخمسين نقرأ : (وكان يظن أنه رجل مسكين مديون ..) وأريد أن أقف على كلمة (مديون) لأشير إلى أنها صيغة عامية ، والفصيح أن يقال (مدين) . واللغات العامية لا تعرف (المدين) وهى كلها تستعمل (مديون) على مفعول فلا تميل إلى هذا التخفيف فى الصيغة التى أسماها الصرفيون (الإعلال) .

وفى الصفحة المائة نقرا ما يأتى : (إنه ابن ناس وعليه أثر النعمة) . وهذه

---

(١) انظر اللسان مادة (صفو).

العبارة تشتمل على قول صاحب الحكاية (ابن ناس) والمراد بهذه (ابن أمجاد) أو أنه من أسرة طيبة . وهذه العبارة عامية واضحة ما زالت مستعملة حتى يومنا هذا فى عاميتنا البغدادية . وربما سمعنا شيئا آخر يقرب من هذه العبارة هو (ابن أوادم) والأوادم فى هذا الاستعمال العامى جمع لآدمى ، والآدمى عندهم هو الخيّر الماجد .

وفى الصفحة المائة والتاسعة والستين نقرأ : « فقالت له : وحق دينى » . وهذا الضرب من عبارات القسم مستعار من العامية الدارجة ، وهو ما زال مستعملا فى العامية البغدادية . وقد أشرت غير مرة أن العامية تلتزم بالقسم . وللقسم عندهم أساليب خاصة بهم عرضت لطرف منها .

ونقرأ فى الصفحة المائة والسبعين ما يأتى : « وقالت له : طب نفساً وقر عينا فإنك ضيفى وصار بيننا خبز وملح » .وقد أشرت إلى أن الحكايات تعمد إلى نقل الكلام العامى على صورته ، والكلام العامى له خصائص . ومن ذلك اشتماله على أجزاء كثيرة فصيحة ، وأنه يجمع بين الفصيح وغيره . ولكن هذا الفصيح يفقد صفة الفصاحة إذا ما صُفّ إلى جنب غيره من ألفاظ السوقة . وقد عرض لهذا علماء البلاغة وضربوا الأمثال . وفى هذه العبارة نجد شيئاً من هذا فقوله : « طب نفساً وقر عيناً » من الفصيح العالى ، ولكن العبارة الأخيرة وهى « وصار بيننا خبز وملح » هى من العامية بمكان ، وإنك تسمعها كثيراً فى كلام العامة فى أيامنا . وربما قالوا شيئا مثل هذا وهو : « صار بيننا زاد وملح » والزاد هو الطعام عامة . ومعنى العبارة معروف فالمراد منها « أنه صارت بينهما علاقة قوية لا يمكن أن يتخطاها أحد منهما » .

وفى الصفحة المائة والثانية والسبعين نجد : « وقالت إن كان لعبك هكذا فأنت لا تعرف شيئا . فقال هذا أول دست ولا تحسبينه » . وهنا أريد أن أعود إلى الألفاظ الفارسية التى استعيرت فى العامية ، ومن ذلك كلمة « دست » التى

ما زلنا نستخدمها فى المكان نفسه فى صيغة « داس » وهى من كلمات الأطفال التى يستخدمونها فى المحال البغدادية العتيقة فى ضروب لعبهم ولهوهم .

وفى الصفحة المائة والسادسة والسبعين نقرأ العبارة الآتية :

(وأرسل أبوها إلى والدى مكتوبا فيه كلام لا ينبغى ذكره) .

و (المكتوب) فى هذا النص يعنى الرسالة ، وإطلاق (المكتوب) على الرسالة من الأمور المتأخرة وهو من الكلمات الشائعة فى العراق فى عصرنا ، وربما كانت أكثر شيوعا من كلمة رسالة .

ونقرأ فى الصفحة المائة والسابعة والسبعين ما يأتى : (فلما سمع شركان ذلك الكلام لاجت عيناه واحمرت وجنتاه) . والكلمة التى تستوقف الباحث فى هذا النص هو الفعل (لاج) وهو فعل عامى ومعناه فى العامية الحركة والاضطراب . على أن معناه فى اللغة الفصيحة غير هذا فيقال مثلا : (لاج الطعام فى فيه) أى أداره[1] . على أن استعماله العامى من الأمور المعروفة فى عاميتنا العراقية على وجه العموم .

وفى الصفحة المائة والحادية والثمانين نجد ما يأتى : (فقالت ما يكون إلا الخير) والمعنى واضح والنص مأخوذ من حوار تقتضيه الحكاية . ومن أجل ذلك قصد صاحب الحكاية أن يضع على ألسنة شخوصه ما يشيع من المتداول السائد من الكلام . وهذه العبارة ما زلنا نستعملها كثيراً فى الغرض نفسه .

وفى الصفحة المائة والسادسة والثمانين نقرأ (طول روحك واصبر) . وهذه العبارة واضحة المعنى كما أن اللون العامى واضح فيها فإن قوله : « طول روحك »

---

(١) انظر اللسان مادة «لوج». والفعل «لاج» من الأفعال العامية، وهو مقلوب (جال) الفصيح، والعامية تجنح إلى هذا القلب المكاني في كثير من المواد.

أى كن رحب الصـدر واسع البال . وهو كلام عامى نستعمله الآن كثيراً . وربما قلنا ما فى معناه وهو « طول بالك » وقد مرت هـذه العبارة الأخيرة فى نصوص الحـكايات وأشرنا إليها فى مكانها .

وفى الصفحـة المائة والثامنة والثمانين نجد ما يأتى : فقالت له أخته : « والله يا أخى إنى مالى وجه للسؤال » . والمراد بعبارة « مالى وجه للسؤال » أى أنى لا أملك الشجاعة لأسأل هذا السؤال . وهذه العبارة مازالت مسموعة فى العامية البغدادية .

ونقرأ فى الصفحة المائة والتاسعة والثمانين ما يأتى : « فقالت لاحول ولا قوة إلا بالله إنى دخلت فى خطيئة هذا الصبى » . والعبارة الأخيرة فى هذا النص تشير إلى العامية التى بقيت إلى هذه الأيام ، وهى « إنى دخلت فى خطيئة هذا الصبى » فالدخول فى الخطيئة تعبير عامى ومعناه أى أنى تحملت خطيئة بسبب هذا الصبى .

وفى الصفحة المائة والسابعة والتسعين نقرأ : « وأخذ لها مصاغا ووضعه فى بقجة من الأطلس » . وبهذه العبارة نقرأ كلمة « المصاغ » والمراد بها الحلى عامة وفى صوغ هـذه الـكلمة مخالفة للقياس المشهور فالصحيح الفصيح أن يقال « مصوغ » وهو اسم مفعول من الثلاثى « صاغ » ولـكن للعامية سننها وسبيلها فلا تـكترث بقوانين الصرفيين والنحاة وتجرى على سليقة خاصة تخترعها لنفسها .

ثم إن « المصاغ » وضعه فى (بقجة من الأطلس) وقد أشرنا إلى البقجة ودلالتها فى العامية العراقية ، ونضيف الآن أن هذه (البقجة) من (الأطلس)[1] والمراد بالأطلس الحرير كما هو معروف الآن عنـد العراقيين . فالأطلس عندهم لون خاص من الحرير . وهذا المعنى لا تثبته كتب اللغة فـكلمة (أطلس) ذات معان

(١) انظر اللسان مادة (طلس) .

عدة منها الوسخ الثياب ومنها صفة من صفات الذئب وشيء كثير آخر لا حاجة بنا أن نعرض له الآن . غير أننا لا نجد معنى الحرير فى هذه المادة اللغوية .

وفى الصفحة المائتين والخامسة عشرة نقرأ ما يأتى : « فأختلى بأخى ونستريح مع بعضنا ونشبع من بعضنا » . والعامية واضحة كل الوضوح فى هذا النص ولا سيما فى قول صاحب الحكاية : ونشبع من بعضنا » فالشبع على هذا النحو غير وارد فى اللغة الفصيحة . ومازلنا نستعمل هذه العبارة فى كلامنا الدارج .

ونقرأ فى الصفحة المائتين والثانية والأربعين مايأتى : « وعندهم جارية تغنى بالعربى » وعبارة تغنى بالعربى » عبارة عامية نستعملها الآن فى كلامنا الدارج كأن نقول « المغنية فلانة » تغنى بالفارسى مثلا .

وفى الصفحة المائتين والخمسين نجد : « لقد ضاع تعبنا » والمراد من العبارة معروف وهى من اللون الدارج الذى نستعمله كثيراً .

ونجد فى الصفحة المائتين والستين العبارة الآتية : لأننى لم يكن لى شغل فى حياة المرحوم والدك إلا بالحكايات) . وهذا من غير شك كلام عامى لا يختلف عن العامية الدارجة التى نباشرها الآن .

وفى الصفحة المائتين والرابعة والستين نقرأ ما يأتى : (وعبوا القماش فى الصناديق) . وفى هذه العبارة الفعل (عبى) وهو الصيغة العامية للفعل الفصيح (عبأ) . وقد قلت إن سبيل العامية العدول عن الهمز إلى التسهيل ، وتسهيل الهمزة فى هذا الفعل يؤدى إلى الألف الأخيرة . وهذا الفعل العامى هو المعروف الآن فى عاميتنا العراقية على وجه العموم .

وفى الصفحة المائتين والثانية والسبعين نجد : (واستمريت جالساً إلى وقت العشاء) . وفى هذه العبارة الفعل (واستمر) وهو مضعف مسند إلى ضمير الفاعل على الطريقة العامية الشائعة فى أيامنا . وهذا الإسناد العامى لا يقتضى

فك التضعيف ، إنما تضاف الياء حشواً . وقد شرحنا ذلك فى أفعال سبق الـكلام عليها .

وفى الصفحة المائتين والثالثة والثمانين نقرأ ما يأتى : (وقالت : يامولاى الله تعالى يهنيك بشبابك ولا يفضحك) . وقد أشرت أن العامة تلتزم بأساليب خاصة فى الدعاء تختلف عما ألف فى اللغة الفصيحة . وهذا النوع من الدعاء وهو أن يهنأ المدعو له بالشباب ، مما هو شائع فى عاميتنا اليوم . فأنت تسمع هـذه العبارة على ألسنة العامة فى كثير من مدن العراق . وفى هذه الصفحة أيضاً نقرأ ما يأتى : (أترجاك أن تمشى معى خطوات إلى ذلك الباب) . والعامة تعدل عن صيغة إلى صيغة فصيحة أخرى فتكثر فى كلامها حتى يخيل إليك أنها عامية . ومن ذلك الفعل (أترجى) وهو فعل مزيد ، فلا يقولون (أرجوك) . ومن سنن الفصاحة ذلك اللجوء إلى المجرد دون المزيد إذا تم المعنى فى الاثنين .

وفى الصفحة المـائتين والتاسعة والتسعين نقرأ ما يأتى : (فقالت : كل الذى جرى لى من تحت رأس هذه العجوز) وقول صاحب الحكاية (من تحت رأس) عامى واضح ما زلنا نستعمله فى لغتنا .

ونختم فى استقرائنا الجزء الأول من الـكتاب ونبدأ الجزء الثانى فنرى أن هذا النمط العامى الذى عرضنا لنماذج كثيرة منه يستمر فى نصوص الـكتاب فى الجزء الثانى أيضاً . ومن أجل ذلك فليس بنا حاجة أن نكرر ما كنا قد عرضنا له ، ولـكننا نسجل من هذه النماذج العامية ما لم يمر بنا فى استقرائنا لنصوص الجزء الأول .

ففى الصفحة الخامسة عشرة نقرأ ما يأتى (لحلفت له ألفا وخمسمائة يمين لا أخونه) . وهذا الأسلوب عامى واضح ، وهو اللجوء إلى العدد الـكبير لإثبات حقيقة من الحقائق ، وهذه الطريقة حاصلة فى عاميتنا البغدادية ، كأن يقال : (قلت له خمسين مرة لا تعمل هـــذا العمل) ، وربما بولغ فى هذا الأسلوب

على ظن لغة هذه الحكاية) فيقال : (قلت ألف مرة لا تعمل هذا العمل) .

ونقرأ فى الصفحة الرابعة والعشرين ما يأتى : و(ويبيعنى للغرابلى والناخلى ويسلى شحمى) وفى هذه العبارة يرد الغرابلى لصانع الغرابيل أوبائعها ، وكذلك (المناخلى) ولا أريد أن أعلق على هاتين الكلمتين إنما اقتصرت على الفعل (سلى) وهو فعل عامى ، و(سلى الشحم)طبخة وأصل هذا الفعل (سلأ) بالهمز ولكن العامية لا تحتمل الهمز كما أشرنا غير مرة فتعدل عنه إلى التسهيل . وفى كتب اللغة سلاه يسلؤه سلأ طبخة وعالجه فأذاب زبده ، والاسم : السّلاء بكسر السين وهو السمن قال الفرزدق :

كانوا كسالئة حمقاء إذ حقنت سلاءها فى أديم غير مربوب (١)

وفى هذه الصفحة أيضا نقرأ : « ولا أقدر أن أكسر بخاطرك » وهذا التعبير عامى ما زلنا نسمعه على ألسنة العامة فى كثير من نواحى العراق .

وفى الصفحة السابعة والأربعين نقرأ ما يأتى : (استدعى بماء فحضروا له الماء) وأريد أن أقف على الفعل المضعف (حضّر) والمراد منه فى هذا النص (أحضر) أى الرباعى المهموز وهو الفصيح المستعمل ، أما هذا الفعل المضعف فهو الشائع فى العامية كما هى الحال فى عاميتنا الحديثة .

ولابد من ملاحظة شيء واحد هو أن النصوص الفصيحة القديمة يكثر فيها المهموز الرباعى الذى زيد فيه الهمزة لغرض التعدية ، وهذه الصيغة التى تؤدى هذا الغرض أكثر من صيغة الرباعى فى الغرض نفسه ، وأنت إذا استقريت هاتين الصيغتين فى كتاب الله الكريم وجدت هذه الملاحظة صحيحة . ودليلنا أيضاً أن عاميتنا الحديثة البغدادية لا تعرف صيغة الرباعى المهموز فى غرض التعدية .

فنحن نستعمل الفعل (حضّر) المضعف فى المعنى الذى استعمل فيه فى

---

(١) انظر اللسان مادة (سلأ)

نصوص هذه الحكايات ومعناه (هيّأ) . على أن حاجة العصر تقتضى مواد لغوية جديدة . فالحضارة نقيض البداوة ولدت لنا الفعل (حضّر) المضعف باصطلاح أهل هذا العصر ، أو قل إنهم اشتقوا منها هذا الفعل .

وفى الصفحة الثانية والستين نقرأ ما يأتى : وأتحمل الصعوبة لأجل خاطرك وقوله (لأجل خاطرك) تعبير عامى واضح مازال متداولا بين العامة فى العراق .

ونقرأ فى الصفحة المائة والسابعة والسبعين العبارة الآتية : (وعملت أنها ميتة وبعد مادفنتموها شقت القبر) . واللون العامى واضح فى هذا النص فقوله : (وعملت أنها ميتة) ثم قوله (وبعدما دفنتموها) من الكلام العامى .

وفى الصفحة المائة والتاسعة والسبعين نجد ما يأتى : (فقال لها : يابنتى أنا عندى اليوم قبض زائد فاقعدى حتى أسكر معك) . والعامية فى هذا النص تتضح فى قوله : (عندى اليوم قبض زائد) . والمراد بالقبض الإمساك فى المعدة وهو احتباس وتصلب فى المعدة فلا يبرز الإنسان وهذة الكلمات الشائعة فى العامية البغدادية أو قل العراقية بصفة عامة .

وفى الصفحة المائه والتسعين نقرأ ما يأتى : (فما برح يتخضع لها حتى صالحها) . وفى هذا النص يرد الفعل (يتخضع) بتضعيف الضاد ومعناه فى النص (يتوسل بصورة ذليلة) وهذا الفعل فى معناه هذا عامى دارج مازلنا نسمعه فى العراق عامة ومادة هذا الفعل هى (خضع) وكتب اللغة لاتشير فى مفردات هذه المادة إلى هذه الصيغة أو هذا المعنى . فهو عامى منصرف إلى العامية ليس غير . وهكذا نكمل فى استقرائنا نصوص الجزء الثانى فنستمر فى الجزء الثالث لنسجل من هذه الألوان العامية ما يجد ولا نأبه لما يتكرر من نماذج سبق أن تكلمنا عليها .

وفى الصفحة الحادية عشرة نقرأ (وينطق عن قلب حنين) وكلمة (الحنين)

فى هذه العبارة وصف للقلب وهى على « فعيل » وأكثر أوزان فعيل يأتى نعتا . غير أن « الحنين » مصدر للفعل (حنّ) المضعف وهو بهذا الشكل فى اللغة الفصيحة ، ولكن العامية قد فهمت فيه الوصفية جرياً على الوزن (فعيل) وانصرافه إلى النعوت فى الأغلب الأعم . وما زالت هذه الكلمة مستعملة على الوصفية فى العامية البغدادية .

ونجد فى الصفحة التاسعة عشرة النص الآتى :

« فأخرجته من المكتب وحطته فى الصنعة فلم يتعلم شيئاً ولم يطلع من يده شىء من الشغل ، ونكبت أمه من أجل ذلك ، فقال لها الناس : زوجيه لعله يحمل همّ زوجته ويتخذ له صنعة ، فقامت وخطبت له بنتا » وليس من شك أن القارىء يكتشف فى هذا النص لغة عامية كأنها قيلت فى يومنا هذا . « فالمكتب » هو « المدرسة » أو « الكتاب » والفعل « حط » وقد تكلمنا عليه كثيراً ، ثم إن « الصنعة » هى المهنة ، وهى من الكلمات الشائعة فى العامية العراقية .. وفى قوله : « ولم يطلع من يده شىء من الشغل » كلام منقطع للعامية ، أى أنه لا يقوى على شىء ولا يفهم أى عمل . والنص فى مجموعه من العامية الشائعة .

وفى الصفحة الثالثة والثمانين نقرأ ما يأتى :

« فقمت واشتريت لى متاعاً وبضاعة وأسبابا وشيئا من أغراض السفر » . وفى هذا النص ترد كلمة « الأسباب » والأسباب بهذا الشكل عامية فهى تعنى الحاجات ومالا بد منه للمسافر من ضرورات مثلا . وهى كلمة شائعة فى العامية ، وليس الاستعمال الفصيح لهذه الكلمة مشابها لهذا الاستعمال المتداول العامى . ومثل هذه الكلمة وردت كلمة « الأغراض » وهى الحاجات وما يتزود به المسافر من زاد ومتاع ، وهذا الاستعمال عامى أيضا مازال متداولا فى كثير من جهات العراق .

خاتمـــة :

وبعد فهذا عرض سريع لمواد هـــذا الـكتاب الضخم لم أرد به المتعة وإزجاء الوقت ولـكني قصدت أن يكون دراسة لغوية تاريخية .

وقد تبينت أن عاميتنا البغدادية ، أو قل الألوان العامية العراقية ليست بعيدة مما سجلناه في هذا الاستقراء .

ولست أدعى أن هذا الاستقراء قد أصاب الشمول والعموم ، أو أنه أتى على كل الألوان العامية فى هذا الـكتاب . ولـكنه على كل حال يهيىء للباحثين فى هذا السفر مادة لابد من الوقوف عليها والنظر فيها .

الفصل الثالث عشر

العربية التونسية

ربما انصرف ذهن القارىء إلى أنى سأتكلم على اللغة العامية الدارجة فى تونس ، ولكنى لم أقصد إلى هذا ، وإن كانت هذه الألوان العامية حرية بالدرس والبحث عملا بالنهج العلمى فى درس اللغات دراسة تاريخية تعين على فهم شىء من تاريخ فصيح العربية .

وقد تهيأ لى أن أقضى فى تونس مايقرب من سنة كاملة ، فكان لى أن ألمت بشىء يتصل بأدب القوم وطرف آخر من معارفهم ، وأسلوبهم فى الكتابة ، ولم أقتصر على النظر فى هذه الأمور ، فقد استوقفتنى لغة الصحيفة اليومية بما فيها من خبر سياسى ، وآخر يتعلق بما يجرى بين الناس فى معاملاتهم وشئونهم الخاصة ومايعرض من أمور . ولم أقتصر كذلك على النظر فى هذه الأبواب فى هذه الفترة التى نباشرها من تاريخنا المعاصر بل تخطيتها إلى النظر فى الصحف والمجلات التى ظهرت فى عهد ماقبل الاستقلال .

وهذه الفترة الأخيرة مفيدة لنا نحن المشارقة الذين ضرب المستعمر بيننا وبين إخواننا فى الشمال الإفريقى .

وقد قلت إنى وقفت على أشياء كثيرة تتصل بلغة التونسيين فرأيت أن أسجلها وأشير إليها خدمة للتاريخ اللغوى . ولم أرد أن أسلك فى هذا البحث مسلك التخطئة فأدل على مكان التجاوز للفصيح فى هذه الاستعمالات التونسية ، ذلك أن هذه الاستعمالات التونسية فصيحة وإن عرض لها شىء يبعدها عن الفصيح المشهور ، فقد اتصفت بلون من الإقليمية أو قل المحلية ولهذا أسباب سأعرض لها عند الكلام على هذه الاستعمالات . ولا أريد أن أنهى هذه المقدمة القصيرة دون

أن أشير إلى أن هذه العربية التونسية قد حفلت بشيء من الفصيح القديم الذى ندر استعماله فى بلاد المشرق .

يشيع فى هذه اللغة صيغ عربية لم تجر على نحو ما نصت عليه كتب اللغة ، أو على نحو ماجرى الاستعمال به فى غير هذه الديار فمن ذلك :

الفعل « حجر » فالمعروف فى استعماله أن يجيء ثلاثياً مجرداً ، والقاعدة اللغوية تجرى على أنه إذا سمع المجرد فلا يلجأ إلى المزيد إلا لفائدة مقتضاة [(١)] ولكن التونسيين يستعملون هذا الفعل بصيغة التضعيف فيقولون مثلا . « حجّرت الحكومة الإفطار العلنى فى خلال شهر الصوم » . أو أنك تقرأ على لافتة فى الطريق « وقوف السيارات محجّر هنا » ومعنى هذا أن صيغة المضعف من هذا الفعل هو الفصيح الجارى عندهم فهم يستعملونه كما يستعملون سائر الصيغ التى تأتى منه كاسم المفعول مثلا

هذا هو الاستعمال التونسى أما الفصيح المشهور فإن الفعل « حجر » الثلاثى المجرد يعنى « منع » الحجر هو المنع وفى لغة التنزيل : « ويقولون حِجْراً محجوراً » [(٢)]

---

(١) هذه القاعدة أخذت بها العربية وجرى عليها الاستعمال، وفي لغة التنزيل ما يؤيد ذلك فقد قال تعالى: «يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده»، (سورة النمل ١٨). ألا ترى أن الفعل «حطم» جاء بصيغة المجرد ولم يأت مضعفاً كما هو شائع في استعمالنا الحديث، ولكن الاستعمال يعدل عن المجرد إلى المزيد لفائدة يقتضيها المعنى، ومن ذلك جاء قوله تعالى: «يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم» (سورة القصص ٤) فالفعل «يذبح» جاء مضعفاً والتضعيف في هذا المقام فائدة خاصة للدلالة على التهويل والاستفظاع. ومن هذه الفوائد ما ورد في قوله تعالى: «وغلقت الأبواب» (سورة يوسف ٢٢) فالتضعيف في الفعل يفيد الكثرة.

(٢) اللسان مادة «حجر» سورة الفرقان ٢٢.

أى حراماً مُحَرماً فقد استعمل الثلاثى المجرد فى صيغة اسم المفعول ، ومنه قولهم « حجر عليه القاضى يحجر حجراً » إذا منعه من التصرف فى ماله . وفى حديث عائشة وابن الزبير : « لقد هممت أن أحجر عليها » هو من الحجر المنع ، ومنه حجر القاضى على الصغير والسفيه إذا منعهما من التصرف فى مالهما .

وينبنى من هذا الفعل وزن « تفعل » فيقال تحجر على ماوسعه الله [1] أى حرمه وضيقه . وفى الحديث لقد تحجرت واسعاً ، أى ضيقت ماوسعه الله وخصصت به نفسك دون غيرك وقد حجره وحجره .

وينصرف المضعف من هذا الفعل إلى معان وأخرى فيقال : حَجَّر القمر إذا استدار بخط دقيق من غير أن يغلظ ، وكذلك إذا صارت حوله دارة فى الغيم . والتحجير أيضاً أن تَسِمَ حول عين البعير بميسم مستدير [2] .

ومن هذه الاستعمالات التونسية الفعل « تحصَّل » على وزن تفعل وهى تدخل فى الباب المتقدم ذكره ، فالتونسيون يستعملون هذه الصيغة ولا يفطنون إلى أن المجرد يغنى عنه ويسد مسده ، وليس من ضرورة تستدعى اللجوء إلى هذه الصيغة ، فهم يقولون مثلا : « تحصّلت الحكومة على النتائج الباهرة فى مقاومة التخلف الاقتصادى » فيعدون الفعل بـ « على » كما يتعدى الفعل المجرد « حصل » بهذا الحرف نفسه . وهذه الصيغة غير معروفة على هذا النحو فى الفصيح المشهور ذلك أنهم يقولون « تحصّل الشىءُ » بمعنى تجمع وثبت [3] . وهذهالزيادة فى هذا الفعل قد نقلت الفعل إلى معنى آخر .

ومن هذه الأفعال التى ترد فى الاستعمال التونسى على نحو خاص الفعل « وَقَعَ »

---

(١) اللسان مادة «حجر» .
(٢) الصحاح مادة «حجر» .
(٣) اللسان مادة «حصل» .

ولابد من النظر فى هذا الفعل فقد كثر استعماله بشكل يدعو إلى التأمل ، كأن يقال (المسألة التى وَقَعَ بحثها) ولا يقال المسألة التى بحثت . ويقولون: (المشكل الذى وقع النقاش فيه) وأنت واجد مثل هذا الاستعمال فى الصحف والمجلات والكتب العلمية وهو من الكثرة بحيث يجب الوقوف عليه . وأظن أن هذا الاستعمال قد حصل فى العربية التونسية بسبب التأثر بالاستعمالات الفرنسية ، واللغة الفرنسية ذات أثر فى الاستعمال التونسى كما سنتبين .

ومن هذه الأفعال أيضاً الفعل (أطرد) والتونسيون لا يستعملون المجرد الفصيح المشهور والذى يغنى عن هذه الصيغة المزيدة فيقولون مثلا : (أطرد العامل من عمله) وفى الفصيح المشهور الطرد الإبعاد ، والرجل مطرود وطريد ، أما الفعل « أطرد » فلها استعمال خاص فيقال : أطردت الإبل أى أمرت بطردها ، وفلان أطرده السلطان إذا أمر بإخراجه عن بلده[1] .

قال ابن السكيت : أطردته إذا صيرته طريداً ، وطردته إذا نفيته عنك وقلت له : اذهب عنا .وابن شميل يقول : أطردت الرجل أى جعلته طريداً لا يأمن . فأنت ترى أن صيغة « أطرد » تفيد فائدة ، وهى تؤدى خصوصية معنوية لا تأتى من المجرد « طرد » .

ومن هذه الاستعمالات التونسية قولهم : « اقتبل فخامة الرئيس الوفد التجارى على الساعة العاشرة صباحاً » وفى هذه الجملة نجد الفعل « اقتبل » فتثير استغرابنا ذلك أننا لم نألف هذه الزيادة فى الفعل « قبل » ، والمراد منها (استقبل) المشهور الشائع . وفى كتب اللغة : (اقتبل أمره) إذا استأنفه[2] ومن هنا فالاستعمال التونسى استعمال خاص لم تذكره معجمات العربية وكتب اللغة الأخرى .

---

(١) اللسان مادة «طرد».

(٢) اللسان مادة «قبل».

ثم إنك تلمح فى هذه الجملة شيئاً آخر ، ذلك هو استعمال حرف الجر « على » للدلالة على الظرفية . والمشهور المعروف أن الحرف « فى » هو الذى يؤدى هذه الظروف الزمانية ، وليس لنا أن نلجأ إلى التأويل فنقول إن الحرف «على» تضمن معنى «فى» فنقول بالتضمين الذى يشيع فى حروف الجر، ذلك أن هذا الخروج التضمينى لم يؤيده السماع .

ومن هذه الأفعال التى يتجاوزون فى استعمالها الفصيح المشهور الفعل « أبهر » ويريدون به الثلاثى « بهر » فيقولون مثلا « أبهرت بما شاهدته من التقدم العلمى » وكان الأصوب والأرشق أن يقال « بهرت» .

وزيادة الهمزة فى هذا الفعل تنقل الفعل إلى معان أخرى كما تنص على ذلك كتب اللغة . فالفعل « أبهر » استغنى بعد فقر ، وأبهر تزوج سيدة وهى البهيرة ، وأبهر الرجل إذا تلون فى أخلاقه دماثة مرة وخبثاً أخرى[1] .

وقد تقرأ فى الصحف التونسية ولا سيما ما ظهر منها قبل الاستقلال قولهم « ذكرت الرصيفة الثريا خبر استقالة الوزارة » . وفى هذه الجملة بنوا من الفعل « رصف » على فعيلة للدلالة على ما نستعمل فى عربيتنا السائرة فى أيامنا هذه لفظة « الزميلة » وهو استعمال خاص بهم لا يدرك إلا بهـذا التوسع فى دلالة الفعل « رصف »[2] .

ومن ألفاظهم الاصطلاحية كلمة (التصبير) وهى كلمة تدل على لون من ألوان الصناعة الحديثة . وهو اصطلاح لا نعرفه فى المشرق وإنما نستعمل « التعليب » ؛ ومعناه خزن الفواكه واللحوم والخضر فى الصفائح المعدنية . واستخدامهم هذا

---

(١) اللسان مادة «بهر».

(٢) جاء في (المعجم الوسيط): هو رصيف فلان أي يحاكيه في عمله ويألفه ولا يفارقه. وهي رصيفة وراجعنا اللسان والتاج والصحاح فلم نجد فيها معنى المحاكاة في العمل. ومع هذا فالمعنى المذكور معروف في الشام.

الاصطلاح لا يخلو من أساس لغوى معروف ، فأصل الصبر الحبس [1] ، وكل من حبس شيئاً فقد صبره ، ومنه الحديث : نهى عن المصبورة ، ونهى عن صبر ذى الروح ، والمصبورة التى نهى عنها: هى المحبوسة على الموت . وفى حديث آخر فى رجل أمسك رجلاً وقتله آخر فقال : اقتلوا القاتل واصبروا الصابر يعنى احبسوا الذى حبسه للموت حتى يموت كفعله به قال عنترة :

فصبرت عارفة لذلك حرّةً ترسو إذا نفس الجبان تطلّع

يقول : حبست نفساً صابرة .

فأنت ترى أنهم بنوا مصطلحهم من فكرة الحبس الذى يؤدى بالفعل « صبر »

كما أن « التعليب » فى استعمال المشارقة جاء من « علبة » والعلبة فى اللغة قدح ضخم من جلود الإبل . وقيل العلبة من خشب كالقدح الضخم يحلب فيها [2] . ومازال العراقيون يستعملون العلبة للاناء الذى يضعون فيه اللبن الخاثر ، وهى من خشب .

وأنت تقرأ فى كتبهم الفقهية مثلاً : « يجوز لمتسوغى أراضى الدولة أن يتمتعوا بالفوائد التى تضمنها فصول القانون » والمتسوغ من مصطلحاتهم القانونية فهو المستأجر ، ويبدو أن هذا الاستعمال قديم فى لغتهم .

و « الفصول » عندهم تقابل « المواد » القانونية فى اصطلاحنا .

وتأخذ الصحيفة اليومية فتقرأ فى الصفحة الأولى . « خطاب الممثل القار للجمهورية التونسية فى ندوة الأمم المتحدة » . وتعيد قراءة هذه الفقرة فتقف على كلمة « القار » ، فتلمح فيها شيئاً لم تألفه ، ثم تعرف أن التونسيين يريدون بالقارة كلمة « الدائم » أى الممثل الدائم . فقد بنوا من الفعل « قر » على وزن فاعل للتعبير

---

(١) اللسان مادة «صبر» .

(٢) اللسان مادة «علب» .

عن هذا المعنى ، وما أظن أن هذا الفعل يوصلهم إلى ما يريدون بيسر . وهذا لون من ألوان التوسع فى الاستعمال .

وربما يدفعك حب التطلع فتقرأ الأخبار القضائية فتقرأ فيها « القرار المخدوش فيه» ، ويريدون بالخدش على سبيل المجـــاز الطعن كما فى استعمالنا مثلاً « القرار المطعون فيه » .

وللقوم أساليب خاصة فى التعبير عن شئونهم ومايضطربون فيه ، وهذه التعابير وإن كانت عربية فهى موسومة بإقليمية محلية ، فأنت تقرأ فى الصحيفة التونسية :

« ازدان فراش السيد فلان وعقيلته بمولود ذكر أسمياه محمداً » فهذا اللون من التعبير لا نجده إلا فى الصحف التونسية .

وقد تجد فى هذه العربية التونسية شيئاً آخر هو أن المادة العربية الفصيحة استعملت فى دلالة جديدة لا تمت إلى الأصل بسبب ، أو قل إن المـادة الفصيحة قد أحالها الاستعمال إلى مادة عامية دارجة . ومن ذلك مادة (شيح) فيبنون منها الفعل (شاح) واسم الفاعل (شايح) لتدل على الجفاف واليبس ، فإذا قالوا : لحم شايح فيريدون به (جاف) وشاحت الفاكهة أى جفت ويبست .

وإذا رجعنا إلى كتب اللغة نرى مادة (شيح) (١) ودلالتها على الحذر والجد ، والشائح والمشيح والشيح هو الحذر الجاد . ولا نعلم وجهاً للتقريب بين الفصيح والمستعمل الدارج .

وقد تقرأ من استعمالاتهم ماينبنى على أصول قديمة ولـكنهم استخدموه بشىء من التوسع لأغراض جديدة ، ومن ذلك ماتجد أحياناً فى الصحف من استعمالاتهم (الوسق) بمعنى التصدير للبضائع . والوسق بفتح الواو وكسرها هو حمل بعير ، وهو ستون صاعاً ، والوسق وقر النخلة ، ووسقت الشىء أسقه وسقاً إذا حملته (٢)

---

(١) اللسان مادة «شيح» .

(٢) اللسان مادة «وسق» .

وفى لغتنا التجارية التصدير للبضاعة . ويقابله الاستيراد . ولكن التونسيين يعدلون عن الاستيراد إلى التوريد . قال ابن سيده تورّده واستورده كورده [١] .

وتقرأ فى هذا الباب قولهم : « وردّت الحكومة البضائع التى ثبتت صلوحيتها (للاستهلاك) ويريدون بالصلوحية الصلاح ، والمصدر من « صلح » صلاح وصلوح . وليس من حاجة إلى المصدر الصناعى « صلوحية » لأن هذا المصدر أكثر مايلجأ إليه فى المصطلح الفنى .

وهناك ألفاظ ذات مدلولات تونسية اصطلاحية غير معروفة عند المشارقة مثلاً ومنها : « التربص » ويراد به مايراد بالكلمة الفرنسية Stage ومانصطلح عليه « بالدورة التدريبية » لاكتساب الخبرة والتجربة فى فن من الفنون . وليس من سبيل إلى استعارة « التربص » فى هذا المعنى إلا بالتوسع البعيد . ومثل هذا المصطلح « المناظرة » بمعنى الاختبار والامتحان للحصول على السابق فى النتيجة ، وفى هذا مجاوزة وابتعاد عن الامتحان والاختبار اللذين يراد بهما النجاح ليس غير . على أن فى أخبار الأدب القديم مايشبه استعمال : تضمين لهذه الكلمة ، كالمناظرة بين الكسائى وسيبويه مثلاً .

وتقرأ فى الصحف التونسية « السلم العالمية » و « استتبت السلم » وهو خلاف المشهور من تذكير السلم فى لغة المشارقة . وكتب اللغة تشير إلى فصاحة هذا الاستعمال فقد جاء فى لسان العرب : السلم بفتح السين و كسرها الصلح يذكر ويؤنث [٢] .

وقد وردت هذه الكلمة فى لغة التنزيل . فجاءت بكسر السين فى سورة البقرة [٣] كما جاءت بفتح السين فى قوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » [٤] وقد جاء

---

(١) اللسان مادة «ورد» .

(٢) اللسان مادة «سلم»

(٣) سورة البقرة ٢٨ .

(٤) سورة الأنفال ٦١ .

ضمير الغيبة الذى يعود للسلم مؤنثاً فى هذه الآية ، كما جاءت بفتح السين واللام فى أربع آيات أخرى فى سور مختلفة .

وترى التونسيين يستعملون ألفاظاً لا نجدها فى استعمالنا المشرق ، ولكنها فصيحة تثبتها معجمات العربية ، فأنت تقرأ فى صحيفة من صحفهم : أن التاجر الفلانى يزف البشرى إلى « حرفائه » و« الحرفاء » جمع « حريف » وحريف الرجل معامله فى حرفته [1] . والحريف يقابل « الزبون » فى لغة المشارقة وجمعت على « زبائن » كما هو الدارج المألوف ، واستعارة الزبون لهذا المعنى شىء مولد ، وكتب اللغة لا تثبت هذه الدلالة ، فالناقة الزبون هى التى تدفع حالبها .

والفصيح القديم كثير فى اللغة التونسية فهو يطلقون (الشارع) على الطريق العريض الواسع ، و (النهج) على الطريق الذى دونه ، (الزنقة) على الطريق الضيق الذى لا ينفذ (Impasse) . وأكبر الظن أن هذه الكلمة الأخيرة تقابل (الزقاق) فى استعمالنا ، وهى قريبة منها فى الاشتقاق . والزُّقاق بضم الزاى السكة يذكر ويؤنث وقيل : الزقاق الطريق الضيق دون السكة .

على أن (الزنقة) قد وردت فى فصيح العربية وهى ميل فى جدار فى سكة أو عرقوب واد . والزنقة السكة الضيقة . وفى حديث عثمان (من يشترى هذه الزنقة فيزيدها فى المسجد) :

ويستعملون (الأحواز) جمع (حوز) للدلالة على الجهات القريبة من المدينة الكبيرة كما نستعمل (الضواحى) أو (الأرباض) أو ما شابه ذلك ، فيقولون مثلاً (تونس والأحواز) يريدون العاصمة وماجاورها . والحوز فى كتب اللغة ما انضم إلى الدار من المرافق والمنافع . وفى الحديث : (فحمى حوزة الإسلام) أى حدوده ونواحيه . وهكذا استعملت الكلمة التونسية بشىء من التوسع للاستفادة منها فى هذه الدلالة الجديدة .

---

(١) اللسان مادة «حرف».

وفى التنظيمات الإدارية نجد أن المدينة الكبيرة يطلق عليها « الولاية » ، وصاحب الولاية هو « الوالى » ، والولاية والوالى من الكلمات التى استعملت قديماً ، وظلت مستعملة إلى العهود القريبة الماضية وكان على الولاية قبل فترة الاستقلال « القائد » .

ويأتى بعد الولاية فى التنظيم الإدارى « المعتمدية » وهى أصغر من الولاية . ومعنى ذلك أن الولاية يتبعها « معتمديات » عدة ، وصاحب المعتمدية هو « المعتمد » وهذا من المصطلح الجديد الذى لا نراه فى غير تونس . وكان على هذه الشعبة من التنظيم الإدارى فى عهد الحماية الفرنسية « الكاهية » (١) . ثم تأتى « المشيخة » للقصبة الصغيرة وصاحبها هو (الشيخ) .

وقد تسمع فى تونس وغيرها من الشمال الإفريقى ألفاظاً فى هذا الباب لا نعرف لها أصلا ومن ذلك : (الدشرة) للجماعة الصغيرة المستوطنة فى مكان معين ، وهى لا تدخل فى التنظيمات الإدارية الرسمية ، ومثلها (المداشر) فى المعنى نفسه للمجتمعات الصغيرة .

ومن المناسب أن نعرض للألفاظ المتعلقة (بالوظيف الحكومى) ، ونقول الوظيف الحكومى وليس الوظائف الحكومية كما هو المسموع عادة . وفى هذا الباب مادة كثيرة لم نعرفها فى غير أقطار الشمال الإفريقى بصورة خاصة . ولا بد أن نأتى على هذا الجانب من هذه المادة اللغوية وهو :

(١) مدير المراسيم لرئيس الجمهورية ، وهو الموظف الكبير الذى يكلف أموراً معينة كاستقبال ضيف كبير أو ما أشبه ذلك ، وهى تقابل عندنا (مدير التشريفات) أو شيئا يشبه ذلك .

(٢) كاتب الدولة ، وهو منصب معروف فى تونس ، و(كاتب الدولة)عندهم

---

(١) من الألفاظ التركية.

هو (الوزير) عندنا . كأنهم عدلوا عن الوزير وهو كلة واحدة إلى هـذا التركيب الإضافى تقليداً وترجمة للـكلمة الفرنسية فى هذا الباب (Secrétaire d'Etat) وعلى هذا الأساس أيضاً لم تـكن لفظة (الوزارة) فى جدول مناصبهم الرسمية ، فهى (كتابة الدولة للتربية القومية) . وأود أن أنبه إلى أن الوصف بكلمة (القومية) أو (القومى) يرد كثيراً فى أسماء الإدارات الرسمية وشبه الرسمية نحو (صندوق الضمان القومى) ، و (الجامعة القومية لاتحاد النقابات) . وهذا الوصف لا يرمز إلى شى من معناه المتعارف عندنا فى الديار الشرقية ، فهو مقابل للـكلمة الفرنسية «National» (١)

(٣) كتابة الدولة للفلاحة ، والفلاحة عندهم هى (الزراعة) فى الميادين الرسمية وفى اللغة العامة ، و (الفلاح) عند التونسيين هو غير المشتغل بالأرض كما هى الحال عندنا ، فهو المالك للأرض والمنتفع منها والمستثمر لها فلا يقولون : (زارع) أو (زراع) أو كما نقول فى استعمالنا الشائع اليوم (مزارع) . وهكذا جاءت (الفلاحة) فى كثير من مصادرهم التاريخية القديمة ، وقد استعمل ابن خلدون فى المقدمة (الفلاحة) ولم يستعمل (الزراعة) مثلا (١) .

(٤) (مصلحة الاستخلاص) نجد لفظة (الاستخلاص) مستعملة كثيراً لغرض فنى فالمراد بها (الاستحصال) للرسوم والضرائب مثلا كأن تقرأ (استخلاص الأداءات القارة) .

وقد تقرأ (قباضات الأداءات القارة) و (القباضة) تعنى المكان الذى تسلم فيـه (الأداءات) والأداءات هى (الضرائب) التى يجب أداؤها ، أما

(١) ترجمة الفرنسية بكلمة قومية، صحيحة وهي المستعملة في مصر والشام (لجنة المجلة).

(٢) لم يستعمل القدماء في الشرق والغرب إلا كلمة «الفلاحة» بمعنى «Agriculture» فقالوا كتاب الفلاحة الرومية، وكتاب الفلاحة النبطية، وكتاب الفلاحة الأندلسية وهكذا.

(القارة) فقد مرت بنا وأسلفنا الكلام عليها . وقد تكون القباضة الإدارة التي يتسلم منها الموظفون مرتباتهم الشهرية .

(٥) (المكتب الجمهوري لجراية التقاعد) والمراد (بالمكتب الجمهوري) المكتب الذي ترجع إليه شئون الجهات والأقاليم غير العاصمة ، وقد يطلق على هذه (الجهات) (الآفاق) كأن يقال : (فلان من محامي الآفاق) أي مختلف الجهات ما خلا العاصمة .

و (الجهوى) نسبة فى (جهة) . وهذه النسبة غير معروفة فى الفصيح المشهور ، فكأنهم ردوا إلى الكلمة ما حذف منها ، والفصيح فيها عدم رد المحذوف إذا كان المحذوف فاء لا لاما ، فالنسبة إلى (عدة) (عدى)، ومثل هذا التجاوز ما نرى من النسبة إلى (وحدة) فى أيامنا هذه فيقولون : (فلان وحدوى أى من أنصار (الوحدة) ، للوحدة بين الدول العربية ، وزيادة الواو قبل ياء النسب لم تجر على سنن صحيح ، والفصيح هو (وحدى) أما (الجراية) فهى من المصطلح الذى لم يشع فى عصرنا هذا فهو المعين المرسوم من نقد أو عين .

(٦) (القيم العام) وهو مايقابله فى الفرنسية Surveillant général وهو مسئول فى المدارس الثانوية عن النظام وعن أمور أخرى وهو يساعد ناظر المدرسة فى ذلك .

(٧) (المتفقد) هو ما يقابل عندنا (المفتش) وعندهم متفقد للتعليم الثانوى ومثله للتعليم الابتدائى وغير ذلك مما يمس دائرة التفتيس فى مجالات عدة .

(٨) (الحجرة التجارية للحاضرة) ، وقد عدلوا عن (الغرفة) التى يستعملها أهل المشرق فى هذا الأمر ، وما أظنهم أرادوا التميز بين الحجرة والغرفة من حيث الاصطلاح اللغوى . و (الحاضرة) عندهم هى مدينة تونس دون سائر

المدن الأخرى فإذا أطلقت ُفهم المراد من لفظة (الحاضرة) ولم يختلط الأمر بالحواضر الأخرى .

(٩) (الرائد الرسمى) وهو الجريدة الرسمية سميت بهذا الاسم تمييزاً من كونها تختلف عن الجرائد الأخرى .

(١٠) (الصبايحى) وهو من أعوان (الوالى) يقوم بشئون الوالى نحو سجن الموقفين أو غير ذلك .

(١١) (المطلب) ويقابل لفظ (العريضة) عند أهل المشرق ، وربما كان من أثر الترجمة عن الفرنسية فهو فيها (Demande) . وهم يقولون مثلاً : (على المترشحين للمدارس الثانوية أن يعمّروا المطالب الضرورية) ولفظ (التعمير) يقابل (التحرير) عندنا ، وهذا شيء لا نعرفه عن معنى التعمير .

الألقاب العسكرية :

مازالت هذه الألقاب تحفل بالدخيل الأجنبي من تركى قديم إلى فرنسى جاء به الحكم الاستعمارى . ومن ذلك مثلاً : (الشاوش) و (الباش شاوش) و (الأمير ألاى) . (واليوزباشى) و (القائم مقام)[1] و (الكوميسار) وغير ذلك .

مصطلحات الجامع الأعظم :

هو (جامع الزيتونة) الشهير فى التاريخ التونسى وهو صفحة من الصفحات المشرقة ، والمعهد الأول لتونس ، ولهذا المعهد مصطلحاته وألقابه فعندهم :

١ — (الشيخ) ويطلق على خريج الجامع الأعظم وعلى من يباشر التدريس فيه

٢ — (الأهلية) وهى شهادة الدراسة الابتدائية فى المعهد .

(التحصيل) وهى شهادة الدراسة الثانوية وتقابل البكالوريا .

٤ — (العالمية)وهى شهادة الدراسة العالية وتقابل الليسانس فى الأنظمة الحديثة .

(١) «القائم مقام» من الألفاظ التي استعملها الترك بالإفادة من المادة العربية .

المصطلحات القضائية :

للتونسيين مصطلحات خاصة بهم فى هذا الباب لابد من تسجيلها ، ومن ذلك:

١ — (محكمة التعقيب) التى يطلق عليها فى جهات عدة من الشرق (محكمة التمييز) أو (محكمة النقض والإبرام) كما فى مصر .

٢ ـ (المحكمة الزجرية) وهى تقابل فى الفرنسية Le Tribunal Correctionnel.

٣ — (سابقية الإضمار) من الألفاظ الاصطلاحية فى القضاء التونسى ويقابله (سبق الإصرار) فى اللغة القضائية فى المشرق العربى .

٤ — (تهمة التمعش بالخنا) ويراد بالتمعش الاحتراف أى العيش بالخنا . وفى صوغ هذا المصدر توهم بأصالة الميم مع حذف الياء ، وقد جاءت الميم من المصدر (معيشة) ، ولا نعرف لهذا التوهم وجها ، ولم يستعمل إلا فى هـذه القرارات القضائية التونسية ، والعربية فى غنى عن الوقوع فى هذا الدرك .

٥ — (التدليس) وهذا من الألفاظ التى ترد فى الأحكام التونسية كأن يقال: (حكم على فلان بجريمة (التدليس) فى الشهادة ، أو (التدليس) فى الحساب مثلا والمراد بالتدليس هنا (التزوير) الذى يشيع فى اللغة القضائية فى المشرق ، واستعمال التدليس فصيح قديم فى هذا الباب ، والذى نعرفه أن من كتب ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ رسالة فى (طبقات المدلسين المسمى تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس) .

٦ — ويقولون مثلا : (تركبت الهيئة العليا للمحكمة من ستة أعضاء) واستخدام التركيب فى هذه الجملة غريب لم نألفه نحن المشارقة ذلك أننا نقول (تألفت الهيئة العليـا) .

٧ — ومن هذه المادة مانقرؤه فى الصحف من الإعلانات ومن ذلك (يعلن السيد . . أن بتة كراء مخزنين على ملك أحد المعمرين ستتم يوم الجمعة ٢٠ فيفرى).

وفى هذه الفقرة نعرف أن (مناقصة) باصطلاحنا المشرقى لإيجار مخزنين ستنتهى فى التاريخ المذكور ، ثم أن المخزنين (على ملك أحد المعمرين) أى أن المالك لهما أحد المعمرين ، والمعمرون هم الـ (Colons) فى الفرنسية أى الفرنسيون الذين استوطنوا تونس فعمروا لأنفسهم المزارع الكبيرة والمتاجر الضخمة .

الأسلوب المترجم فى اللغة التونسية :

تأثرت العربية التونسية الحديثة بالأساليب الفرنسية فى التعبير . ولم تكن العربية التونسية بدعاً فى هذا التأثر ، ذلك أن العربية الحديثة بصورة عامة قد اكتسبت شيئا نتيجة هذا الأسلوب المترجم .

وهذه الترجمة تبدو بوضوح فى لغة الخبر السياسى الذى نسمعه من المذياع ، وفى كثير من الأساليب الصحفية .

فإذا أصغيت إلى المذياع التونسى وحان وقت إذاعة الأخبار سمعت المذيع يقول: والآن تستمعون إلى الجريدة الناطقة ؛ ويريد بالجريدة الناطقة (نشرة الأخبار) ، والجريدة الناطقة نقل للتعبير الفرنسى Le Journal parle .

ثم نسمع فى هذه الأخبار أن (الجند الفرنسى قد اعتدى على التراب التونسى) ويراد (بالتراب) الأرض التونسية ، أى أن الاعتداء قد حدث فى الأرض التونسية . واستعمال (التراب) مقابل للتعبير الفرنسى Ter-toire .

وفى هذه الأخبار أيضا : (أن الرئيس قد قام بمسعى لفائدة السلم فى الجزائر) واستعمالها (لفائدة السلم) يريدون به (من أجل السلم) . ومجىء الفائدة جاء فى ترجمة للفرنسية au Profit .

ثم تسمع المذيع يقول : (اتصل الرئيس ببرقيات من طرف تعاضـــديات الفلاحين والصناعية ..) . واستعمال الفعل (اتصل) على هذا النحو شائع فى اللغة التونسية ، وربما كان نتيجة لترجمة عن الفرنسية . ثم إن استعمالهم (من طرف)

ويريدون به (من لدن) أو (من قبل) كان أيضاً نقلاً للتعبير الفرنسى «De la patt»

و (التعاضدية) استعمال تونسى مقابل لـ «Coopérative» وهى التعاونية) فى اصطلاحنا . أما الصنائعية فهى جمع يريدون به الصناع وهذا الجمع لم نسمعه فى غير تونس من أقطار العربية .

ثم تسمع أيضاً أن (الوزير قد قابل طائفة من الإطارات الحزبية) ، فتستغرب كلمة (الإطارات) وتراها جديدة على سمعك ، ولم تدر أنها ترجمة للتعبير الفرنسى «Cadres» ، ولفظة «Cadre» تعنى الإطار فى معناه الحسى وهو الأداة المعروفة ، ولكن الفرنسيين يتوسعون فى دلالته فينقلونه مجازاً إلى معنى آخر ، ويريدون به الأفراد المتعلمين الفنيين الذين يؤلفون العناصر الضرورية فى التنظيمات الاجتماعية بصورة عامة . وهكذا فإن التونسى ينقل اللفظة الفرنسية فيجد اللفظة المقابلة لها فى العربية فى معناها الحسى ، ولا يكتفى بذلك فيتوسع فى هذه العربية على طريقة المجاز كما توسع الفرنسيون فى لفظتهم . وهذا شيء لا تسيغه العربية كثيراً فلكل أمة مجازاتها وطرقها الخاصة فى التعبير (١) .

ومن هذا الأسلوب المترجم جاء فى العربية قولهم (كونغولى) و (طوغولى) فى النسبة إلى (الكونغو) وإلى (الطوغو) من الأقطار الإفريقية . واللام فى هاتين النسبتين ليست جارية على قواعد النسب العربية فهى زائدة ، وهى غريبة ، وهى من الفرنسية ومثل هذه النسبة استعمالهم (ألكترونيكية) فى قولهم :

---

(١) تستعمل كلمة Cadre الفرنسية بمعنى «إطار» في بعض الآلات والأدوات، وتستعمل بمعنى «الملاك» في الحكومة والجيش. فيقال مثلاً ملاك الضباط، وملاك المدربين، وملاك المحترفين، والملاك الدائم، الخ. أما في بعض الآلات والأدوات فيقال مثلاً. إطار التوجيه وإطار المروحة، والإطار الحامل الخ. وفي المعجم العسكري ٢٧ مصطلحاً لأشكال الكادر. وفي مصر يعربون الفرنسية.

(آلات ألـكترونيكية) فالـكاف الثانية فى الـكلمة من الفرنسية (Electronic) والصحيح أن تـكون الـكلمة فى العربية من دون الـكاف الأخيرة التى جىء بها فى الفرنسية للوصف هو مثـــل النسب فى إفادته للوصفية فيقال (آلات ألـكترونية) .

ومن هذا الأسلوب المترجم استعمالهم للظروف (أين) فى غير الاستفهام فيقولون مثلاً : (سيقام الاحتفال فى بطحاء الحـكومة أين يخطب الرئيس) ، والصحيح أن يستعمل الظرف (حيث) ، ولـكنهم تأثروا بالظرف المستعمل فى الفرنسية فى مثل هذه الحال وهو (ou)

مايتعلق بالزراعة والنباتات من الألفاظ :

نلمح فى هذا المجال مادة لغوية خاصة جديرة بالتسجيل والنظر ، ذلك أن تونس بلد زراعى يعتمد على الزراعة الاعتماد الـكلى .

ومن هذه المادة اللغوية مايتعلق بالأرض المزروعة ، فالأرض الـكبيرة المعدة للزرع يسمونها (هنشير) . ولا نعرف فى مواد العربية شيئاً من هذا ، وربما كانت هذه الـكلمة من المخلفات اللغوية القديمة ، فقد حفل التاريخ التونسى بلغات عدة كالرومانية والفينيقية واللهجات البربرية ، وقد حدثنى العـــالم الجليل السيد حسن حسنى عبد الوهاب أن الـكلمة كانت تطلق على المواقع التى هى مظان للماديات والنفائس العتيقة ثم استعملت الاستعمال الأخير الشائع .

ويسمون الأرض المعدة للزرع والتى تسقى من بئر تنصب عليها واسطة لإيصال الماء (السانية) وهذه الكلمة ذات أصل فصيح ، فالسانية فى معجمات اللغة الغرب وأداته ، والسانية الناضحة وهى الناقة التى يُستقى عليها. وفى المثل: سير السوانى سفر لا ينقطع . وعن الليث : السانية وجمعهـــا السوانى مايستقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره . وقـــد سنت السانية تسنو سنواً إذا استقت . وها نحن نرى أن السانية الغـــرب وأداته ثم

توسع فيها فى فصيح العربية فصارت تطلق على الحيوان الذى يستق به ، ثم توسع التونسيون فيها فصاروا يطلقونها على الأرض التى بهذه الطريقة .

ومن هذه لفظة (الكرد) فى العراق وهى مادة غير عربية ومعناها الأداة التى تنصب على بئر أو حفرة يجتمع فيها الماء الذى مصدره النهر ثم يستعان بالحيوان على إدارة عجلة هذه الأداة فيؤتى بالماء فى أوعية مربوطة بالعجلة. أقول توسع فى مدلول هذه الكلمة فأطلق (الكرد) و (والكرود) بصيغة الجمع على الأرض التى تسق بهذه الطريقة ثم صار المشتغلون بهذه الأرض (كرّادة) على صيغة المبالغة(١) .

ويزرع التونسيون (الزيتون) وقد اشتهرت تونس بزيتونها منذ أقدم العصور . وفى تونس من أصول الزيتون ما يرجع إلى عدة قرون ، وهم يسمون ما يظهر منه من دون أن يتعهده الإنسان بالزرع (الجالى) . والمادة عربية فصيحة ولكننا لا نعرف هذا الاستعمال فى مدلولات الكلمة الفصيحة .

ويسمون حاصل الزيتون (الصابة) وربما كانت مما يصيبه الفلاح من هذا الثمر المبارك .

واشتهرت تونس فى كونها تنتج الفواكه الحمضية كالليمون والبرتقال وغيره . وهذه الثمار تدعى (الحوامض) فى الديار الشامية والعراقية ، ويدعوها المصريون (الموالح) ، أما التونسيون فيسمونها (القوارص) وهى المصطلح العلمى والتجارى عنـــدهم على أن لفظ (القارص) يطلقونه على الليمون الحامض Citron دون غيره ، أما الليمون الحلو فيسمونه (الليم) .

---

(١) الكرد في كتب اللغة الدبرة. أي المزرعة الصغيرة أو جزء من المزرعة، والجمع كرود. وللدبرة معنى آخر وهو الساقية بين المزارع. أما الساقية فهي تطلق حديثاً على الناعورة التي تديرها الدواب أو المحركات. وهي غير الناعورة التي تدور بقوة جريان الماء.

ومن فاكهتهم (العوَينة) لما يدعى بالفرنسية « Prunnes » .

على أن التونسيين قلما يستعملون لفظ (الفاكهة) أو الفواكه) وإنما يعدلون عنها إلى (الغلة) أو (الغلال) بصيغة الجمع ، فإذا قيل عصير الغلال فالمراد به عصير الفاكهة . وانصراف (الغَلة) إلى هذا المعنى استعمال تونسيّ وتخصيص للكلمة بشيء دون غيره . وحقيقة (الغلة) فى كتب اللغة : الدخل الذى يحصل من الزرع والثمر واللبن والإجارة والنتاج ونحو ذلك ، وجمعها (غَلات) ، وفلان يُغِل على عياله أى يأتيهم بالغلة) [١] .

ومن الملاحظ أن « الفاكهة » عندهم قد تنصرف إلى ما يجفف من أصناف الفاكهة . ومن أسماء « التين » عندهم « الكرموس » و « الشريحة » ولا نعرف لذلك وجهاً [٢] .

ومن أصناف الفاكهه ما يدعونه « بوصاع » لما يسميه الشاميون « إيكى دنيا » و « وينى دنيا» [٣].

أما الخضروات « Legumes » ففيها شيء آخر خاص بهم ومن ذلك : القَنارية لما يدعى بالفرنسية « Artichant » ولم يثبت P.J. Belot هذه الكلمة فى معجمه الصغير الفرنسى العربى واكتفى بذكر « شوكى أو أرضى » ولا أدرى من أين جاء بهذين الاسمين ولعله أخذهما مما هو مستعمل فى لبنان ، وقد فاته أن الخفاجى فى « شفاء الغليل » قد ذكره وعده من الدخيل ولم ينص على أصله الذى جاء منه . قال الشهاب الخفاجى : القنارية هو بالمغرب نوع

---

(١) اللسان مادة «غلل»

(٢) شريحة التين في الشام من مصنوعاته اللذيذة (لجنة المجلة)

(٣) ويسمى بشملة في مصر. وهو زعرور اليابان Neflier du Japan وليس له اسم غربي قديم.

من الخس ومنه نوع يسمى (الخرشف) وخس الكلب والكنكر قال ابن المعتز

وقد بدت فيها ثمار الكنكر كأنها جماجم من عنبر[1]

على أن التونسيين لا يلفظونها بالقاف بل بالكاف الشديدة على نحو ما ينطق المصريون بالجيم[2] .

ومن خضرواتهم (السفنّارية) ويريدون بها الجزر .

ومنها (الجلبانة) بكسر الجيم ، وهى ما ندعوه (بالبزاليا) أوما يدعى بالفرنسية « Petit-Pois »[3].

والكلمة ذات أصل فصيح وإن تغيرت صورتها . فالجُلُّبان بضم الجيم واللام مع تشديد اللام نوع من القطانى . قال أبو حنيفة لم أسمعه من الأعراب إلا بالتشديد ، وما أكثر من يخففه : قال . ولعل التخفيف لغة[4] .

ويسمون القثاءأو الخيار « فقوساً » و « الفقوس» من أسمائهم المحلية الشائعة فى كثير من أقاليم الشمال الإفريقى[4].

---

(١) الخفاجى ، شفاء الغليل (نشره محمد المنعم خفاجى) ص ٢٢١ .

(٢) الكنكر من الفارسية وردت في مفردات ابن البيطار وغيرها: وقنارية من قنارة اليونانية. ومدلولها الفرنسي Artichaut من خرشف العربية وهي اسم هذه البقلة. وفي معجم الألفاظ الزراعية تفصيل ذلك. (لجنة المجلة).

(٣) العامة «البزليا» هو البسلة والبسلى Petit - pois. أما الجلبان فهو بالفرنسية Gesse . وفي معجم الألفاظ الزراعية أوجه التلفظ بكلمة جلبان .(لجنة المجلة) .

(٤) اللسان مادة «جلب» .

(٥) الفقوس في القاموس المحيط البطيخ الشامي أي ما يسمى اليوم البطيخ الأخضر في الشام Pasreque. أما في الاستعمال الحديث فالفقوس ضرب من القثاء. وفي مادة Concombre chate ou d'Eayate من معجم الألفاظ الزراعية تفصيلات بصدد هذه الكلمة وأشباهها.

أما (البامیه) المعروفة فی المشرق فلها اسم غریب عند التونسیین لا یعرفون غیره ، هو (القنّاویة) بتشدید النون .

ویطلق التونسیون علی بعض (الحیوان) أسماء لم أهتد إلی أصولها اللغویة ، فالخروف الصغیر یدعونه (علوش) بتشدید اللام وهم ینطقون بالواو کما ینطق الحرف اللاتینی (O) .

ومن ذلك (العتروس) للمعز ، و (السردوك) للدیك ، و (الحلّوف) للخنزیر .

الفصل الرابع عشر

الجديد في اللغة والمعجم العربي الحديث

شارك العرب الأقدمون فى العلم اللغوى كما شارك غيرهم من الأمم القديمة كاليونان والهنود والصينيين . ولعله من غير المجدى فى عصرنا الحاضر أن نبحث فى أصل اللغة ، والذى يعنينا من اللغة أنها مظهر ونشاط للطبيعة البشرية الإنسانية وينبنى على ذلك أنها مظهر من مظاهر علم الاجتماع الذى يعنى بالنشاط الإنسانى فى مختلف أحواله .

واتصف « علم اللغة» فى العصر الحاضر بالصفة العلمية الخالصة أنه لم يعد ذلك مادة يستعان على إدراكها بالتأمل. بل هو مادة موضوعية يتبع فى معالجتها المنهج الوصفى ومن هنا يدخل « التطور اللغوى » فى هذا المنهج .

إن علم اللغة بهذه الحدود الجديدة من العلوم الغربية الحديثة التى بحثها الغربيون وتشعبوا فيها ، وقد كان ذلك إثر الاهتمام البالغ بمادعاه كريم Grimm بالقوانين الصوتية فقد كان سائداً أنها قوانين عامة شاملة تنطبق على جميع اللغات ، وهى كالقوانين الطبيعية الأخرى .

وقد عرضوا لأسباب هذا التطور فى الأصوات فردوا ذلك إلى الاختلاف الذى يحصل فى أعضاء النطق ، وقد عرضوا فى ذلك لجملة من الملاحظات والتجارب لإثبات ما يعتور الأصوات من تغير إذا ماحدث أى تشويه فى أعضاء النطق .

ومنهم من رد هذا التطور اللغوى إلى مايطرأ على المجتمعات من اختلاف الظروف الجغرافية والمناخية . وهم يبنون هذا على جملة وقائع عرضت لشعوب مختلفة فى تطورها التاريخى . على أنهم يذهبون مذاهب عدة فى تفسير هذا التطور الصوتى

غير أن هذه التفاسير المختلفة لا تسلم من الطعن فيها فهي وإن كانت وجيهة فإنها تفتقر دائما إلى الأصالة والشمول . بحيث يمكن الأخذ بها على أنها نظريات ثابتة .

وقد حلا لبعضهم أن يفسر التطور الصوتى بقوانين « مندل » فى الوراثة ، والرد على هذا من الأمور الهينة، وقد استعاروا طريقة تشارلز دارون العالم الإنكليزى فى التطور وهو ما يدعى بالمذهب الطبيعى ، قال دارون فى كتابه « أصل الأنواع The Origin of Species » بمسألة تنازع البقاء وظهور صفات خاصة فى بعض الأفراد وانتقال هذه الصفات الخاصة بالوراثة إلى النسل وشيوع هذه الصفات وكثرتها بحيث يمكن اعتبار من يرثها من النسل نوعاً مختلفا عمن لم يرثها . وقد طبق العالم الجيولوجى « ليل » النظريات على اللغة فقرر : «أن الأنواع فى الطبيعة ، واللغات فى التاريخ تتغير تبعا لنواميس متشابهة .. والعاملان الجوهريان فى اللغات هما كما فى الأنواع الطبيعية التغير والانتخاب . وكما يحصل فى الأنواع يحصل كذلك فى اللغات أيضاً نتائج عظيمة لتجمع أسباب عديدة صغيرة لا قيمة لها فى حد ذاتها كإدخال عبارات أجنبية وكثرة الخطباء والكتبة والاختراعات والاكتشافات وتعلم علوم جديدة وتنازع الألفاظ إلى غير ذلك مما يغير اللغة » .

ثم جاء بعد « ليل » العالم اللغوى شليخر فنشر كتابه بعنوان « دارون وعلم اللغات» وقد قرر فيه «أن مبادىء دارون تنطبق جميعها على كيفية نمو اللغات فإن جميع لغات أوربا يكاد يكون لها أصل واحد هو اللغة الهندية الجرمانية ، وتفرعت عدة فروع أولا ثم تفرع من هذه الفروع أخرى ، على أن تفسير التطور اللغوى بهذه المحاولات لم يكن إلا مجرد آراء أخذ بها اللغويون فى مطلع هذا القرن وهى من غير شك محاولات لا تسلم من النقد الذى وجه إليها .

غير أنه من الثابت أن التطور اللغوى يحدث فى مادة اللغة التي تؤلف بنيتها وكيانها وأعنى بذلك الألفاظ التى تبنى منها اللغة . هذه الألفاظ يخضعها الاستعمال فتجد فيها خصوصيات معنوية ذات ظلال دلالية Sémantique جديدة يستدعيها الزمان

والمكان وليست العربية بدعاً بين اللغات ذلك أن اللغات كافة تخضع لسنة التطور وأن الكلمة فى كثير من اللغات مادة حية يعمل فيها الزمان ويؤثر فيها وتجد فيها الحياة فتتطور وتتبدل وربما اكتسبت خصوصيات معنوية أبعدها الاستعمال عن أصلها بعداً قليلا أو كثيرا . وليست العربية بنجوة من الذى يطرأ على غيرها من اللغات .

وعلى هذا يتحتم على الباحثين والدارسين أن يأخذوا أنفسهم بالمنهج الوصفى . فإن كثيرا من الألفاظ انتقلت انتقالات عدة بحيث أن « المصطلح الفنى » يؤلف مثلا مرحلة معنوية من الدلالات التى انتهت إليها لفظة من الألفاظ أو تركيب من التراكيب .

فلا بد أن يعنى المعجم الحديث بهذه الناحية ويثبت هذه الألفاظ التى جدت فى العربية واقتضتها ظروف المجتمعات الجديدة .

ومن العجب أن المعجم العربى الحديث لم يول هذه الناحية ما تستحقة من عناية كافية . وربما تنكر أصحاب المعجمات الحديثة إلى هذا النوع من المولد الجديد . وليس عجيبا أن يكون نفر من هؤلاء يعتبر الجديد المولد غير فصيح وإن اقتضاه عصرنا وجرى عليه الاستعمال ، وشاع وقيد فى النصوص والوثائق . وهذا النظر وإن تمسك به جماعة من اللغويين فى عصرنا فإن المعربين كافة أخذوا أنفسهم باستعمال الجديد ، وقد بحث الأوربيون فى هذه الناحية وألفوا فيها مصنفات عدة ما زالت تدرس حتى يومنا هذا .

وإذا عدنا إلى عربيتنا الحديثة وجدناها تزخر بمئات الألفاظ الجديدة المولدة والمعربة وقد أخذت طريقها إلى الاستعمال وصارت مخصصة مقيدة بنوع خاص من المعنى . غير أن اللغويين مع ذلك مازالوا مترددين فى عدّ هذا الجديد من الفصيح .

أقول من الواجب علينا أن نفسح لهذا الجديد الذى قذف به المستعملون

مكاناً فى كتبنا اللغوية لأنه صار من مادة هذه اللغةوسأعرض لجملة من هذه الألفاظ ولم أرد من ذكرها إلا أن تكون أمثلة على النهج الذى أشرت إليه من ذى قبل . وهذه أشتات جمعتها من هنا وهناك ولم أتبع فى جمعى هذا منهجا خاصا فمنها ماشاع فى لغة الصحافة اليومية : ومنها ماهو جار على ألسنة المذيعين، ومنها ماهو مستعمل فى لغة الكتابة غير الأدبية كالألفاظ الاقتصادية والسياسية نحو ذلك :

لعل أحداً يقول : إن هـذه الألفاظ ينبغى أن تصنف فى مجموعات حسب الاختصاص الذى تنسب إليه كأن يكون لألفاظ السياسة مجموعة خاصة ينتظمها سفر خاص ، وهكذا فى سائر الاختصاصات . وهذا صحيح غير أن العربية ما زالت مفتقرة إليه .

على أن هذا لا يعنى إغفال هذه الألفاظ الجديدة فى المعجم اللغوى ، ذلك أنها معان جديدة ينبغى أن يشار إليها بإيجاز فى معجم لغوى حدث .

ودونك شيئا من هذه المولدات والمعربات :

(١) الأمبريالية لفظة أعجمية الأصل عربت على هيئة المصدرالصناعى ، والمصدر الصناعى مادة مهمةفى العربية أفيد منها كثيراً فىالتوصل إلى كثير من المصطلحات العلمية . والكلمة تعريبImpérialis وهى تعنى فيما تعنيه الاتجاه السياسى المتصف بالسيطرة والتوسع . وعلى هـــذا فالأمبريالية درجة عليا من درجات الاستمار . والوصف منها « أمبريالى » هذا مقابل لـ (Impérial) . والأصل الأعجمى القـــديم الذى بنيت منه الكلمة الغربية هو الكلمة اللاتينية التى ترجع إلى العصور المتأخرة Imperial أو هو من « Imperium » ، وهذه الأخيرة تعنى empire وهى التى عربوها «الإمبراطورية » أو « الإنبراطورية » :

والأمبريالية كلمة يستعملها صنف كبير من الكتاب السياسيين والاقتصاديين وتظهر فى كتاباتهم للتعبير عن مصطلح أعجمى لا بد من توفيره فى العربية . وهى كسابقتها « الإمبراطورية » من الشيوع والاستعمال .

وبعد فليس من الحق ألا يذكر المعجمى شيئا يسيرا عن هذه المعربات :

ومن الناحية التاريخية إن الوصف بـ « الإمبريالى » Imperialiste كان قد عرف فى سنة ١٥٤٦م بمعنى المتعصب والمنحاز للامبراطورية الألمانية . وفى القرن التاسع عشر كان الوصف يعنى من يتعصب للأسرة النابوليونية . ثم صار يعنى من يتعصب ويميل للامبراطورية البريطانية التوسعية .

٢ — الإنتاجية : مصطلح جديد قذف به كتاب الاقتصاد ويريدون به (قابلية الإنتاج) « Penductivite وقد بنى هذا المصطلح على المصدر الصناعى . وعندى أن المصطلح من كلمة واحدة خير منه إن كان مركباً من كلمتين أو أكثر .

٣ — الانتهازية : كلمة تشيع فى كتابات المعاصرين للتعبير عن نمط فى الأخلاق غير مستحب ، فالانتهازى عندهم هو النهاز للفرص بغية الحصول على منفعة . وعلى هذا فالانتهازى من لا يؤمن والكلمة من غير شك ترجمة Oppertunism .وهى معروفة عند الكتاب السياسيين مستعملة فى كتاباتهم . الانتهازى من الساسة من يحسن الإفادة من الظروف خدمة لمصلحته .

فإذا كانت الكلمة بهذه الحدود الواضحة وبهذه الكثرة من الاستعمال فمن الغريب أن لا تحصر فى معجم لغوى حديث للعربية .

(٤) الانهزامية : كلمة أخرى تشيع فى كتابات المعاصرين ممن يتناولون المسائل السياسية . وهى نموذج من الخلق خاص ، فالانهزامى هو الذى لا يتحمل مواجهة الأمور الصعبة والظروف الدقيقة وإنما يفضل الابتعاد عن هذه المواطن . والكلمة ترجمة للكلمة الأعجمية « Defaitisme » .

وأظن من المناسب أن يشار إلى مثل هـــذه المولدات الجديدة فى معجم جديد للعربية .

البرجوازية . مصطلح جديد بنى على المصدر الصناعى للتعبير عن طبقة اجتماعية

خاصة ، وهى الطبقة الوسطى كما يذهب أصحاب علم الاجتماع . على أن الكلمة قد تكون وصفاً فيقال : المفاهيم البرجوازية أى مفاهيم هذه الطبقة وأنماط تفكيرها

والكلمة تعريب للكلمة الفرنسية Bompeolsie

والأصل فيها كلمة . Bourg وتعنى المدينة فكأن « البرجوازى » فى الأصل ساكن المدينة Bourgeois ثم تطورت فى الاستعمال عبر العصور فصار البرجوازى يعنى التمتع بحقوق خاصة تمليها عليه سكنى المدن ، ثم صارت تعنى الرجل المرفه المترف ، ثم هى عند العمال تعنى رب العمل أو السيد المطاع . وربما أفادت الكلمة من هنا المعنى السلبى الذى اتصفت به فى بعض الأحيان ذلك أن البورجوازى عند هؤلاء العمال فى بداية عصر التحول الصناعى ، إنسان غير محبوب ، وإذا كان غير محبوب فالكلمة تشير إلى النبز من هذه الناحية .

وهى فى كتابات علماء الاجتماع والسياسيين صارت تعنى طبقة من الناس لها أفكارها ولها أخلاقها ، ثم اندست معربة فى العربية بهذه الخصوصية المعنوية . وعلى هذا فمن المفيد أن يشار إليها فى معجمنا الحديث .

(٦) التقدمية ، مصطلح جديد يفيد طريقة فى التفكير وأسلوبا فى العمل وفلسفة تجنح إلى التقدم والعزوف عن الجمود وهى كلمة جديدة شاعت فى كتابات السياسيين وعلماء الاجتماع ، فى مطلع هذا القرن ولاسيما فى كتابات الاشتراكيين وأنصار مذاهب « اليسار » والتقدمى هو القائل بالتقدمية والسالك فى نهجها والآخذ بفلسفتها .

وهى من غير شك ترجمة لـ Progressisme والتقدمى هو Progressiste

ومن المفيد أن نشير أن الكلمة حين استعملت فى العربية أوشكت أن تكون مرادفة للاشتراكية حيناً أو للشيوعية حينا آخر فى نظر طائفة من الناس . ثم توسع فى استخدامها حتى استقرت فى مكانها الصحيح .

ومن المفيد أن يشار إلى هذه فى معجمنا اللغوى ولو كان ذلك بإيجاز لا يخل بالفائدة المطلوبة .

(٧) الثورية مصطلح جديد يفيد النزعة إلى الثورة والاندفاع إليها . و « الثورى » هو المتصف بهذه النزعة وهذا الاندفاع .

(٨) الجمهورية . نظام معروف فى الحكم . ولا نرى حاجة للقول إن الكلمة لا بد أن يشار إليها فى معجم لغوى للعربية لشيوعها واستعمالها .

(٩) الديمقراطية ولا أرى حاجة للاسهاب فى شرح هذا المصطلح الذى صار من الشيوع بحيث صار مفهوماً لدى المختص وغيره . وقد عرب الكتاب العرب هذه الكلمة وأجروها على المصدر الصناعى للتعبير عن المعانى التى تنطوى عليها كما أخذتها أمم كثيرة للتعبير عن المعانى نفسها فلا بد أن نشير إليها فى معاجمنا إشارة كافية .

(١٠) الديماكوجية وهذه كلمة جديدة أخذت سبيلها فى كتابات المعاصرين من أصحاب علم الاجتماع والسياسة . وهى معربة على هذا النحو والأصل هو «Demagogie» وهذه تعنى فى السياسة الطريقة التى يتملق بها الجمهور العامة .

والكلمة من مادة إغريقية هى «Demagogia» . والمتمذهب بهذا المذهب «Demagogue» أى الديماكوجى ، ومن المفيد أن أشير إلى أن هذه الكلمة قد استعملها الكتبة اللبنانيون المعاصرون على هذا النحو من التعريب .

غير أنه لا بد من إشارة إلى أن آخرين قد استعملوا هذه الكلمة بعد ترجمتها « بالغوغائية) نسبة إلى (الغوغاء) . للتعبير عن المعنى نفسه .

ولا بد أن يشار فى معجمنا العربى الحديث إلى هذه الكلمات عملاً بالنهج

العلمى الذى يؤرخ الألفاظ فى علم المعجمية الحديثة (Loxicographie) .

(١١) الرأسمالية مصطلح جديد من مصطلحات علم الاقتصاد الحديث . والكلمة مركبة منحوتة ، فإن (رأسمال) بالهمز أو (راسمال) بالتسهيل كلمة جديدة وكأن تركيبها قد أغفل فصارت تجمع جمع تكسير على (رساميل) . على أن تركيبها مازال معروفا فى جمعها على « رءوس أموال » . والعامية قد صنعت فعلاً من هذه الكلمة هو « رسمل » واستعمالها يفيد أن البضاعة المبيعة أحرزت « رأسمالها » فلم تخسر ولم تربح .

(١٢) الرائد وهى كلمة معجمية قديمة . والرائد الذى يرسل فى التماس النجعة وطلب الكلأ ، وفى حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع) فى صفة أصحابه : يدخلون رواداً ويخرجون أدلة أى يدخلون طالبين للعلم ملتمسين للحلم ويخرجون هداة للناس . وأصل الرائد الذى يقدم القوم يبصر الكلأ ومساقط الغيث .

هذا هو استعمالها المأثور عن العرب الأقدمين أما الاستعمال الحديث لهذه الكلمة ففيه شىء من الجدة ينبغى أن يشار إليه لا يكتفى بتخطئه فيقال « الزعيم الرائد » فى الكلام على الرئيس جمال عبد الناصر مثلاً ، أو يقال : الصحيفة الرائدة . وهذا نوع من الاستعمال جديد يوصل إليه بشىء من اللطف فى التشبيه والمجاز .

(١٣) الرجعية مصدر جديد مبنى على طريقة المصدر الصناعى للتعبير عن معنى جديد هو الميل للأفكار القديمة وعدم الإقبال على الجديد من الفكر والعمل . ووصف نفر من الناس بالرجعية نبز لهم ولا يصفهم بذلك إلا أهل أنصار الجديد وأصحاب التقدمية .

والكلمة ترجمة للكلمة الأعجمية « Reaction » . وصاحب هذه الصفات

(رجعى) « Reactionnaire » وقد تلصق هذه النعوت بشىء كثير من التساهل والتجوز .

وعلى هذا فهذه معان جديدة استفيدت من هذه الكلمة المترجمة لا ينبغى أن تغفل فى عربيتنا الحديثة . ذلك أنها تؤلف هى وغيرها مادة مهمة فى لغة الصحافة والوثائق وغير ذلك .

(١٤) العملاء وهى من كلمات النبز والشتم الجديدة . والكلمة جمع مفردها « عميل » والمراد منه أنه العامل لجهة أجنبية ضد مصلحة وطنه ولا يوجد فى العربية صفة على « فعيل » من هذه المادة فالكلمة فى صورتها الاشتقاقية جديدة ومعناها جديد أيضا . وهى تقابل (Agent) الأعجمية ، والكلمة من الشيوع بحيث يجب أن ينص عليها إذا أريد تسجيل العربية تسجيلاً تاريخياً .

(١٥) الفوضوية وهو اصطلاح جديد يريدون به سيطرة الدهماء والغوغاء . وهو مذهب له أنصار فى المجتمعات الغربية الحديثة وهؤلاء الأنصار نفر يحلو له أن يفكر تفكيراً غريباً مثل القول بالفوضوية والكلمة ترجمة لـ Anarchisme وقد بنيت الكلمة الجديدة على كلمة (فوضى) المعروفة وينبغى أن نعرض لهذه الكلمة التى تقلبت فى الاستعمال ، فالمعروف أن (فوضى) جمع على (فَعلى) وهى من غير شك (فضّى) جمع فضيض ثم عرض لها الإبدال ، وكثيراً مايعرض هذا النوع من الإبدال ، ثم إن المعنى يدل على هذا الأصل ، فكلمة (فوضى) تعنى المفرقين وإلى هذا ذهب الشاعر القديم :

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... ولاسراة إذا جهالهم سادوا

أقول : إن هذه الكلمة أصابها التحول والتبدل بسبب الاستعمال الكثير ، فقد انتقلت من الجمع إلى المصدرية إذ المعروف أن فوضى فى لغتنا الحديثة تعنى (عدم النظام) وماأبعد هذا عن المعنى القديم . وفى هذا عرض للتطور الذى يعتور اللغة .

(١٦) الكولونيالية وهذا مصطلح جديد معرب على هذه الطريقة قذف به المعربون فى كتاباتهم السياسية ولاسيما الكتاب اللبنانيون فى عصرنا . والمراد به « الاستعمار » وكأن هؤلاء عدلوا عن الاستعمار لعمومه وشموله وعدم تحديده المراحل السياسية والحدود التى يجرى عليها استعباد الشعوب ، وعند هؤلاء أن « الكولونيالية » ألصق بنوع خاص من السيطرة لا تؤديه كلمة « استعمار » وهو من « Colonisme » ولا ندرى أيكتب لهـذه الكلمة المعربة الشيوع والبقاء أم يطويها الزمن كغيرها مما يقذف به الكتاب لحاجة طارئة تقتضيهم ذلك) .

(٧) مؤتمر : هذه كلمة اصطلاحية جديدة يراد منها أن تكون مقابلا لـ Congres وهو الندوة التى يجتمع فيها نفـر من الناس يتشاورون فى أمر ما والائتمار والاستئمار المشاورة وكذلك التآمر وكذلك المؤامرة . وعلى هذا فإن التآمر والمؤامرة بمعناها الحديث وهو المكيدة والغدر والخديعة لم يكن معروفاً ، ولم يرد شىء من هذا المعنى إلا فى « الائتمار » فى التنزيل : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » قال أبو عبيدة : أى يتشاورون عليك ليقتلوك . وعلى هذا فإن هذه الكلمات : « مؤامرة » و « تآمر » من الكلمات المعروفة التى شاعت وكثر استعمالها فى المعنى المشار إليه فى أعلاه وهى تعد من باب المولد الجديد الذى ينبغى أن ينص عليه .

(١٨) المحسوبية: كلمة معروفة يكثر استعمالها فى لغة الدواوين ويراد منها أن يكون لبعضهم من أصحاب الأمر جماعة يحسبون له فهو يقدمهم ويسالمهم ويؤثرهم على غيرهم وليس فى ذلك مراعاة للحق والمصلحة العامة . وهذه الخصوصيات المنوية شىء جديد اكتسبته الكلمة فى الاستعمال الذى صير منها مصطلحاً خاصا .

(١٩) المسئولية : مصدر جديد يراد به الاضطلاع بالأمر وتحمل العواقب والتهيؤ للعمل الجاد بحيث أن صاحب المسئولية مسئول عمـا يقوم به . وهذا مما ينبغى أن ينبه عليه فى كتب اللغة التى تعنى بالجديد من المعانى .

(٢٠) النضالية وهو كلمة جديدة مبنية على طريقة المصدر الصناعى للدلالة

على الاستعداد الطبيعي للعمل الشاق فى سبيل تحقيق هدف سام كالأعمال الوطنية عامة والنضال ضد المستعمر مثلا . ومجيء الكلمة كما قلت على طريقة المصدر إشعار أن هذه الكلمة أصبحت مصطلحاً يفيد « القابلية على النضال » .

(٢١) الوصولية من المصطلحات الجديدة التى يرادمنها صفةمن هو «وصولى» أى من لا يقف دون حاجته ومصلحته أى شيء فهو يرتكب ما يرتكب فى سبيل هذه الحاجة .

هذا خلق ردىء وعليه فالوصولية نبزوشتم وهى تحضر فى كتابات السياسيين فى عصرنا ولا بد من الإشارة إلى هذا النوع من التوليد الجديد .

وهى من غير شك تقابل Arrivisme

(٢٢) السطحية : : والسطحى من الرجال الذى لا يتعمق فى معالجة الأمور وهذه كلمة تترجم بها الكلمة الفرنسية Superpiciel . ولما شاع هذا الوصف فى هذا المعنى المجازى صاغوا منه المصدر الصناعى « السطحيّة » للدلالة على عدم التفكير العميق فى النظر إلى الأمور .

(٢٣) المواطنة : والصفة منها « مواطن » اسم فاعل من « واطن » أى ساكن وعايش وهو صيغة جديدة مولدة ، ذلك أن مادة « وطن » لم تنصرف إلى هذه الصيغة فى الأساليب القديمة .

وكأنهم أرادوا بتوليد هذه الصيغة من هذا الفعل الجديد أن يوجدوا ما يقابل الكلمة الفرنسية Compatriote .

(٢٤) الرتابة والوصف منه رتيب يقال : حياة رتيبة ، والمراد حياة سائرة على وتيرة واحدة لا تبديل فيها ولا تغيير . وهم يريدون بـ « الرتيبة » الداعية إلى الملل والسأم وهذا استعمال جديد لم يرد قبل هذا العصر . وقد ورد فى استعمالهم القديم « عيش راتب » أى ثابت دائم .

(٢٥) الصفاقة : والوصف منه صفيق وهو من « صفق » بمعنى ضرب . وكأن الصفيق هو المضروب ثم تطور به الاستعمال فصار يعنى من لا يستحى . وهذا شيء جديد فى لغة هذا العصر .

(٢٦) التأميم : مصطلح جديد من مصطلحات أهل الاقتصاد فى عصرنا وهم يريدون به ترجمة الكلمات الأعجمية Nationalisation . والمصطلحات الاقتصادية الحديثة ولدت جميعها لتؤدى معانى الألفاظ الأعجمية مثل الاشتراكية والشيوعية والاستعمار وغيرها وقد اقتضاهم الأمر إلى أن يعربوا ولا يسلكوا طريق ، الترجمة ، فقدقالوا : « الأمبريالية » كما مر بناحين وجدوا أن «الاستعمار» لا يقابلها تمام المقابلة .

(٢٧) التخطيط : من مصطلحات الاقتصاديين الحديثة وهو يقابل Planification ودلالته معروفة . ومن المفيد أن نشير أنه ما زالت مسألة المصطلحات العلمية الحديثة متأثرة بالإقليمية فقد نستعمل التخطيط فى إقليم من أقاليم العربية فى حين أن الإقليم الآخر يستعمل « التصميم » لأداء المعنى نفسه ومثل هذا كثير فقد تطلع علينا صحيفه بعنوان كبير عن نشوب (مظاهرة) كبيرة فى بلد ما ، فى حين أن صحيفة أخرى تعدل عن المظاهرة إلى التظاهر .

وفى الوقت الذى استطاعت فيه العربية أن تؤدى الكثير مما جاء به الحديث ، فما زلنا نستعمل فى صحفنا « المانشتات » Manchette ، والماركات المسجلة Marque ؛ « والكليشات » Cliché; و « المناورات » Manœuvre مع العلم أن هذه ليست مما لا يمكن إيجاد مايقابلها من أبنية العربية .

(٢٨) المعطيات : ماده جديدة شاعت فى كتابات الكتاب فى عصرنا هذا فى السنوات الأخيرة ، وهى تقابل Donnée الفرنسية أو قل ترجمة لها . والكلمة الفرنسية وإن كانت تتصل بمادة « العطاء » من حيث الأصل ولكنها بعيدة عن مدلول العطاء . إن الكلمة تعنى المعلومات أو الأفكار الثابتة التى تنجم عن قضية

من القضايا . والقارىء العربي الذى لا معرفة له بالفرنسية أو أية لغة غربية أخرى لا يدرك معنى « المعطيات » بوضوح ، وذلك لأن الفعل « أعطى » فى العربية لا يعرض لها المجاز والتوسع على هذا النحو . ونجم عن ذلك أننا قذفنا باستعمال جديد لم تجر عليه العربية . ثم إن « المعطيات » ليست من المواد الصعبة والتى تدخل فى حيز المصطلحات العلمية التى لا بد منها . ومن الممكن نقل الكلمة الفرنسية Donnée إلى غير « المعطيات » مما يدركه القارىء العام .

ومن المفيد أن نذكر عبارة معجم لاروس الصغير الفرنسى فى شرح هذه الكلمة :

Point incontestable ou admis comme tel.
Idée fondamentale d'un ouvrage d'esprit.

(٢٩) التقنى والتقنية : وهما تعريب للكلمة الفرنسية Technique اسماً ونعتا فكأن (التقنى) تقابل الاسم والتقنية صفة لموصوف مؤنث متخصص بها وقد ترجموا Terme technique بالمصطلح العلمى أو الفنى . والذى ألاحظه على المعرب الجديد (التقنى) عدم الوضوح فى كون هذه المادة تشبه مادة (قنى) العربية من حيث بناء أصواتها ، أو أنها تشبه مادة (تقن) وعلى هذا فقد كان أكثر ملاءمة أن يعدل عن القاف فى (التقنى) و (التقنية) إلى الكاف فى الأصل الأعجمى .

وبعد فهذا عرض لجملة من الألفاظ والمصطلحات الجديدة التى اقتضاها التطور اللغوى الذى تمليه حاجة من الحاجات ولذا فإن من الجدير باللغوى أن يشير إليها وينبه على استعمالها .

المحتويات

صفحة

التطوّر اللغوي
التاريخي

هذه جملة فصول فى التطور اللغوى فى ظروفه التاريخية . وهو قائم على الإفادة من القديم والجديد ، هادف إلى بيان أوجه هذا التطور والعوامل التى أثرت فيه .

وأنا إذ أبسط للقارىء هذه المواد أدعوه أن يسير معى فيتفهم أن هذه اللغة فى حدودها الواقعية فى عصرنا هذا غيرها بالأمس ، وأنا أدعوه أيضا إلى درسها درسا جديدا مستقريا نصوصها فى مختلف العصور ليستكمل له البحث العلمى التاريخى ، وبذلك يتهيأ لهذه العربية أسلوب فى الفهم والعلم على نحو ما هو جار فى اللغات المتقدمة فى عصرنا هذا .

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

تصميم الغلاف
حسن عاصي

الثمن
١٧
ل.ل.